

رواية
الغزل

وثالثنا الورق

خيرى شلبى



العدد ٥٥٦
ابريل ١٩٩٥ • ذو القعدة ١٤١٥ هـ
NO - 556 - aP - 1995

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة شهرية لنشر القصص العالمية

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

مجمود قاسم



ثمن النسخة

سوريا ٢٥٠ ليرة - لبنان ١٢٥٠٠ ليرة -
الأردن ٥٥٠٠ فلس - الكويت ٢٠٠٠
فلس - السعودية ٣٥ ريال - تونس ٥
دينارات - المغرب ٥٠ درهما - البحرين
٢,٥٠ دينار - قطر ٢٥ ريال - ألبانيا
٢٥ درهما - سلطنة عمان ٢,٥٠
ريال - غزة والضفة والقدس ٤ دولارات -
المملكة المتحدة ٥ جك

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨
جنيتها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او
بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية
٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا
٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر
مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال
عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك في الكويت : السيد عبدالعال يسوي زغول
: الصفا ص - ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدیان
سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتب : ص . ب :
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا :
المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فلكس : FAX 3625469

وثائقنا الورق

سيرة شعبية يرويها :

خيرى ثلبي



دار الهلال

الجزء الثالث والأخير من :

الأمالى

لأبى على حسن .. ولد خالى

الغلاف للفنان :

حلمى التونى

تطبيق

تحلف اليعمين يابوى أن الولد هليل قد ارتاع حين رأى فجأة أمامه على غير انتظار بعد غيبة طويلة عن البلدة وفى حالة من التقمش والقنزحة فشر سعادة الباشا النحاس فى عز مجده ..

بالحضن يابو العم . فى كلمات قليلة فهم أننى قد اغتيت صرت من وجوه القوم أسكن على كورنيش النيل متلى مثل كبراء مصر ، وأننى بعون الله وفضل من الشيخة سعادة قد تبت عن كل ما يغضب الله . قال بشيء من الخبث إنه لا يعرف الشيخة سعادة هذه ولم يسمع بها من قبل . فلما أخبرته أنها من أسيوط ومعروفة لكبراء البلد نظر لى فى حسد مصطنع وطلب منى أن أعرفه عليها بحق الأخوية . ومع أننى لا أعرف عنوانها فإنى قلت له : إن شاء الله ستنصل إليها معا إذ أنها لابد أن تبارك مشاريعي التجارية التى أنوى إقامتها هنا أو فى مصر ..

على أن الإرتياح أفقده توازنه وجعله يضرب كفا على كف لما حكيت له عما انتويت فى زيارتي هذه المفاجئة للبلدة محملا بالهدايا من كل لون قلبك يحبه ..

- «هيه إتريد أن تخطب البنت حنه يابو العم ؟! كلام كالعسل !»

استشعرت فى كلامه نبرة الهزء والاستهجان . كنا نجلس وحدنا فى قاعته المنفصلة وحدها فى جوف الدار مطلة على حوش الدجاج والبط والأوز والأرانب ، والمنفتح على السماء مباشرة . فتحنا الشباك الذى يبص على الحوش ، فهبطت السماء على فتحة الشباك كالخيمة الرمادية يضىء من خلفه فانوس نرى رسمه وضوءه المحجوب خلف الخيمة وذلك كان قرص الشمس الذى لم يكن ميعاد رواحه

قد حان بعد ؛ مما جعل الأمر يبدو وكأن في الأمر ثمة مؤامرة غامضة ..

وجه هليل نفسه كان هكذا يابوى : فانوس الحق والعدل في موافقته على ما انتويته يضئ خلف قماشه وجهه الرهيفة لكنه يظهر كما لو أنه جاء بقماش الخيم المشمع السميك فطرحة على وجهه ليطفىء به فانوس الحق . لكننى على ضوء هذا الفانوس الذى استمر يضئ خلف سحابة ظلماء مريدة فى عيني هليل . رحلت أحكى عما سأنعله بكل صدق وحرارة ؛ فيما هو قاعراً فاه من الدهشة لا ينطق . فلما رأتى قد أنهيت كل ما عندى من كلام هب واقفا ؛ سحبني من يدي :

- «قم بنا !» .

فى صوته خشونة تشي بكثير من الوعيد والتهديد . قلت وأنا متشبث بمكانى:

- «دعنا هنا فى أمان الله ياخوى !»

أمسكنى من قفائى ، علامة على شدة استحقاره لى مع الإنذار بأنه لن يعرف الأدب معى هذه الليلة بل ربما ضرينى . نعم يابوى هذا ما توقعته ؛ ففى سبيل مصلحتى يمكن أن يتجن . من هنا حرصت على أن يتم الكلام والتشاور هاهنا فى أمان الله بسر هادئ بعيداً عن الذى يسوى والذى لا يسوى . لكن يظهر يابوى أن قرص الشمس الأحمر عدل عن الرواح وسكن فى عيني هليل فصارتا تفحان لهما وشرراً حتى لقد خفت منه والله يابوى فقامت معه فى الحال متمتما :

- «اللهم اجعله خيراً !» .

فاذا به يلطمنى بطرف عباة الجوخ التى كان يلها لحظتئذ حول كتفيه ؛ فلم أدر - من عنفها - أكان يقصدها أم أنها جاءت عقوا لوقوفى فى طريقها ؟ إلا أنه لم يعتذر ولم يعبأ بعينى التى دمعت من لسعة اللطمة ..

قلبي حدثنى يابوى بأن الأمر فيه شيء غير طبيعى جعل هليل ينقلب هكذا

فجأة فيقع في حمأة الغضب لهذا الحد . ثم إننى فكرت يابوى : إذا أنا مشيت مع سلامة نيتى بأنه زعلان على شانى فالإنسان لا يزعل على الواحد أكثر من نفسه . شعرت فى الحال ياخال أن نودة الغضب بدأت تنفّس فى صدرى بل إن فقسها راح يجرى هنا وهناك فى كل عروقى . مرت برهة وجيزة شعرت فيها أننى أحمل الجبل كله فوق صدرى ، وأننى أحاول الإفلات من تحته لأفعل فعلاً مجرماً : أضرب هليل مثلاً أو أتف فى وجه الدار كلها وأنصرف . قلة الأصل كانت شبحاً قبيح المنظر واقفاً أمام عيني كالجدار ؛ فلما انزاح الجبل اختفى وصفت عيني من غبار الغضب . زفرت بشدة وحمدت الله . لكن مخى راح يضرب بقلب ، ذلك يابوى أننى تذكرت أن غضب هليل هذا لم يكن فيه مفاجأة ، إنما الزعل بدأ يظهر عليه منذ جنّت بسيرة البنت حنه ، مما جعلنى أتوهم بأنه يحبها وينتوى لها نية معينة فى نفسه . قلت لنفسى : اللهم نجنا من الفتن يارب واحفظ لى صديقى هليل وابق على الصداقة بيننا من أجل خاطرى ، إحفظه يارب من لسانى المفلوت ، من قلبى المسودّ بهباب العوز والتشرد فى مصر معلومة الرحمة ..

- «على كل حال لن نختلف يا هليل ! الكلمة كلمتك والشوره شورتك ولن أفعل

شيئاً إلا بعد رضاك ! »

هكذا قلت وأنا أسبقه نحو الباب . لكنه كان مكفهرأ وغير راغب فى الكلام بقيت واقفاً شاعراً بالذنب حتى انتهى من لبس حذائه الأسك ولعه وسحب عصاه ومضى . فتح الباب متنحنحاً : استدار برأسه نحوى فى نظرة خاطفة تعنى : إتبعنى ..

صرت رجلاً أبهة ياهليل ياخوى ؛ لبست العباة مبكراً وأمسكت بالعصا قبل الألوان ، صرت شيخ عرب يملؤه الشباب تنسكب منه الرهبة يتجسد الورع والتقوى على صفحة وجهه ولو أطلقت لحيتك لصدك القوم إن زعمت لهم أنك أمير المؤمنين.

معك حق يا ولد ، فأنت الآن تعيش رجولتين ، رجولتك ورجولة أبيك التى فاتته أن يعيشها فى الوقت المناسب مثلك . ذلك المتصابى المهزار لولاك يا هليل لأصبح هزأة للقوم إنما الفضل فى النهاية يرجع لأبيك يا هليل مهما كان ؛ لقد أهمل نفسه ورياك على الغالى ، إقتنى وملّكك ؛ توارى لكى يظهر لك على القوم ؛ تواضع فألبسك فكبرك . أكون حماراً إذن لو خسرتك من أجل أى شىء ؛ لكن مسألة حنة هذه هى العقبة الصلبة بيننا الآن ؛ هى الكلكعة فى قلبى فاللهم أذهبها اللهم اجعله يوافقنى على مسعائى الشريف إجمعه يفهم غرضى فلا يتشدد بكلام عن الأصل والتربية فكلنا أولاد تسعة ثم إن مسألة الأصل هذه يعلمها الله وحده ولربما كانت هى من أصل أفضل من أصلنا فالزمن غدار لا يؤتمن ؛ وإذا سلمنا بقول أعمامى بأننا نمثُّ بصلة نسب قديم إلى الإمام الشافعى فأين نحن الآن من الإمام الشافعى ؟! كلنا أولاد آدم وحواء وكلنا خطاة ومكتوب علينا الخوض فى الطين .

تفنيط

صرنا فى الشارع نمشى باحتراس واحترام لم أعده فى نفسى من قبل .
وكننت أحس أن احترام هليل لنفسه ينعكس على تلقائيا . كل من مررنا بهم يهبون
وقوفا ليسلموا علينا ولايد أن يوجهوا الحديث إلى هليل ..

حازينا غابة النخيل مشينا أكثر من نصف ساعة دون أن يفتح أحدا فمه
بكلمة . كانت رياح الغروب تهب علينا كلما اقتربنا من الجبل ؛ إذ هى تلم الجبل
فيفتتها يبعثرها علينا فيتلقفها النخيل بالزغاريد ، بضجيج فرح خشن ؛ والهواء
يتلاعب بنا ويخلقاتنا فتبرز الطبنجة فى جيب الصديرى تحت إبط هليل ..

بدأ القلق يساورنى ياخال : إلى أين يذهب صاحبى العزيز الغالى ساحبا
إياى؟ أيمكن قد أصبح فى غيبتى من المطايرد ؟! إنه لا يمكن أن يكون منهم أبداً.
لكن الملعون يخرم بى نحو الجبل . أخذ ينور حوله . رأينا فى سفحه الخلفى غابة
كثيفة من البوص والهيث والحلفاء ؛ خلفها حقول من القصب ؛ بدت فى تلك
اللحظة يابوى كشوارع من الرعب المصفوف تتصاعد منه أنفاس كالفحيح
كالزفييف . عجبت والله ياخال كيف يتأتى لهليل المسالم أن يجىء إلى هذه المنطقة
فى دخلة الليل ؟ صحيح إنه مسلح وقوى وشجاع ؛ ولكن كيف يأمن الشجاع على
نفسه بينما صفوف الخيانة مرتصة حواليه وإن حوت رحيق القصب السكرى ؟! ها
هو ذا يتقافز فوق نتوءات الطريق يتجنب عثراتها بمهارة المتودك يخرم من خلال
قطعان القصب فى جراءة وثقة كأن كل هذه العيدان التى بلا حصر وبلا نهاية تأتمر
بأمره تخضع لهيئته . ظهر كما لو أن المسافة التافهة التى بين العيدان قد اتسعت

له مبتلعة ظلالها كى تحتويه . حقول القصب بحر ، حين غطسنا فيه رأينا ما فى جوفه مما يطويه الموج من خفايا وأسرار ؛ ففى هذه البقعة يعيش المطرود الفلانى؛ وفى هذه الشقى العلانى ؛ وهنا قتلوا فلان الفلانى ؛ وها هنا ذبحوا فلانة الفلانية .. إلخ إلخ ..

صرتُ يابوى - أنا يا المخريشاتى - أمشى وراءه كطفل غرير . لا أقوى حتى على سؤاله عن وجهتنا . زعق فى صدرى صوت يقول لى : ما أنت إلا ولد دعى خلبوص . ما كاد سرداب الليل يحفر عميقا فى الظلام حتى بزغت عين محمرة تتموج فى البعيد تحت أجفان السواد هى الأخرى تتسع خطوة بعد خطوة فرأينا ذبالة ضوء كبيرة ، سرعان ما تكررت وتعددت وترادفت ، حتى استطعنا أن نتبين على ضوءها أشباح جدران رابضة كسوء المصير الذى ينتظر كل سالك سبل الظلام . لكن هذه الجدران الكالحة سرعان ما وضحت فى دور ذات أبواب وشبابيك تفصلها شوارع وحارات . هى إذن بلدة صغيرة مجهولة . متى نشأت ؟ كيف لم أعرفها من قبل ولم أسمع خبرها ؟ هنا تكلم هليل ، شوح بذراعه نحوى :

- «هذه بلدة لا اسم لها !! لا أحد يعرفها حتى الحكومة نفسها فالحكومة دائما هى آخر من يعلم !! هنا تقيم طائفة من العبيد والخدم الذين يوفرون للمطاريد كل شئ يطلبونه من الخبز حتى اللحم البشبرى ! لا شئ يعز عليهم !! سكانها لا يعرفون الله ولا قلب لهم ! موتاهم يدقنون تحت نورهم ! وعلى كل حال فالمطاريد يسمونها الهيش ! لكن فيهم فضيلة : يحترمون الطبيب ويهابون القوى ! مع القوى يزينونه قوة إضافية ! ومع الطبيب يؤككون طبييته بالإحسان إليه ومساعدته إن طلب العون منهم شرط أن يطلبه بلسانه !!»

قلت من دهشتى :

- «أنا لست من هذه النواحي ياخال أم ماذا ؟! » .

جذبني من فتحة طوق جلبابى كصياح المدينة :

- «نعم أنت لست من هنا ! هذه البلدة عمرها مئات السنين ! ولو مكثت أنت طول عمرك فى بلدتنا ما كنت عرفتها فليس يعرفها سوى مجنون أو ضارب فى التيه على غير هدى !! ومن يلقى به سوء البخت فيها يسلم أمره لله فى الحال يتشهد على روحه !! أما أنا فقد عرفتُها لأننى فى الواقع - كما لا أظنك تعرف - مجنون كبير !! نعم نعم يابو العم فالجنون وحده هو الذى جاء بى إلى هنا ذات يوم والجنون هو الذى لا يزال يحمينى من وحشية أهلها الجبابة ! لا يقل الحديد إلا الحديد ! فلأنهم مجانيين أصلاء أو كما يقول المتعلمون بالسليقة فإنهم لا يخافون إلا من هو أكثر جنونا شربها أن يتقن الجنون على أصوله !! »

قلبى يا خال صار بين أنياب كلب ينهشه . من الآن أنا لست مخربشا ولا شيء بالنسبة لهيل ..

- «ولكن يا هليل هذه البلدة قريبة من بلدتنا و .. » .

قاطعنى :

- «السكينة سرقتك ! أنت لم تشعر بعد أننا سافرنا !! كان المفروض أن نركب فرسين عقيين لنجىء إلى هنا لكننى لم أفعل خوفا من شيئين اثنين : أن يشعر أبى وأنت بأننا على سفر فيقلق وتقلق فينفصح غرضنا حين يسمع الجبل وقع حوافر الفرسين فى الليل فيقذفنا بالأعيرة النارية من كل مكان !! مشية الفرس فى الجبل فى الليل لا تكون إلا لفارس من فرسان الجبل أو مقتحم من الحكومة فإن كان من عيال الجبل فالجبل كله على علم بموعد سيره كما أن الجبل يميز وقع أفراسه أما إن كان مقتحما فخطوه معروف مقضوح على أرض الجبل الذى لا يعرفها ولا تعرفه وهنا يتلقى فى كل خطوة عدوانا !! »

بدأت أشعر لأول مرة فى حياتى يابوى أننى وقعت فى قبضة مجنون رسمى
ويظهر أن ليلتنا بإذن الله أسود من قرون الخروب . جاعنى يقين بأن نور الدروشة
الذى كان أخذاً بخناق هليل منذ صباه قد كبر معه فخلخل توازنه بات يفعل أفعالاً
خرقاء كهذه . هتف بى هاتف أن تشهد على روحك يابطل أو ادع الله أن يتقذكما
بمعجزة كبيرة لا تقل عن معجزة موسى عليه السلام . استلكت صوتى من جراب
ريق ناشف :

« هليل ! صف لى هذه البلدة من حدود بلدتنا ! »

شوح بكفه إشارة إلى أن أخفض صوتى لحد الهمس ! إذ أن النور المبنية
حوالينا كانت قد تراجعت فبدأنا ندخل فى دور أخرى مبنية بصاج السيارات
القديمة وقواشها وعجلاتها مأخوذة من سيارات الحكومة التى كانت تتوه وتضل
فى الجبل . ثمة أشخاص من عيدان التيل والبوص وأوراق القصب .. تلونت
نبالات الضوء من فوانيس داخل النواقد إلى شعلات من لمبة الجاز الصاروخ إلى
ركيات نار من خشب مشتل ..

قرب واحدة كهذه توقفنا على جنب . همس هليل فى أننى :

« هذه البلدة السحرية فى جيب عميق من جيوب الجبل ! هى معدة الجبل
التي تهضم كل فريسة تقع ! هى أيضا صندوق زبالة الجبل !! الفتوات الذين خاب
أملهم ! الذين انفضحوا لسبب من الأسباب فنفاهم أهل الجبل الفوقى عزلوهم
لأنهم أقل من أن يكونوا رجالا أقل من مرتبة الفتوة !! هنا أيضا الذين عجزوا
وانهدت قواهم ! الذين خانوا ولو خيانة صغيرة فانفض عنهم الرجال ! الذين
هربوا من واجب ثار من ننب من جريمة فقادهم سوء البخت وأحيانا حسن الحظ
إلى هذا المدفن الحى !! ويل لمن كان ضعيفا ويقع هنا ! لو كان حلوا فسياكلونه !
أو مرّاً فتأكله الكلاب !! »

ثم غمرنى وأردف :

- «لقد جننا من الطريق السرى الذى كان يفرقه النيل عند الفيضان وتقطعه غابات الهيش والبوص عند الغيض ! وهى كما تعرف مأوى لجميع أنواع المفترسات !!»

ومضى خطوة ثم توقف هامسا :

- «ليكن فى معلومك أن الدار هنا أمان بالنسبة لى يعنى تمشى على كيفك كأنك تمشى فى أى بلد آمن !! هم هنا يعلمون عن ثقة و يقين أن شخصا عاديا لن يجرؤ على السير هاهنا بثقة واطمئنان إلا إذا كان أهلاً لذلك بالفعل ! الليل له إن انكشف أمره وظهر عليه الخوف يكون لقمة طرية شهية يأخذ كل واحد منها نصيبه !! فمهمتك الآن أن تكون صليبا قوى الأعصاب حتى آخر لحظة فلا تظهر منك نقطة ضعف واحدة فالخوف هنا هو الحكومة الوحيدة التى تفصل فى المنازعات بين الناس !! إن ظهر هنا أنك لست الأقوى من الآخر فإن مهمة الآخر تنصب فى محاولة إضعافك بأى شكل ويكل شكل مهما تذرعت أنت بالقوة دون رصيد حقيقى من القوة !!»

مضى خطوة أخرى وشوح كأنه تنازل عن كل ما قال ، ثم استدرك :

- «وعلى كل حال فاحسبها حسبة بسيطة وأرح نفسك : مادام الشيء الوحيد المضمون هنا هو الموت فلتمت شجاعاً مرفوع الرأس حتى لا يكون موتك بالمجان ! من يطلب الموت لا يأتية الموت هذه هى حكمة الزمان ! فكن شجاعا جدعا حتى آخر لحظة تكسب حتى وأنت ميت !!»

جذبني ، فتبعته . وصلنا إلى ركية النار ؛ فتناهى إلينا - رحمتك يارب - صوت المغنية صباح تفتى : حبيبة أمها ياخو .. تى .. ياخو .. ا... تى .. ياختى ياختى ياختى !! . قبل أن يركبني العفريت فأتسبب فى فضيحة قبض هليل على ذراعى وقرصنى هامسا :

- «اليوم توجد طرق سرية كثيرة لا يعرفها سوى قلة من المخبرشين يقولون قضاء كل الطلبات من كل مكان في كل وقت فلا يجرؤ على تتبعهم أحد لأنهم خبيرون بكيفية تضليله وتوصيله إلى الجنون ثم التهلكة !! وحدهم يرون في الظلام يعرفون متاهات الظلام وليكن في معلومك أن هذه البلدة فيها بيع وشراء وكل شيء كما سترى الآن !!»

صرت أبحث عن عقلى الشاتت يابوى :

- «ولكن بالله كيف سنرجع ياهليل ؟ كيف نعود إلى دارنا فى هذه الحلقة ؟ وهل ترانا سنعود حقا ؟!»

بكل هدوء قرصنى فى ذراعى :

- «ومن قال إننا سنعود الليلة ؟! سنبقى هاهنا حتى الصباح ونرجع عند طلعة الشمس إن كان لنا عمر بإذن الله !!» .

ابتلعت صرختى :

- «ولماذا جئت بنا إلى هنا بحق جاه النبى والمسلمين ياهليل ؟ ظننتك كبرت اليوم على هذه المشاوير اللبظ !» .

شدد من قبضته ، وبلهجة ذات معنى :

- «لبظ ؟! لبظ ياابو على ؟! فما الذى تفعله أنت فى مصر قل لى ؟! أنت الآن فى نزهة فاحمد ربك واخرس !!»

- نزهة ؟! أهذه نزهة ياابو العم ؟! سيئت ركبى! الواحد لابد أن يجعل لدماعه سقفا يقيه التهور يمنع مخه من المشى بعيداً عنه ! » .

كتم ضحكة هازئة :

- «بعد قليل سيطير سقف دماغك إلى غير رجعة !!» .

ثم أخذ يتقر بطرف العصا على باب ، عبارة عن واجهة سيارة نقل كبيرة

مركب على مربع من أعواد الحديد بمفصل من عمود حديدى مغروز فى الأرض .
فجأة انخفض صوت الراديو ، وصاح من الداخل صوت جهورى لكنه واطىء
ومتحرز :

- « من الكريم ؟ » .

صاح هليل فى بساطة أسرة :

- « هليل ! »

فهتف الصوت فى الحال بترحاب شديد :

- « تفضل يا شيخ العرب ! » .

ثم نوى فى الفراغ صوت تعيب حاد ، تيقنت من أنه زيق الباب ، الذى هو وجه
السيارة الكميون وهو يابوى يحتاج لاثنين عقين يدفعانه حتى ينفتح . فلما انزاح
نحونا يابوى - إذ هو ينفتح للخارج - كاد يصدمنا ، فاضطربنا إلى التراجع عنه
بسرعة . وإذا بهلف كبير ينام خلفه ولم يفعل أكثر من أنه دفع الباب بأصابع قدمه
كان ممددا كشجرة كافور قطعت جنورها عن الأرض ، راقدا على بطنه وماسورة
البندقية فى حضنه ، يبعث إلينا بعينين لوزيتين مضيتتين فى ظلمة الدهليز . قال
هليل وهو يبرز نفسه للهلف :

- « معى ضيف عزيز يابو العم قادم لقوه من سيدنا الحسين !! أحبيت أن
أكرمه كرماً زائدا يعود علينا بخير كثير ينتظرننا حين نفى بالندى لمولانا !! » .

- « أهلا وسهلا ! مرحبا ! » .

ذاك ما نطق به الهلف وهو يتلوى كحوت فى محيط الظلام ، ينعوج وينكمش ثم
ينتفض قائما معلقا البندقية فى كتفه . أقبل نحونا ماداً يده . سلم عليه هليل
بحرارة كبيرة يابوى كتتهما أحباب بل عشاق أصفياء . سلمت أنا الآخر ؛ فما أن
احتوت يده يدى حتى خيل لى أننى أسلم على واحد من أحب الناس إلى قلبى .

استدار ذلك الهلف الجذاب نحو الجدار ، الذى هو الآخر عبارة عن صاج تخين من صاج الطائرات التى كثيرا ما وقعت فى الجبل ، صاج معشق فى بعضه البعض بشرائح ونواثر من كاوتشوك السيارات والطائرات ..

مدّ الهلف يده إلى لبة الجاز نمرة عشرة المعلقة على الجدار ؛ فرقع شريطها المرمد فانتسعت دائرة الضوء فظهر الهلف رجلا ولا كل الرجال ، أحمر الوجه مستديره كالأوطاية تكاد تختفى بين شاربين كبيرين تحت لبدة كشاهد القبر ؛ لكن الأوطاية نفسها - وجهه - عبارة عن عيين كلوئتين من النوار تنام كل منهما على طرف شارب . هذا الوجه الدقيق نو الرأس الصغير - رحمتك يارب - يقف على كتفين كل منهما يصلح أن يكون ناصية حارة من حوارى مصر ؛ على قوام سمهرى مبروم يخشى الواحد منا سطوته وهو بعيد عنه بمسافة ؛ يرتدى جلبابا من الجبردين الأزرق الداكن ليس تحته ثمة ثياب على الإطلاق .

قطع

أقبل علينا الهلف مسلما من جديد وهو يدعونا للدخول ، ما أن دلفنا إلى حيث كان يرقد حتى جذب الباب فسنكره فى قائم حديدى بضبة حديدية كالدرهيل تبيت فى موضع لها عاشق فى معشوق . أشار هليل نحوى قائلا :

- «حضرته حسن ابو على ولد أبو ضب أجاويد سيدنا الحسين ! شهيندر تجار السمك والفسيح ! عيبه أنه ولد خسران وابن ليل ينوى إن شاء الله أن يقنى ثروة أبيه التى يقال إنها لا تقنى ! يصرف على الهلس والكلام الفاضى ما بينى عمائر ويشترى فدادين !! لكنه ياعم عرندس قلبه أبيض كاللفتة ! تصور ياعم عرندس أنه يسعى فى طلب الحاجة فيصرف عليها دم قلبه فلما يحصل عليها ربما لا ينوقها !! يكفيه أن يطلب الشيء فيجده !! يحلم بالمستحيل ! لهذا حيرنا وغلبنا الغلب كله ! لم يكفه ما هو فيه من متع وهلس فى أم الدنيا فجاء يطلب منى ليلة فى الجبل يتمتع بها حتى الموت !! وقد صممت الليلة أن أقتله ياعم عرندس فجئت به إليك لتساعدنى على الخلاص منه ولك الأجر والثواب عند الله أما عندى فلك المكافأة التى يمكن أن تطلبها !! »

ثم كف عن الكلام مشوحاً كمن خلّص ضميره . وبقيت واقفا فى محلى كطفل يرتجف من لعبة مثيرة مخيفة معا يابوى .

يخرب بيتك ياهليل ياولد الحرام : أملعون أنت إلى هذه الدرجة ياولد الأبالسة؟! ما هذا الذى فىك لم أكن أعرفه من قبل ؟ يالى من غشيم أهبل . لابد أنك يا هليل تعيش هنا بشخصيتين دون أن أعرف أو يعرف أحد من أهل البلدة الذين

يوقرونك ويحترمونك كرجل صالح لا يترك الفرض يجيء على أخيه الفرض ..
ظل الملعون هليل واقفا خافض البصر كطفل برىء لم يكذب منذ هنيهة . أما
الرجل الهلف ، أقصد عم عرندس ، فقد جعل ينظر إلى بحب وإعجاب واندھاش ،
تكاد نظراته تعرينى من خلقاتى ؛ ولا أكاد أصدق أن كلام هليل عنى بهذه
الرسماية الخيالية يمكن أن يدخل هذه الدماغ الصغيرة يابوى ؛ فأه من هذه
الدماغ الصغيرة يابوى ؛ إنها دماغ مختصرة يابوى مثل الراديو المسمى
بالترانزستور ، ليس فى صندوقها متسع للخرف والكلام الفاضى . على أن هاتين
العينين الثاقبتين سرعان ما غرقتا فى بحيرة من العهر والطراوة المخبئة ؛ غير أنه
ذلك العهر الناعم يابوى ، المخيف بشدة نعومته ، المنذر بسوء العاقبة ياخال . إنه
العهر الخديعة ؛ فليس يصدر العهر متقنا هكذا إلا أن يكون محض خديعة
ياخال ..

نظرة العهر تلد ابتسامة طرية على شفقتى الهلف عم عرندس مفروشة كالبساط
الأحمدى ؛ وسّعت وجهه سوت رأسه بين شديقين متبعجين . ثم إنه حول بصره عنى
نحو هليل قائلا بكل رقة وحلاوة :

- «خداميته ياعم ! مجيئك عندنا بالدنيا !!» .

رفع هليل حاجبيه مشيرا نحوى :

- «هذا السفروت الخلبوص الكحيان لا تستهزئ به فقد ذاق كل فواكه مصر
والبلاد كلها فلم يشبع !! قلت له إن عندنا فواكه لم ينقها فاستهزأ بى ولم
يصنقنى فحلفت لأذيقنه طعم الخوخ العرندسى !!» .

قال عم عرندس وهو يعاود التفرس فى وجهى بنفس النظرة المنبجعة الشديقين
وفى لهجته نبرة ذات معنى :

- « تريد الخوخة بنفسها إذن ؟ من حسن حظها أنها الليلة موجودة في الجبل !! رزقها !! » .

دب هليل يده في جيب الصديري نزع المحفظة ثم نزع منها ورقة بعشرة جنيهات غمز بها الرجل في يده :

- « هذه لك أنت وحدك حتى تشوف مزاجنا أولا !! »

ثم نزع ورقتين أخريين غمزه بهما في يده :

- « وهذا رزق الخوخة !! » .

وأشار لى :

- « ولها رزق آخر عنده حين ينوق ويعجبه الطعم !! »

وغمز بشاربه الكث غمرة ذات مغزى وقال لى كأنه يكشف تماما عن جوهر غرضه من هذه اللعبة كلها :

- « لقد عرفت داك ياملعون !! أنت عطشان تريد أن تعب من مستنقع نتن !

قلت في عقل بالى إنك لن ترتوى إلا من هنا !! فهنا أشبه ببئر الساقية ماؤه بارد صاف وإن شابهته بعض الجراثيم المقنور عليها !! هنا سوف ترتوى جيدا حتى تزهد الأمر كله وتصرف النظر عما في رأسك !! وقد أجلت الكلام معك فى أى شىء حتى ترتوى وتصير فى حالتك الطبيعية ويعدها أقول لك نصيحتى ومشورتى !! » .

صدقته ياخال ! منيت النفس بليلة ولا كل الليالى .. بالفعل بانث تباشيرها

يابوى . فى جدية قال عم عرنس :

- « على كل حال الخوخة زمانها قادمة ! هى لا بد أن تبيت هنا الليلة ! وإلى أن

تجىء فإن صاحبك أمامه التفاحة والبرتقالة والجوفاية كلهن موجودات تحت أمره وله الحرية مع كل واحدة إن شاء جاسبها بعد الإنبساط وإن شاء صرف نفسه عنها إلى غيرها بغير حساب !! » .

إنقرص قلبي يابوى قرصة موجعة . تسرب الشك من جديد إلى مخي يقول :
إصح يامفقل وإلا فاللعوب كبير سيما وأن هليل تبو عليه أمارات تتراوح بين
الخبث والبراءة . ثم إنه قال :

- «نريد أن نشوف مزاجنا الآن ! دماغنا صفّرت من طول الطريق
ومشقتة !!» .

مسح الرجل كفيه في ركبتيه قائلا : «وجب !» ثم أمسك بالمصباح ومضى
أمامنا قائلا : «تعالوا» . فمضينا وراءه في دهليز طويل يشبه القبو المظلم . بقينا
نمشي مسافة طويلة حتى مللت يابوى وتوقعت السقوط في الجبّ الذي لا طلع
منه لكننا وصلنا أخيرا - رحمتك يارب - إلى واجهة منزل مبني بالحجار المسواة ،
له سلم يصعد إلى الباب بعدة درجات ، صعدنا عم عرندس فصعدنا وراءه . على
الضوء الليل لاحظت وجود أكثر من منزل محنق مبني بالحجارة أيضا : حوالى
ثلاثة منازل من طابقين لها شرفات كمساكن على القوم .
همس هليل في أذنى :

- «هذه المساكن بناها عم عرندس مثل لوكاندات في الجبل يستأجرها المطايرد
الجدد والمبعنون لأسباب مؤقتة وكبار الهاريين من ظرف طارىء ومن يريدون
الاختفاء التام لاسترداد الدماغ والتخطيط لعمل !! يدفعون لعم عرندس أغلى
الأثمان ليس لقوته بل لجدعته معهم إذ هو يكون أستر واحد عليهم أخبت حارس
يخادع الجن نفسه !! إحذر أن تستهزئ به وإلا فإن قرصته مسممة لا نجاة
منها !! أما إن صافيته فإنه يقدم لك المعجزات ! عمره الآن مائة عام ولكنه يبدو في
الستين فحسب ! وقد ولد في الجبل ولم يكن بينه وبين الحكومة أية خصومة لكنه
عشق الجبل فعاش فيه بمزاجه لمزاجه يكسب منه الذهب !! ولأنه ابن الجبل فإنه
لا يخاف ولا ينكسر !! له أملاك كبيرة في صدفا والغنايم وله - إمسك دماغك -
إبن من كبار المحامين في الإسكندرية !! وابن آخر يعيش الآن في لندن كأستاذ

لعلم الآثار فى إحدى أكبر الجامعات الإنجليزية ويتاجر فى الآثار التى يمدده بها أبوه !! » .

كان عم عرنس قد سبقنا إلى الدخول ليجز المكان فيما بقينا هليل وأنا فى الشرفة ننظر فى الفراغ المظلم ونميز بين السور العالى المصنوع من الأعواد والأعشاب والفروع وصخور الجبل ، وبين ظلال الهضاب العاليسة البعيدة جداً . لا يظهر من البناء الداخلى أى شىء إذ أن عم عرنس الخبيث الناصح اختار هذا المكان بين لسانين متجاورين من أسنة الجبل ، كل لسان عبارة عن هضبة كبيرة مدببة الرأس كلما ارتفعت لأعلى ، فبدت تعريشة عم عرنس جزءاً من اللسانين يملأ الفراغ بينهما . مال هليل على أننى هامسا كأنه يخلص ضميره من عبء ثقيل :

- «على فكرة يابو العم ! ليكن فى معلومك أننى لست ولداً داعراً كما يظهر لك منى الليلة !! الحكاية وما فيها أننى عرفت عم عرنس منذ مدة طويلة لأنه اشترى أرضاً زراعية مجاورة لأرضنا وهو يستعين بالله وبى على إفلاحها !! شخصيتى تعجبه يتصورنى ملاكاً من السماء ! وهو صاحبى ويعزمنى عزومات كثيرة كهذه كلها أنس ومحبة !! عرفنى بكل سكان هذه البلدة كبرئى فى أنظارهم فأحبونى كلهم وأعطونى الأمان وكلهم ينتظر منى أن أطلب منه أى خدمة لكن الله الفنى عن خدماتهم يابو العم فلست أنوى قتل أحد أو الغدر بأحد ! كفانا الله شر الحرام والإفتراء !! » .

- «خشوا يارجال ! » .

قال عم عرنس منادياً من الداخل . وإذا به قد أثار مصباحاً فى الردهة ، وآخر فى حجرة على اليمين فى المبل ، ويجوار هذه الحجرة حجرة أخرى مغلقة . فى المقابل حجرتان بينهما ممر تفح منه رائحة الكنيف زاعقة . فى الحجرة

المضاعة ثلاث كتيبات أسيوطى ؛ أما الأرض فمفروشة بحصير ملون نظيف .
شلتات الكتب مرصوفة على الأرض تتحلق المنقد الكبير والجوزة وحجارتها
الكثيرة مع كومة من باكوات المعسل . جلسنا فوق الشلت . فى الحال شرع هليل
ينظف الحجارة ويحشوها بالمعسل . وكان عم عرندس قد اختفى برهة طويلة جدا
حتى انتهى هليل من تعسيل كل الحجارة ثم أخرج من جيبه كلكيعة حشيش كبيرة
راح يقطع منها ويكسو المعسل بعباءات من القطيفة الخضراء . ما كاد يعتدل
أخذا سمع الانتظار حتى دخل الرجل حاملا طاسة كبيرة ملائكة بالخشب المشتعل؛
دلقها فى المنقد . من خلفه دخل غلام أمرد يحمل صينية عليها عدة الشاي وطبقاً
به تشكيلة من الفواكه النادرة . قلت لنفسى : هذه إذن هى الفواكه المقصودة ؟
هليل الملعون قرأ ما دار فى رأسى فانفجر ضاحكا :

«هذه هى العينة فحسب يابجم ! أما الفواكه الحقيقية فإنها آتية لا ريب فيها
بعد مجيء الدماغ !! » .

ثم مال على عم عرندس فحدثه همسا بلهجة ذات معنى واضح فى ملامح
وجهيهما . ثم علا صوت هليل مشيراً برأسه نحوى :
«دماغه لا تجيء بسهولة ياعم عرندس ! خُش عليه بنية خالصة يكرمك الله !
هات داغته ! » .

نظر الالف نحوى نظرتة العاهرة اللطيفة :

«سأجىء بذاغك الليلة ياحلو ! أوقعت بنفسك فى يد من لا يرحم ! وقعت أم
رماك الهوى ؟ ! » .

فى أقل من لمح البصر يابوى كان الرجل الالف قد وضع بوصة الجوزة فى
فمى : «شد يا بطل» . قلت : «ليلتك فل» ، وشدت الحجر كله فى نفس واحد على
شفطتين ونفختين ، فارتفعت راية النار فوق الحجر . فإن هى إلا لمحة حتى انشال

الحجر من فوق البُخس ووضعه مكانه حجر جديد ، والحجر السابق ينحني على الجديد طارحاً فوقه كل تاره . خمس حجارة وراء بعضها فى خيط واحد ، ويد عرنس ممسكة بالجوزة وبالماشة وأصابع يميناه تفرط فوق نار الحجر حشيشا كالحمص ينزل برداً وسلاما على النار يصنع مهرجانا من سحائب الدخان الشهى..

بعدها بقليل نسيت أننا فى أمعاء الجبل ، لسنا فحسب بين فكي التمساح بل داخل معدته . تلك هى الصورة التى عبرت رأسى لتتبخر مع الدخان . ثم بدأت الأصوات والحركة تكثر خارج القاعة تصنع صخباً حلوا ينضج بالأمان الحميم يحجز بين دماغى والسطل المبكرة . برهة صغيرة وبدأت أشعر كما لو كنت فى مندرة دارنا بل إننى سمعت اسمى يتردد ؛ فأحسست أن البراح والممر المتاخمين لهذه القليلة التى نجلس فى قاعة منها ، والتى تشبه عيش رأس البر ؛ هذا البراح وهذا الممر قد احتشدا بحركة مستمرة ومتزايدة بشكل مريب ياخال ، حس خيل لى أننى وقعت فى كمين وأن البلدة كلها شرعت تتقلب لتفجر علينا قبل أن تمس كنا الحكومة فى تجرسة كبرى يابوى . المصيبة ياخال أننى سمعت بانى أو سواتا تقتحم علينا القاعة من بعض الشبايبك . ومن الردهة أمام القاعة ميرزت صوت هذه العبارة : « ولد أبو ضب » كيف ؟! ولد أبو ضب ؟ معقولة ؟! « . ثم تزايدت الخطو ، والحركة فى حيوية . دخلت على الأصوات أصوات جديدة لنساء وفتيات نوات رنات وجلجلة ، مع أصوات أنية يتم غسلها ، وطيور يتم ذبحها . قلت لعلها علامات السطل قد هيات لى كل ذلك فجعلت أنظر حوالى قائلها :

— «هناك زينة وزمبليطة أم تراها فى رأسى أنا ؟!» .

قال عم عرنس :

— «أنت عندنا لست قليلا يا .. ابن شهيندر التجار !» .

صدمتني العبارة الأخيرة شعرت أن فيها تعريضاً بشخصي فتشككت في الأمر فنظرت لهليل :

- «تسمع هذه الزيتة طبعاً يا هليل ؟!» .

قال وهو يسحب نفس النخان :

- «طبعاً ! عم عرندس يقول لك إنك لست قليلاً عندهم !» .

قال عم عرندس بجدية مفاجئة :

- «قد زارنا النبي يا ابن شهيندر التجار ؟!» .

يعرض بي ثانية . طوحت ذلك خلف ظهري ! قلت :

- «لكن يظهر أن البلدة كلها تتجمع حول الدار وتردد اسمي ! فكيف ذلك

يا بوى ؟ من أين جاء كل هؤلاء ؟!» .

صاح عم عرندس مشوياً نحوي بكفه الكبيرة وذراعه الطويلة وكمه الواسع :

- «وه يا بوى ! كيف أنت ؟! الجبل كله انقلب وجاء يتفرج عليك ! أقصد جاء

يكرمك ويشوف مزاجك !! لا أعرف كيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء ؟!» .

وانجصص هليل قائلاً في افتتاح :

- «الأخبار في الجبل تصل أسرع ! هنا سرعة البرق التي يقولون عنها ! لكن

أنت السبب يا عم عرندس ! أنت الذي أذنت الخبر !!» .

عم عرندس ضرب الماشة فوق البلاطة صائحاً :

- «الخبر أشاع نفسه بنفسه !! أنتستهزئ يا بوى بمثل هذا الخبر حين يسمعه

الجبل بأذنيه ؟ حسن أبو علي ولد أبو ضب ! ابن شهيندر التجار كله في الجبل

الليلة ؟ لابد أن يرقص الجبل كله طبعاً !! ليلتك قل ياذن الله ! ولع !» .

قلت لنفسى : هذا الرجل مَيَّاس أو مجنون يريد أن يسرح بدماعى حتى يميِّله

قبل الألوان :

- «ما حكاية شهيندر هذه ؟! » .

كانت بوصة الجوزة قد استقرت بين شفتيه . راح يشفط وعيناه اللوزيتان كالبليتين تدوران فى محجريهما تتسجان أفكارا عجيبة يرد بها . لكن هسيسا مكثفا انبثق من الباب فجأة سبقتة عيون كثيرة تنتظر متلصصة تنهامس قائلة : «نعم هو ! هو بعينه ! الجالس فى الوسط !» . وإذا بامرأة فارعة كالنخلة كحورية البحر داخلة ترفل فى بذلة رقص كاسية مشغولة كلها بالترتر الأصفر على أبيض ، طويلة الرقبة طويلة الشعر تتساب جدائلها فوق ظهرها مستوية فوق عجيزتها النافرة ..

مساء الخير . هكذا قالت برقة الحوريات ؛ ثم سلمت على هليل باعتباره فى مواجهة الداخل ؛ فسلم عليها بيديه شاملاً إياها بنظرة سريعة ، قال كأنه يهم بأكلمها : أهلا وسهلا ، لكنه ما لبث حتى خفض بصره واعتدل جالسا فى أدب . أقبلت نحوى ياخال ، فى كثير من الشوق والرغبة والإمتمان فاتحة ذراعها صائحة: «هو !» ؛ وعم عرندس من خلفها يؤيد فى تفاخر : «بل خياله يافكيهة !» . ارتمت على صدرى قبلتنى فى خدى . ارتبكت لبرهة طويلة ؛ لكننى ما لبثت حتى ضغطتها على صدرى بقوة وقبلتها على خديها وفى شفتيها . إنحطت بجوارى وفخذها كله مستريح على فخذى . قلت : يادار ما دخلك شر ، واستبحت لنفسى الضغط بصدرى كله على فخذها بكل قوتى فيما أنا مضطر للميل نحو بوصة الجوزة لأشرب الحجر ؛ فإذا هى تنعوج مع حركتى فتضغط صدرها على ظهري بنفس القوة حتى صار منظرنا أنثيكة . وسرعان ما تلففت هى بوصة الجوزة وانبرت من مسندها تشد النفس ولا أرجل الحشاشين وصدرها ينتفض فوق ظهري ياخال . وحين اعتدلنا كان الدخان الكثيف يتصاعد من كلينا مختلطا متداخلا نشوانا ..

لحظتند ياخال بدأت أصدق أن الشغلة جد فى جد . وقلت : لا مفر من أن أصدق القرية المزعومة بئنى شهيندر التجار بذات نفسه . ما أن بدأت خياشيم العبد لله تستشعر نكهة هذه النتاية الطابية كالعقدة حتى غزا القاعة هسيس محوط بشظلة ورنين الأساور الذهبية ؛ ثم هبت علينا طلائع من العطر الشهى المثير للشعريرة فى الدماغ . دخلت نتاية كاللبوة تضاعلت بجوارها فكهة . هى الأخرى ترتدى بذلة رقص واسعة الذيل مشغولة بالترتر البنفسجى . غزال ياخال ، لا بالطويلة ولا بالقصيرة ، إلى النحافة أمل ؛ لكن ثديها بارزان كزنبين متكورين وبطنها من تحتها مشنودة كجلد الطلبة المرتفعة قليلا يصعد إليها البصر عن ساقين مبرومتين لهما تحت الثياب الشفافة ظلال وخيالات كعمدان معبد الكرنك تظنها عشرات السيقان المتحاضنة المتجاورة بينهما فراغات تقول لك افرش ونم فى أى منها على ما تهوى . أما الوجه فسبحان الله مثل كوز العسل يابوى وفى لون الشهد بعينين واسعتين كبحيرتين يتوسطهما قاريان والرموش الطويلة مجاديف ينعكس خيالها على الخدين الشاطنين . أما شعرها فجديلة واحدة من الحرير البنى اللون ملفوفة تحت المنديل الحريرى فى لون الفل . كانت ظلال ساقها تمتد إلى بعد خلفى ينتصب فوقها ظهر مخروطى مقسوم بالطول . قلت ياسبحان الله ؛ إمنحنى يارب كل مدخراتى عندك من القوة التى تنوى أن توزعها على حياتى ؛ أعطينها كلها اللية فحسب ؛ قونى هذه الليلة فحسب وأنلنى بعض غرضى فكل الفضائح أحتملها إلا هذه الليلة يمكن أن أموت فيها ..

قالت وهى تقترب منى : «أين هو ؟ أين الحبيب الغالى ؟!» . عرفت مكانى من فكهة الملتصقة بى ، فتبخرت نحوى ؛ ثم هوت على وجهى تقبلنى تدفن رأسى فى صدرها وتكفى فى بطنها التى لها ملمس العجين الخمران . قلت للحياة : لا يصح أن يمر على فمى كوز العسل فلا أنوق منه ولو لحسة . أمسكت برأس الغزال

ياخال طويته على يمنائى فانطوى الجسد كله متكوراً على حجرى . فما صدقت
اللبوة أن اقتربت شفتائى من شفيتها حتى فركت وفركت إلى أن دخلت بكاملها فى
صدرى ويطنى حتى بللت نفسى وتراخيت عنها قليلاً قليلاً فيما يشبه الندم
والسخط الغامض . لكننى سرعان ما قلت : الحمد لله أن سابت الشهوة الآن
فنفست عن نفسها حتى تكون متزنة رصينة عند الشغل الجد . رفعت وجهى عنها ،
فاصطدمت عينى بعينى الرجل الهلف عم عرندس وهو يحدثنى بخبث أهتم لثيم
حاد السخرية :

«أعجبتك بديعة ! سحرتك بديعة ! لبؤتى وأعرفها طبعاً ! الوحيدة التى أنت
بداغى فاحذرها إبدأ بها وحلى بالفكية !! » .

جعلت أنظر إلى فكية كالمعتذر لها عن نسيانى إياها لكن الهسيس ارتفع من
جديد : وتبعه موكب حافل من أصوات طروية متداخلة مختلطة كأصوات التجريب
والشد والتسخين : طبلة على سلامية على رق على مزمار . وإذا بالغازية داخلة وقد
انضبطت الأنغام فجأة وانتظمها المزمار البلدى رائق المزاج حاد النبرة والإيقاع .
وإذا بفرقة المزمار تأخذ لنفسها مكاناً مقوساً كشق القمر فى مدخل القاعة ،
والغازية قد جعلت من القاعة ملعباً فسيحاً أخذت تطويه رائحة غادية لافقة حول
نفسها على أطراف أصابع قدميها كالماشية فوق الأشواك : جسدها كله يهتز يرتج
يرتجف ، يناكح الريح من كل اتجاه ؛ يعرض كل قطعة فيه لغم شهوانى خرافى
سوف يلقمه يشبع فيه مصمصة وقزقة . أحلى غازية رأيتها فى حياتى يابوى :
مهرة عالية الجبهة تزرى بساتين مصر المحروسة ؛ على شفيتها بسمه فيها من
البراعة أضعاف ما فى العينين المكحولتين من عهر أبدي ياخال ..

انبرينا جميعاً نصفق للغازية فى ابتهاج لا مثيل له . انعوج عم عرندس ببوصة
الجوزة قائلاً :

- «خذ لك نفس ياديا أنصاف !!» .

وكانت أنصاف لاحظتها مسطوحة تميل برأسها وجذعها كله إلى الورا حتى انطوت فارتفع ما بين ساقيهما إلى أعلى مثل قبة طاجن اللبن . سلط عم عرندس بوصة الجوزة فى هذه القبة ، صانحا : شد ، فانفجرنا ضاحكين ؛ وبرمت أنصاف جسدها بحرقنة ومرونة حتى جاء دماغها مطرح البوصة بالضبط ، وجدائل شعرها تكنس الأرض كنيل الثوب . مطت شفقتها ، احتوت بهما بوصة الجوزة شدت نفساً ارتفعت له راية النار فوق الحجر ؛ فصفقنا جميعا صائحين : «قشطة» ؛ وزغرد المزمار مع السلامة طربا وهاصت الدريكة . ففى لمح البصر برمت أنصاف جسدها كالبريمة قبل أن تتسحب البوصة . هاجت الثيران كلها فى داخلى قلت : ما من بد ، وصرت أتململ فى جلستى ؛ فقال عم عرندس وهو يتقبنى بنظراته مشيرا إلى أنصاف برقصه من شفقيه :

- «هذا هو الطرشى عندنا !! نقدمه قبل الأكل !» .

وأشار إلى كل من فكيه وبيدعة عند العبارة الأخيرة . تقابيت قائلا : «يعنى ماذا ؟» ، فطوقنى عم عرندس بشواظ عينيه وقال مشيراً إلى فرقة المزيكاتية :

- «أهل الضرب والنقر سيحرقون دماغهم بحجرين!!» .

عندئذ كانت أنصاف قد انحنت على وجهها ومشيت على أربع كالهمرة ، عجيزتها مرتفعة منقسمة منتفضة تتقابل مع وقع نقرات الطبله التى تسلكت خفيفة ناعمة يصاحبها المزمار فى نشيج شجى مهيج للعواطف . تلاصقت الأنغام بالحركات ياخال . أنصاف مقبلة نحوى كالبؤة المتوحشة عيناها تنذراننى بالويل الجميل إن تخاذلت عنها . فإذا بى ياخال متأهبا لاستقبالها وإذا بى قد صرت محمولاً من تحت الإبطين . وبقوة رشيقة تطوحنى الهمرة - لا أدرى كيف - فوق ظهرها راكبا ، وخصل من شعرها لجام فى يدى . استدارت زاحفة على أربع ،

متقافزة متراقصة . راحت المزيكة تزفنا حتى خرجت هي بي من القاعة في سرعة
خاطفة كالرمح . عبرت الردهة ، برأسها نطحت باب القاعة المواجهة فانتفتح عن
سرير بعمدان طويلة من الخشب الثمين التحفة تبينت من أول نظرة أنه مسروق من
مقابر القراعة بنقوشه وبقعة صنعه وجمال شكله . سرير ملوكي يابوي . رمتني
المهرة فوقه ، فانخفضت بي الحشية ثم ارتفعت في الحال . ثم إنها رمت بنفسها
إلى جوارى ، فكانت الملكة حتشبسوت نفسها تحتويني ياخال . وضعت في حضنها
ياخال لم أعرف بأي جزء فيه أبدأ متعتي . ولقد أحسست هي بحيرتي وضياعي في
هذا الجنون المطبق فبدأت تسلمني نفسها قطعة قطعة تقول ذقها على مهلك حتى
تشبع . صرت كالذي يتقل على النار ياخال . وأخيرا قمت ياخال ؛ تحلف اليمين
تقول ثورا هائجا من ثيران أسبانيا . ما كل هذا ياخال ؟ هاأنذا أعرف المرأة لأول
مرة في حياتي . لم أكن أظن أنني سأنجح في شيء مما استمتعت به ما لم تكن
هي بنفسها قد أرشدتني إليه ؛ وارتفع صوت الحرمان في صدري يقول : إلهط
ياابن أبي ضب يامفجوع .

تفريق

لم أدركم من الوقت مضى ياخال ؛ لكن خيل لى أن دهرأ بحاله قد انقضى ،
وعصراً برمته قد اندحروا لن يعيده الله ثانية ياابوى . نعم ياابوى إننى أكون هلقا إن
لم أعش فى هذا النعيم على طول ما يعطينى الله من عمر مديد بإذنه تعالى ..

أفقت على نفسى بعد غيبوبة طويلة فإذا أنا فى حلم لذيذ ياخال : وجدتنى
عارياً فى سرير الملك والدنيا بحالها ترقد عارية فى حضنى بكل جبالها وهضابها
ووديانها السحيقة ورخامها المرمرى ، تحيطنا ناموسية من الحرير البنية ، ذات
أضلاع ويا ب كباب الخيمة ذى أريطة من الحرير المجنول يمكن ربطها من الداخل
وجمع أطراف الناموسية تحت الحشية فكئنا فى هودج فى الجنة الموعودة ..

لفحنى صوت أنصاف يهدر فى أذنى :

– «هل انبسطت ياخولى الجنينة ياحسن ؟! » .

قلت فيما أقضم خوذة طائبة :

– «ما أظن المرء يشبع من النعمة !! » .

فلاذت بحضنى ، رىضت فيه تبخ صهداً شهياً كصهد مرق الضأن . مر بذهنى
خاطر سخيف ياابوى ، فهتفت فجأة كئنى أبوس بقدم خشنة صلبة ملوثة فوق
البساط الحرير :

– «لو كنت شهيندر التجار بحق وحقيق فلن أقدر على مكافأتكم على هذه
السعادة !! » .

مررت أصابعها حول أذنى ، قالت :

- «لو كنت شهيداً للتجار بحق وحقيق ما عبرناك ولا جئنا لحد عندك !! ولا جئنا لك بالطبل والزمر !!» .

مخى لف يابوى . طار ذهنى فى الشتات مغادراً سريراً الملك إلى متاهات بعيدة غير مفهومة . غرضه يابوى أن أفهم : لماذا إذن يحتفلون بى كل هذا الاحتفال الكبير إن لم يكونوا فى انتظار أن أوسع عليهم بنقودى الكثيرة بعد أن أدخل هليل فى روعهم أننى من أثرياء التجار ؟! بكل ما أستطيعه من رقة قلت لأصاف :

- «تفعلون هذا إذن من أجل سواد عيونى ؟! أم عيون هليل ؟! » .

قالت وهى تغمرنى بقبلااتها :

- «طبعاً يا أحسن من أجل سواد عيونك ! هل هناك أحسن منك عندنا ؟! » .

قلت باسم فى ضعف :

- «حتى لو اتضح لكم أننى رجل على باب الله ؟! » .

إنفجرت ضاحكة فى جذل وطرَب :

- «كلنا على باب الله يا خولى الجنية لكن الناس مقامات ومقاسات !! » .

قلت فى يأس بعد أن أعيتنى الحيل :

- «صارحيتى بزمك يا حلوة ! ما سر احتفالكم بى هكذا كئنى الملك فاروق فى زمانه ؟! » .

بحلقت فى وجهى صائحة :

- «يا لك من رجل طيب ! أنت متواضع والله يحب المتواضعين ومن أحبه الله تواضع فأحبه الناس !! » .

قلت وقد حبكت النكتة :

- «إياك أن تكونى من الإخوان الهاريين من سجن ولد الفرطوس !! » .

ضحكت حتى دمعت عيناها :

- «رضاؤك من رضا الزعيمة !! أألمت الأخ الشقيق للزعيمة ؟! كيف يكون الأخ الشقيق للزعيمة ضيفا على الجبل ولا يحتفل به الجبل ؟! إن الجبل إذا لم يفعل ملك الواجب يكون عيبا فى حق الزعيمة لا يحتمله الجبل ولا يرضاه !! خبر وجودك فى الجبل فى مصيف عم عرندس طار إلى كل مكان فى الجبل ووصل إلى الزعيمة بمجرد وصولك أنت وصاحبك !! عيون الجبل من حراس الزعيمة رصدوكما من فوق الهضاب العالية ومن بين عيدان القصب !! كان اصطياذكما وشيكا لولا أن الذى كشف حقيقتكما هى الزعيمة نفسها !! كانت تمضى متكررة تتفقد الأماكن التى تحبها والناس الذين تحن إليهم ! تشم نسمة الدنيا ثم تعود إلى محرابها كما تسميه !! إنها كما تعلم من أهل الخطوة تذهب إلى أى مكان فى لمح البصر خبيرة بالإنسلال كالريح بين أعواد القصب والذرة والأشجار تجرى بجانبها كالحرية مائلة برأسها كى تشق الريح ولا تصطدم به فلا يكون لجريها صوت ولا لوقع قدميها على الأرض خفيف !! مرنة الجسد بسم الله ما شاء الله تتكرر حتى تصير قطعة صغيرة تسلك من ماسورة ضيقة تفلت من فراغات الأبواب والشبابيك تتسلق قمم الجبل تسقط مدرجة نفسها كلعب الأطفال تتجنب الصخور الناتئة بذراعيها وساقها ببراعة وفن !! هذه الجنية الحبيبة اخترعت بين مسالك الجبل تخاريم لم تكن مطروقة من قبل لكن أحداً لا يستطيع السير فيها سواها وحدها وقد جريها غيرها فدقت أعناقهم وتمزقت جثثهم فأكلتها الغربان فقال الجميع إن الله حق ولم يجريوها ثانية فبقيت هى وحدها ملكة أهل الخطوة فى الجبل !! أقرب مشوار عند غيرها مدته ساعتان من الزمان وأكبر وأطول مشوار عندها مدته نصف ساعة مهما طال !! لهم حق يسمونها فراشة الجبل إذ هى لا تلف حول الهضاب والمرتفعات إنما تمر من فوقها كالفراشة ! بهذه الموهبة وغيرها من مواهبها المتعددة حق لأختك أن تصبح زعيمة الجبل وأمه الروم

واتضح أن الجبل طول عمره كان فى احتياج لها كأن بل كان فى انتظارها !! ياما سارعت هى بنقل الأخبار والتحذيرات قبل حلول الكوارث بوقت كاف !! وياما جاءت للناس بالنواء النادر من تحت طقاطيق الأرض فى زمن قصير !! وياما طاردها الاشرار فزاغت منهم كما تزوغ السحلية فى جحرها بكل نعومة واطمئنان!! وياما وجدوها فوق رؤسهم فجأة لإثناذهم من شر يحيق بهم أو خطر يحرقهم بمراقدهم !! بقيت وقية للمرحوم خرابة تقيم نكراه فى كل عام تقدم للحاضرين لحم الذبيحة تقول : إنه يوم عيدى أنا يوم أخذت بثأره فى الحال من قاتله المتجبر !! ومنذ داست قدمها أرض الجبل حتى اليوم وهى تعامل الجميع بكل عدل تنتصف للمظلوم تحسن للمحتاج تصلى الفرض بفرضه !! أثنى مخ فى الجبل لابد أن يميل ويلين إذا هى حديثه لخمس دقائق فقط يخرج من عندها زاهداً فى كل شىء متنازلاً عن كل كبرياء معتزفاً لها بالأمومة والشفافية ويُعد النظر !! إنها تحكم الجبل على طريقة شيخ الطريقة وهى فعلا تقيم ليالى الذكر والحضرة فى أوقات كثيرة ولا أحد يدري متى ولا كيف تعلمت الكلام الثمين لدرجة أنها حينما تحضر مولد أحد أعمامها كعبد الرحيم القنائى أو الشاذلى أو البدوى تتكلم مع المشايخ المتبحرين فكانها قرأت جميع كتب الدنيا والآخرة !! موكبها يرحل قبلها بوقت ليجدها مع ذلك فى المكان الذى اختاروه لنصب خدمتهم !! ليكن فى معلومك أن الفرقة التى رقصتلى الليلة جزء من الفرقة التى تصاحب الزعيمة فى موالدها !! فتُك فى الكلام ياخولى الجنية إن الزعيمة حين رأئكما وعرفتكما من طريقة مشيتك طارت إلى سرايتها فى الجبل فأرسلت ثلاثة من العفاريت الأشقياء من خدمها الذين ورثهم عن خرابة أمرتهم أن يتفقوا آثاركما فى مصايف عم عرندس لينذروهم بالمحاكمة إن تعرض لكم بسوء !! للزعيمة قضاة علماء تعشقهم فى رحلاتها وتعشقوها فباعوا الدنيا وجاؤا يقيمون فى خلوة الجبل تحت ظلها

لا يكفون عن ذكر الله وقراءة القرآن والأوراد لا يطلبون من أمور الدنيا شيئاً سوى النجاح فى هداية وحوش الجبل وإن الزعيمة لتقدم لهم الطعام والشراب والكساء والدواء تعتبر وجودهم بركة حلت بالجبل وهم فى الحق أنقياء أنقياء يطولون أموراً كثيرة كانت تحتاج لحكومة شديدة القبضه يعرفون الله فى كل شيء إلا فى حكمهم على من جاء يقصد الجبل بسوء لكنهم والحق يقال عندهم بصيرة نيرة يميزون بها بين المظلوم والمخدوع والمُدسوس والغلبان والأونطجى والخبيث والمكار واللتيم إنهم لا يحكمون بالإعدام إلا على من يستحقه بالفعل ياما كشفوا عن حقيقة ناس استحقوا العفو فعينوهم خدماً وفلاحين وبنائين حتى عمروا رأس الجبل جعلوا منه جنة فيحاء !! من حسن حظى أننى أقوم بخدمتهم فى خلوتهم من غسل الثياب إلى الطبخ والكسب أتفرج عليهم وهم يتكلمون حتى تعلمت الكلام وعرفت مالم أعرفه فى المدرسة فأتنا بنت ناس طبيين علمونى فى المدارس فى أسبوط وكنت سأدخل الجامعة لولا أن ضحك على مدرس شرير أوقعنى فى غرامه فسلمته شرفى لكنه سافر إلى بلد بعيد واختفى فاخفيت أنا الأخرى وأتى بى أحدهم إلى الجبل وحتى الآن لم يعرف أهلى عن أخبارى أى شيء بل نسوا شكلى لدرجة أننى فى الأسواق ألتقى ببعضهم فلا يعرفنى !! هل كنت تتصور أن أحداً يقيم الصلاة فى الجبل ؟ الحرية مع ذلك متروكة للجميع فكل واحد يفعل ما يحلو له فكل شيء - كما يقول شيخ منهم - يمكن فرضه بالقوة إلا الإيمان والتقوى !! من يريد أن يغضب الله فذنبه على جنبه وحده !! بات الناس فى اطمئنان فالشر كله كان ينشأ بين أشجار الجبل خوفاً من الخيانة والغدر ! أكبر حاجة عملتها الزعيمة أنها كرهت الجميع فى الخيانة والغدر فبات الكل فى روقان بال ! بات الكل يحرس الكل وكل واحد فى الجبل هو الجبل بحاله !! أى طريد جديد لا يكون فى أمان إلا إذا جاء وقابل الزعيمة واختبرته فإما جعلته من جلاسها وإما أمرت له بالعلاج النفسى فى مسجد

الجبل وحدائقه حتى تنكسر شوكته وإما حكمت عليه بالإعدام إن تيقنت من فساد
التام !! على فكرة ! منذ أن راق بال المطاريد كثرت فى الجبل الأقراج والليالى
الملاح ! من زواج لظهور لحضرة نكر لحضور ضيف عزيز ! المزيكة تصدح ليلى
فى جميع أنحاء الجبل !! تجيء الركائب من خيول وحمير وجمال لتتقلنى وقرقتى
كل ليلة إلى نجع فى الجبل أو سراية من سراياته التى يملكها أعيان الجبل من
قدامى المطاريد الأغنياء الذين كبروا فى السن فقتazolوا عن الزعامة لمن قتلت رأس
الحكومة فى عقر دارها !! مساء الخير يا أنس ! أنت نورتنا !! » .

هكذا أنهت أنصاف كلامها وهى تداعب ذقنى . أما أنا فكنت سبحت فى
ملكوت الله ياخال ! لم أعد أعرف من أنا صرت كفرخ الحمام يلف يحلق يدور من
الجبل إلى البلدة إلى مصر محير كيف أحط فى أى مكان . أين تراه يكون عشى
الأصلى ياخال ؟ أ يكون لى كل هذه المحسوبة وأبقى ولداً متشرداً هجأماً فى
مصر يسرق الكحل من العين ؟ ..

٦ سمعنا طرقة خفيفا على الباب . رفعت رأسى ، رأيت بديعة تدخل علينا فى
ربيع هدمها تشوح بيديها مستعجلة فى شبق :

« ستخلصين على الرجل بالبوة ! خل فى عينيك حصوة ملح واتركى شيننا منه
لنا !! قومي يا عاهرة !! » .

وسحبت أنصاف من حضنى فيما هى متشبثة به فقفزت بديعة إلى السرير من
خلفى ! طوقتني بشدة وجعلت تشدنى . ثم دخلت فكيهة هى الأخرى متحررة من
هدومها فآزاحت أنصاف بقوة واحتلت مكانها . برهة صغيرة ودخل عم عرندس
يهتف فى وسط القاعة :

« حيك أيتها العاهرة أنت وهى ! تعالوا كلكم الآن فالعشاء جاهز ! هيا يا ابن
شهبندر التجار !! » .

ضحكت من أعماق يابوى . نكرت له فرج أم شهيندر التجار الكبير ! فأعاد
نكره خلفى مصحوباً بألف زرطة . هجم على ماداً كفه فى ضحكة ماجنة ؛
فصافحته واستندت على قبضته قافزا عن السرير الملوكى الذى ودعنى بئنة قصيرة
وغاية فى الرقة والإثارة يابوى .

أربع فى الأرض

الطبلية الكبيرة توسطت القاعة . بجوارها طبلية أخرى . فوقهما صينيتان نحاسيتان كبيرتان ؛ عليهما فضلة خيزك هضاب من اللحم المشوى والسلوق والمحمر ، وأكوام من الحمام المحشو بالفريك ، وصندور الدجاج والديوك الرومى وأطباق الثريد والسلطات والمخللات . هجمنا على الأكل ؛ الكل يفصص ويرمى أمامى ، ومحسوك يطوح فى فمه . فلما امتلأت وبقيت الصوانى حافلة بالخيرات جىء بالفاكهة والمهلبية . ثم رفعت الأطباق وجىء بالشاى الثقيل . طرأت على القعدة وجوه جديدة تولت خدمة الرص والتكريس والتوليع ، وظهرت كلاليع الحشيش من كل ناحية . غمرنى عم عرندس بكلكية كبيرة خضراء :

- «ما رأيك فى هذه الحشيشة ؟» .

عجنتها فى يدى فاسترحت للمسها فقلت : طيبة . فهمس :

- «زرع يدى وقطف يدى وصنع يدى !!» .

- «الله ينور عليك !» .

- «وأنت ماشى خذ ما تشاء من الكيف لك !» .

- «تشكر ياعم !» .

وزع على كل الجالسين . وكان الزمار قد راح يقسم على الزمار ، تسنده الطبلية والسلامية ، واستطال نفس الأرغول فى زفرات خشنة خشونة تحرث فى الأعصاب والمشاعر جداول من نغم عميق . سرعان ما قامت النسوان الثلاثة فتحزمن وغطسن فى بحر الرقص يقطن الأفاعيل ..

لاحظت أن صاحبي هليل معتكر المزاج بعض الشيء ؛ فأنزعجت ياخال ؛ خفت أن يقل عقله فيطلب منا الانصراف ، أو تركبه غزالة الدروشة فينتبه إلى أن ما نفعله رجس من عمل الشيطان فينكد علينا ، فنويت لأخسرنه إن فعل . ملت على أذنه :

– «مالك يابو العم ؟! طلبت لى السعادة والرضا فما بالك يركبك الهم ؟! كلهن تحت أمرك لو أحببت !! » .

شوح فى فروغ بال :

– «أنت تعرف أن ليس لى فى الحرام ! إنما أنا زعلان لأن ما أردته أنا لم يحدث كما أردت !! » .

خفت أن يشتت مخى :

– «وما الذى أردته أن يحدث يابو العم ؟! » .

مال على أننى باسم :

– «كان عشمى أن ترى الخوخة بالذات وتشبع منها إنها أحلى وأمتع منهن جميعا ! » .

نكرنى بموضوع الخوخة يابوى :

– «أه ! نعم ! ولكن يابو العم خوخة ماذا الآن بعد هذا التفاح والقشدة ؟! » .

بدا كاليانس ؛ شوح فى ولولة :

– «فماذا لو رأيت الخوخة ؟ تقع من طولك فى الحال !! » .

بحثت عن عم عرندس لأسأله عن السر فى عدم مجيء هذه الخوخة فلم أجده . تذكرت أننى لاحظت انصرافه ومجيئه عدة مرات . سلمت أننى لهليل وعينى لبحر الرقص المتلاطم باللذة والشهوة الطافحة . كنت أحاول النفاذ إلى ما تحت ثياب كل راقصة . إلا أن موضوع الخوخة وغياها شغلنى ؛ فالبنى آدم منا طماع خصوصا فى هذه الشغلة ..

فجأة دخل عم عرندس يتحاشى الاصطدام بالراقصات المتلويات تحت قمصان
من الحرير الأطلس الأحمر اللامع وشراشيب الشيلان الملتقة حول خصورهن
تتطوح بين السيقان . كان عم عرندس متدلى الأذنين فى حرج وخجل كالمضروب
على وجهه بالصرمة القديمة . توجست من منظره : حُلت إليه كل اهتمامي ؛ فلما
جلس قُرب وجهه منى ومن هليل قائلاً فى أسف :

– «البنت الخوخة بنت الكلب أتعبتني ! تصور أننى بعثت بمن أتى بها غصبا
عنها ؟ لقد عذبتني ! كل مرة أخرج إليها أهددها بأن الضيف الذى عندي يقدر أن
يحرقها ! لم أقل لها من هو ! وهى غشيمة لا تعرف من أخبار الجبل شيئاً كثيراً !
كل ما طلع عليها قولها إنها قد انخطبت بالأمس لواحد يعيش فى مصر وإنها كفت
عن اللبث وفاءً للكلمة التى أعطتها لخطيبها !! بنت الكلب تطلع لنا فى مطلوع جديد
تتصور أننا سنصدقها ! إننى أصدق أن الكثيرين يمكن أن يخطبوها حتى مع
علمهم بسيرها البطال ! أما أنها تمنع نفسها عن السير البطال لمجرد أُر شاباً
ابن ناس خطبها بالأمس فهذا لا أصدقك لكنى تعبت معها وهى تهددنى بالصوت
وقتل نفسها إن غصبت عليها !! » .

ثم اكتست عيناه ثوباً من الحزن الشفيف الأليم . شعرت أنه يوشك أن يبكى
لشدة ورطته بين أن يوضح لى موقفه من إرغامها على المجيء وبين أن ينبع سرّاً
لا ينبغى أن يذاع . وإذا به يقترب منى حتى يلاصقنى متربحاً . هامساً فى أُننى
بصوت أليم يقطع نياط القلوب :

– «اللهم ابعد الشر عن بناتنا !! هذه البنت لها ظروف صعبة !! مات أبوها
ليفندى نذلاً كان يحرسه ! النذل نذل لم يرع للمرحوم حرمة ثم يتق الله فى عرضه
وأولاده ترك البنية نهبا لأولاده الصبيان يعبتون بها فلا يردعهم !! خرقتها أصفر
الأولاد مع أنه المتعلم الوحيد فيهم بكل أسف !! أجهضوها !! قصوا لسانها !

كافأها المقتري الأب بأن تزوجها هو ستره على ابنه زواجاً عرفياً !! المسكينة لا تعرف العرفى من الرسمى لكن الله انتقم لها بالعجل فالولد الذى خرقتها بعد أن أصبح ضابطاً فى الجيش قتله اليهود فى السويس نزلت على أبيه النقطة والعياذ بالله كسحته ! شهر واحد ثم اتكل على الله وبقي وإداه الكبيران كل منهما يريد أن يرث البنت كجارية والبنت تصوت وتقول إنها زوجة أبيهم على سنة الله ورسوله لكن نسوان الدار تكفلن بطردها ليلاً !! وكنت أمشى فى شوارع البلدة ليلتها حين شفتها تتلعب فى الظلام مبتكرة فى زى نفر أجرى من طائفة المعمار يحمل صرة خلقاته !! كشفتها من طراوة مشيتها ضيقت عليها الخناق فبكت ! حكّت لى ما حكّت ! جئت بها إلى هنا فخبأتها بعض الوقت ثم صحبتها إلى الزعيمة فوق الجبل حكيت لها حكايتها من طلق أسلامو عليكم فبعثتنى بها الزعيمة إلى ناس طيبين لهم مهابة المال وعزوة الولاد فشغلوها عندهم خادمة للأطفال وزريبة المواشى !! بصراحة أنا المحقوق فى أمر هذه البنية أنا الذى ميلتها مرة لتبيت مع شيطان من مهربى المساخيط رآها عندى فطار عقله ودفع لى مائة جنيه ولها خمسين مع فرع من الكهرمان الأصلى الأثرى ولولا أننا خدناها بالحشيش والأفيون ما رضيت أن تفك عظامها !! هذه البنت بون كل البنات أشعر أننى ظلمتها وأننى أنذل من الذى غدر بها فعذبه الله عاجلاً !! وأشعر الآن أننى لو ضغطت عليها فربما تموت وتجيء لنا بمصيبة !! » .

ثم ضحك ضحكة هزيلة مكتومة كأنه يريد أن يقول بها : إنس هذه المأساة الغارضة وعد إلى ساعة الحظ التى نحن فيها . وجدتنى أقول :
- « هذه بنت طيبة وجدة فلا تضغط عليها ! دعها فى حالها يابو العم ! ساعدها على التوبة ! » .

استراح عم عرندس لهذا القول كأننى خلصته من ورطة ، وشعرت والله ياخال

أنه ميال لترك البنت فى حالها ، فشعرت أنتنى قد أحبه ذات يوم . الدور والباقي على هليل الذى بدا كاسف البال كأنك دلقت فوقه برميلا من المياه الباردة ، كأن خطته كلها فشلت ، فشوحت له قائلا :

- «خلاص يا هليل كل شىء نصيب وأنا مبسوط كل الانبساط فماذا يقلقك ياأخى !؟» .

صار هليل يردد كئته يبتهل :

- «الحمد لله كل شىء نصيب !!» .

ثم أضاف بعد هنيهة :

- «ومادامت الخوخة قد صدقت فى وعدها وحفظت شرف خطيبها واحترمته فى غيبته واحترمت كلامها معه فإننى متبرع لها بمائة جنيه تنفق فى فرحها !» .
قال عم عرندس متهللا :

- «كلك نظر يا هليل ! على كل حال سأجعلها تجىء لتجلس معنا فحسب ! هى ليس عندها مانع من الجلوس معنا لزوم الفرقة أما أمور الدب والضرب فى المليون فلا ! والحمد لله أن أمامنا سكك مفتوحة على البهلى !!» .

وأشار إلى الراقصات . ولم يتم كلامه ، إذ أن فكيتها فعلت مثل أنصاف وزحفت نحوى على أربع ثم اختطفتنى من مكانى بنفس القوة والسرعة والرشاقة . فإذا بى بعد برهة ملقى على السرير الملوكى فى الغرفة المقابلة ، وفكيتها تعرينى من خلقاتى وتشخلعننى على نغمات المزىكة وأنا ضارب فى سقف النشوة . ما كدت انتهى حتى قفزت علينا بديعة لكننى صرت خرقة بالية . صارت تداعبنى حتى دبت فى الروح من جديد فقممت كالمفجوع كالمجنون . مزقتها ياخال ، أسلت الدماء من وجهها عضا وخريشة وكل ذلك من الملل أو من الشبع لست أرى ..

نزلت عن السرير أخرج ركبى . فما أن دخلت القاعة الأخرى متجها إلى

قعدتى السابقة حتى رأيتها يابوى فتسمرت فى مكانى . تخيلت أن شللا أصابنى يابوى ، فانهمرت الدموع من عينى . أما عين هليل فقد جعلت ترقبى بنظرة حادة جدا وغامضة بما لا أعرف إن كانت شماتة أم إشفاقا يابوى . ثم إننى دفقت النظر فيها لأتأكد أن الأمر حقيقة وليست من التهيوأت . إلا أن الحقيقة كانت صادمة ، فالتى أمامى هى بعينها «حنة» ، حبيبة قلبى حنة ، التى خطبتها من نفسها بالأمس . وأخذت الأرض تميد بى ياخال .

باطنه

أدركت الآن فحسب ما الذى قصده هليل بارتكاب هذه المغامرة الفريدة: كان يريد أن يثبت لى - عمليا - أن حنة ليست جديرة بأن أتزوجها إذ هى تمشى فى الطريق البطال ، وكان من الممكن ألا أصدق له لو قال لى ذلك وكنت على وشك أن أركب رأسى وأجلب لهم العار مدى الحياة بهذه الزيجة . فإذا به من حيث لا يقصد يثبت لى وإنفسه أنها بنت تستأهل السلامة وأنها كفيلة بأن تصون شرف زوجها وتحمى عرضها . المشكلة الآن ليست فيها بل فى هذه المفاجآت التى دهمتنى بخصوص الزعيمة : سعدية ولد أبى ضب تصبح زعيمة فى الجبل ، وعرافة يطلبها عليه القوم من مجلس قيادة الثورة ! فيما أنا سواح كحيان فى بلاد الله ؟! فهل ياترى ستوافق الزعيمة على أن أمرغ سمعتها فى التراب ؟! ..

أفقت على هليل يسندنى من ناحية وعم عرندس من الناحية الأخرى خشية وقوعى وأنا أحاول الجلوس . كانت نظرة حنة قد تسمرت على وجهى فى اندهاش وفزع ، لا تتى تردد مأخوذة : « هو أنت ؟! هو أنت ؟! هو أنت ؟! » . وأنا الآخر أردد نفس العبارة . وإذا بها تنخرط فى البكاء ، فما كان منى إلا أن انهمرت دموعى غزيرة كالسيل فيما أردد :

- «سامحيني يا حنة ! سامحيني يا حنة ! أنا مازلت عند وعدى !! » .

فلم ترد ، إنما تسالت خارجة وهى تنتفض من البكاء . جزعت ياخال ، فطمأننى عم عرندس :

- «إطمئن فهى تحت يدى فى أى وقت تشاء المهم أن الزعيمة بعثت الآن تريد

أن تراك !! الركائب جاهزة بعد أن تستحم وتستريح لك ساعتين ! لقد
سمرت الرسائل على أننا قادمون على وجه الصباح فكن مستعداً وسيكون هليل
معنا !! » .

لم أعط منطقاً ياخال . مسحت دموعي وتيسمت درءاً للكدر المفاجيء ،
فتبسّموا جميعاً وقالوا فى نفس واحد :
« كل شيء قسمه ونصيب !! » .

فما وجدت قدرة على النظر فى وجه أحد . وأهم شيء شغلنى آنئذ هو أن أقوم
لأرتقى فوق السرير فاستغرق فى نوم عميق لا أفيق منه مطلقاً . لكننى ما كنت
أشعر فى النهوض حتى دهمننا صوت صراخ ملتان ؛ وأضاءت الردهة بنور
ساطع صار يقترب ؛ وإذا بشجرة من اللهب المخضوضر فى توهج تعبر باب
القاعة فى اندفاع مذهل صارخ ، وصوت باب الشارع ينفّث . قمنا فرعين ، عبرنا
الردهة إلى الشارع . كانت رائحة احتراق اللحم البشرى زاعقة خانقة . فى
الشارع كانت شجرة اللهب تواصل الجرى بعشرات الألسنة المدببة وصرخاتها
تمزق جوف الظلام تتداح فى أعالي الجبل ؛ ونحن جميعاً نجرى وراءها بأقصى ما
فيينا من سرعة ؛ والألسنة اللهبية الممتدة تسود شيئاً فشيئاً تحت عباءة من الدخان
الأسود رأيناها على البعد ترتقى فوق الأرض هامة فتباطأت خطواتنا فى يأس
مرير ثم توقفنا ذاهلين عاجزين . كان هليل قبالتى منكس الرأس صدره يعلو
ويهبط ، فما دريت إلا وذراعى ترتفع ثم تهوى على صدغه بضربة تقطر حقداً
وسخطا ، ثم ارتفعت على الأرض فانقطعت صلتى بكل شيء .

العاب

الشمس كانت متبرجة على أتم زينتها يابوى فى ملاقة صبحها الفتى . قد صبغت وجهها وخودها باللون الوردى . كانت تخادعنا حتى لا نراها وهى تنفرد به تتعشقه إذ هى تزحف نحو جبهة الضوء شيئاً فشيئاً فتحتويها خلف السحاب ، ثم تسقط به خلف هامات الجبل ، تقبل الضوء ويقبلها ، تشحنه بالضحي اللاهب ، فيشحنها بذكريات الأمس البعيد . وحين انتهت نعالنا من اللف حول الكثير من الهامات العالية ، وصعود القليل من الهضاب القزمية كان الصبح قد شب عن الطوق ، فالتقيناه صبيا فتيا على مشارف أعلى هضبة فى الجبل . هضبة مخيفة وساحرة ياخال تحلف اليمين أنك لو كنت جنياً أمك من المريح وأبوك من الشلال ما استطعت الوصول إليها وحدك بغير دليل تربي هنا منذ الطفولة فأصبح يعرف الفرق بين الشئ وشبيهه ، والاسم وسميه . ذلك ياخال أن هذه الهضبة قد مررنا فى الطريق بعشرات منها ؛ وإنك أثناء سيرك بجوارها لا تعرف إن كنت تتقدم أم تتأخر ؛ لا تعرف إن كنت تمشى بجوار نفس الهضبة أم هضبة أخرى . والشمس أحيانا فى وجهك وبعد دقائق فوقك أو خلف ظهرك أو على يمينك أو شمالك وأحيانا لا وجود لها فى السماء المرئية لك بين شقين مرتفعين يفصلهما طريق . إنك ياخال تمشى فى مواجهة الشمس ساعة أو أكثر وفجأة ترى الشمس قد صارت وراء ظهرك قبل الأوان . حقيقة الأمر ياخال أنك حوت أثناء السير دون أن تدري عائدا إلى الخلف ، والتحويد يتم ببطء على امتداد طويل ؛ حتى لتظل تظن أنك تمشى فى خط مستقيم . ونفس الهضبة ربما كانت على يمينك فإذا هى فجأة قد صارت على

يسارك . ولو أن طائراً أراد أن يقطع مشوارنا ذاك الذى نقطعه فى أكثر من ساعتين فقد لا يستغرق بضع دقائق ..

ركض الركائب يدور الركاب : والطريق بواره كما للبحر أيضا ياخال . هضاب ثم هضاب ثم هضاب ، تمشى فوقها ياخال وأنت متخيل أنك تمشى بجوارها : تصعدها وأنت متخيل أنك جاوزتها فتركبتها خلفك ، إذ أنك كلما اعتليت قمة طالعك من فوقها قمة أخرى لهضبة كالتى تطالعك وأنت ماشى فى سفح الجبل على السواء . أما المشى فوق الهضبة فإنك لن تشعر به . هذه الهضاب لابد أن تكون مسكونة من الأزل ياخال : فلا يقوى على ضرب هذه الصخور واختراقها سوى الفراعين الأقوياء ياخال ، يشقون الحجر بالحجر والسماء بسماء مثلهما : ولد فتوات يابوى ..

راوغتنا الشمس كثيرا ، وتسلمت على أقيقتنا حتى شوتها . كنا كائنا نجتريء على سلمها الطرؤنى فنلف حولها نبتعد عنها مرة ونقترب منها مرات . وكانت كأنها تتوارى لتأخذنا من الخلف على حين غرة ..

ضؤل خيالنا تماما صار بطشة ظلال تحت أقدامنا . خطو البغال قد ثقل إلى أقصى حد ، رقابها صارت قرب صدورنا من فرط الصعود . نزل عم عرندس عن بغلته وجعل يسحبها ماشيا أمامها على رجليه ناظرا إلى أنا وهليل فترجلنا وفعلنا مثله ..

بعد خطوات طويلة اخضر لون الشمس فقلنا إنه اخضرار الذهب فى أوج اشتعاله ؛ فمن عجب ياخال أن الأخضر الرطيب كامن فى الأحمر الملتهب الأوار . الله وكيل ياخال ، سبحانه جلت قدرته : أن تكون النار هى نفسها الماء الذى يطفىء لهيبها كما سمعت عمى الشيخ ذات يوم وهو يشرح لجلاسه بردة البوصيرى : الماء فى النار ، والزرع فى الماء ، والشيطان فى الإنسان ؛ حقا ما

عفريت إلا بنى آدم صدقنى يابوى . كل شىء فى كل شىء ولا يفهم معنى الأفكار
والخلق وحكمة الله إلا من عاش فى مثل هذا الجبل . شينان فقط لا يجتمعان فى
هذه الدنيا فى كيان واحد : الله والشيطان ؛ فسبحانك اللهم جلت قدرتك ؛ اللهم
اغفر لى ما ارتكبتة الليلة المنصرمة من ذنوب ..

المسافة بين اللون الأخضر وقرص الشمس أخذت تتسع ؛ وأخذ قرص الشمس
يرفع صدره عن الخط الرمادى الغامق يبتعد ثم يبتعد - الخط الرمادى المقوس
المنبجج بدأ ينفصل بدوره عن اللون الأخضر يلتحق بموكب الشمس فى السماء .
ثم بدأ خط من الخضرة الرمادية الكثيفة يمتد أمامنا طالعاً علينا من بشر الأفق .
سرعان ما أخذ يتدملج يغلظ يفقد تناسقه . فإذا بنا أمام سور مزروع حول أسلاك
شائكة يمتد فى جميع الجهات امتدادات لا نهاية لها ؛ بداخله غابات شديدة
الكثافة ياخال . جزورين وكافور وصفصاف وتوت وجميز وفواكه من كل الألوان ؛
جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع فى الأفق ؛ الكون كله زكى
الرائحة ياخال . ولكن ، من ياترى ذلك القلب العظيم الذى يسكن هذه الجنة ؟ ..

توقفنا برهة نلتقط أنفاسنا التى تركناها فى سفوح الطريق فصرنا نتساند
على البغال وننظر فى السفوح خلفنا فنحس كأن أنفاسنا تشدنا قبل أن نشدها .
العجيب أننا لم نر من تحتنا أرضاً يمكن أن نتهاوى فوقها إذا وقعنا ؛ لم يكن
أمامنا سوى صخور تائتة كحراشيف الجبل تزداد رقاعها اتساعاً كلما تسافلت ..
مشينا بحذاء السور المزروع الذى كان على يميننا اليسرى ولم يكن يظهر لنا
أننا فوق هضبة ؛ إنما نحن - رغم كل هذا العلو الذى صعبناه - لا نزال فى
سفح من السفوح ؛ فما هى ذى هضاب كثيرة تبدو قممها الهائلة من جميع
النواحي على امتداد مسافات هائلة ؛ وكان الطريق يتسع على يميننا شيناً شيناً
إلى أن أنقرض من جانبتنا تماماً وحلت محله أرض رملية عريضة مترامية الأطراف

تحولها الهضاب من ثلاث جهات . وبدا كما لو أن قرص الشمس قد حصرنا في ركن ظليل من هذه الجنة فعزلنا عن كل ما يربطنا في الأسافل . وهنا نطق هليل بعد صمت طويل :

« لو كنت أعلم بوجود هذه الجنة لصرت من كبار المطاريد !! » .

وقال عم عرنس :

« ليس كل مطرود في الجنة ياهليل !! » .

وقال ولد من الأتباع لا اسم له :

« رحم الله خرابة ! هو الذي استوطن هذه المدينة وعمرها وكانت في الأصل يحتلها جماعة من العريان الهلالية نورو الأظافر الطويلة والحي الخشنة !! كانوا من أقدم عتاة المطاريد والتائهين ومجانين الجبل !! لم يتركوا مكانا في الجبل إلا وذهبوا إليه عريون فيه !! وأصل الحكاية أنهم كانوا يصاحبون القبط يضحكون عليهم بفرض الحماية فعرفهم القبط على مخارز الجبل فلما جاؤا إلى هذه السقيفة وجنوا أشجاراً مزروعة من قديم الأزل ومن تحتها دير صغير محنق يعيش فيه بعض الرهبان العجائز يقيمون الصلوات !! » .

وافق عم عرنس على كلام الولد وقال إن هذا الدير موجود وسوف نراه لكنه تحول إلى مسجد صغير على القد بمثابة خلوة تقضى فيها الزعيمة معظم لياليها مع قضائها ومشايخها الزاهدين . فقال الولد الذي من الأتباع :

« العريان الجبابرة هدموا سقفه ولم يقدروا على هدم الجدران !! ناس شغلتهم الهدم أما نحن المصريون أبأ عن جد فشغلتنا البناء هكذا قال لهم خرابة !! ولما سكن هنا كان العريان يخزنون في الدير سرقاتهم وهم الذين قتلوا الرهبان الثلاثة واحدا بعد الآخر بحثا عن كنز ظنوا أن الرهبان يحرسونه لكنهم لم يجنوا شيئا !! وفي ليلة نام فيه خرابة فجاءه في المنام هاتف على هيئة تمثال

رئيس قال له : قم ونظف هذا المكان فإنه آمن مكان فى البلاد كلها لأن زوجة
إله الخير جاءت بجثته التى جمعتها من كل مكان وزعها فيه أخوه إله الشر فدفتها
هنا وبقيت بجوارها تبكى وتصلى حتى فاضت من دموعها مياه صنعت نهر النيل
وغطت كل الهضاب وجرفت المرأة الوفية الطيبة وحملت جثتها الغريقة إلى
الإسكندرية فعم الخير فى الوجه البحرى كله لأن الجنة ذابت فى المياه فجعلت
لونها أحمر كالخار !! فقام خرابة من رفته فنظف المكان وجعل منه قعدته ومسكنه
فجاء الهاتف مرة ثانية فى ليلة جمعة وقال له : قم واحفر الأرض ألم تر الأشجار
من حواك يا خرابة ؟ قال : بلى ! قال : ألم تعرف أنه حيث وجدت الأشجار توجد
المياه ؟ قال : بلى ! قال : قم واحفر الأرض من تحت رجلك تجد المدد فاسق هذه
الأشجار واعلم أن كل شجرة من هذه مدفون تحتها رجل نكر الله وسبَّح بحمده !!
عنها وقام خرابة فجاء بالرجال فظلوا يفتحون فى الرمل أسابيع وأشهر والعربان
يرمونه بكل جنون !! خرابة طول عمره عفرت عرف من سهولة الرمل تحت قدميه
أن الأرض الصلبة لاتزال بعيدة جدا فصمم على أن يلامسها حتى وجدوا تحت
ثلاثة أمتار من الرمل أرضا مربعة من الرخام مجوفة من أطرافها الأربعة تجويفات
تتسع لقبضة يد كبيرة لتقبض على يد موصولة متينة !! سرعان ما وسعوا حول
هذه الرخامة العريضة وكان الرمل أشبه بعجينة الفخار والمياه تنز حول
الرخامة !! » .

قاطعه عم عرندس مكملًا بلذة :

- « جبار طول عمرك يا خرابة ! ما فعله لا يجرؤ على فعله أحد ! جاء بسبية من
الحديد بثلاث قوائم كسبية الجزار بالضبط ! كميزان القبانى ! فى أعلاها بكرة من
الحديد مجوفة ومملئة بتكويرات حبل تخين مجبول من أربع أطراف من ليف
النخيل ! ربط كل طرف فى قبضة تجويف من تجويفات الرخامة ربطا محكما !

وأمسك بطرف الحبل حوالى خمسين رجلا عفا صاروا يشنون ! ورجال آخرون
بأسلحة الكريكات يفززون الرخامة فى مرقدها يفصلون شفتها عن شفة الأرض !
هيا هوب ! هيا هوب ! الهمة يارجال ! ما كانت شفة الرخامة تنفصل عن
شفة الأرض من إحدى الجهات حتى أسرع فريق من الرجال بوضع شجرة كافور
مقطوعة ! صاروا يرفعون طرف الشجرة حتى انتصبت الرخامة واقفة على سيفها
فقلبوها على ظهرها ! أنا على فكرة شاركت فى رفع هذه الرخامة شاهدت البئر
من تحتها كنت أول من ذاق طعم مياهه فاستحليته كمياه النيل بل أشد حلاوة !
كان مبنيا بالحجارة وقام خرابة ببناء قبة فوقه لها أبواب وشبابيك فى كل شباك
دلو مربوط بحبل متين ! وابتنى قناة موصولة ممدودة فى أعماق المنطقة حتى
آخرها كما ابتنى لنفسه السراية المجاورة لجدران الدير وجاءت الزعيمة فبنت
للجدران قبة فامتلات المنطقة بالأنس والخضرة!! » .

البغال تمهلت وحدها يابوى . بدأت نقط بيضاء تلمع فى بحر الخضرة الواسع،
برزت فى بيضتين كبيرتين متجاورتين بين الأشجار فاستطعت أن أميز فيهما قبة
البئر السبيل وقبة المسجد الخلوة ؛ ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات
الباشوات . ثم إن الوجوه السمراء الملوحة بدأت تكثر حوالينا داخل جلابيير من
البيسة الزرقاء يتفحصوننا بابتسامات بلهاء ويهزؤون مع عم عرنس بكلام قبيح
جارج وهو يلعب لهم حواجبه سخرية منهم وهزماً بهم . فما أن وصلنا إلى باب
حديدي متين أعلى من قامة الرجل الفلق حتى جوبهنا بعاصفة عنيفة من نباح
الكلاب لا ندرى هل ترحب بنا أم تنذر بافتراسنا . انبرى أكثر من هلف يسكت
الكلاب فلا تسكت ؛ صوت تمردها على الجنازير يصلصل بشدة يصنع ضجيجا
مخيفاً مثيراً للأعصاب ..

الباب الحديدى مفلق لكن كله عيون مفتوحة ، كل عين تطل منها فوهة بنديقية

أو فوهة عين حارسه . لم تكن تقترب من الباب إنما كان هو الذى يستدير ببستانه ليواجهنا . شرفة السراية تبدو كأن السراية التقت بها وجاءت تواجهنا بباب مشغول بالنحاس . فإذا بهذا الباب يفتح بدرفتيه فيطل من داخله بستان ضخم زاهى الألوان ياخال ، تكاد ألوانه الزاغة الكثيرة تصيح فى طرب بهيج . برهة وجيزة ثم ظهرت الملكة نفرتيتى بحجمها المحدث ومشيئها الملوكية . ما أن لفظها الباب حتى انفلق من تلقاء نفسه . حاجة تهوس يابوى . أما الملكة فإنها تهادت نحو سور الشرفة المسقوفة ، فى خفر وجلال تلف رأسها بطرحة بيضاء كالفل بدت كالتاج المزين بخصلات من شعرها المتكور فى دوائر مرفقة ببعضها بالطرحة بدبابيس على هيئة ورود وزهور وأوسمة وجعارين من ثمين المقتنيات التى استورثها خرابية من بطن الجبل عن أجداده الفراعين : عقود من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة مشرقة على صدرها العريض الناهد رغم ضالة حجمها ؛ أساور من الذهب مطعمة بالدر والياقوت ترصع معصمها وهى عاقدة ذراعيها فوق صدرها كوقفة العنزاء بنفس الوداعة ..

بدت لى الملكة ياخال على غاية من الوثوق والإطمئنان تملك فى يديها أسرار النيل وخط سير الكواكب وفى خزائنها دفاتر تحوى خرائط محطات الشمس دقيقة بدقيقة وخريطة المياه بقعة ببقعة وجدول الحياة المقبلة لحظة بلحظة . أمال يابوى . حاجة تهوس والله يابوى . أهذه الملكة بجلالة قدرها ، المطلة من شرفة من داخل شرفة من قصرها هى أختى سعادى أرمل خرابية ؟! حتى لو حظيت بلقب فراشة الجبل أو زعيمة الجبل من أين جاءت بمثل هذه البذلة الوقور التى ترتديها من قطعية واحدة ملفوفة حول الجسد بحرفنة فائقة لا تعريه ولا تخفى معالمه الأساسية البارزة بكل وضوح ؛ شاشة داكنة اللون تستقبل ألوان الطيف بلمعة مزدهية كالمرآة يظهر يظهر من ثنايا الجسد مضاعف القسما مضاعف الجمال طاغى

السحر ياخال . يخلق الله ، لابد أن تكون هذه البذلة أيضا من مستورثات خرابة
عن طول عسّة في الأرض فكل الأرض الصعيدية مقابر كالضمير الغفل تحوى
الكنوز ..

قد جاءك أيتها الملكة من بات مقتونا بكل هذا الذى يخرج من بطن أرض
الصعيد يحكى ما يشيب له الولدان من حكايا . بمثلها بات الحاج أحمد نوار
الدين السنّى حاكما على البر كله تأتمر الحكومة بأمره وهى تترك أنه محض
نصاب ضلالي لا ذمة له ولا دين . نهارك فل أبيض يافراشة الجبل يازعيمته .
لسوف تكونين للسبب فى نجاحى ؛ لا أنوى نجاحا يجعلنى مثل الحاج أحمد نوار
الدين السنّى بل أرغب فى أن أحكم الحاج السنّى بذات نفسه فيصبح من بين
خدمى ..

تحلف اليمين يا بوى أن الله ركب لى جناحين فى الخفاء طرت بهما فكما
اقتريت من الباب الحديدى ازدادت هى التصاقا بسور الشرفة تكاد ترمى نفسها
نحوى لولا ما يفصلنا من سور وزرع وقتوات وأسلاك . كانت البسمة على شفيتها
تهتف : حسن ! حسن ! إن هى إلا برهة حتى انفكت الجنازير عن الباب الحديد
فانفتح مزيقا ، فظهر عديد من الرجال يحيطون الكلاب يعلقون البنادق فى
أكتافهم . تركنا البغال لمن تولاها ؛ إندفعت أجرى فوق ممر من الزلط الملون صاعداً
سلما مواجهها . ارتمينا ، الملكة وأنا ، فوق بعضنا ؛ فوقنا سويّا على الأرض
ننهمر فى بكاء حار عميق تتخلله ضحكات نزقة يتبختر صوتها فى طيات صوت
الذهب واليوافيت .

أكل

باشوات من يابوى ؟ ملوك من ؟ هذه هى القصور وإلا فلا . البهو طويل واسع . على الجانبين أبواب كثيرة مشغولة بالنحاس الأصفر اللامع على هيئة عقود كبرواز صفحة المصحف الشريف لكنه ملئ بالنقوش الفرعونية التى تحكى قصصا يمكن تتبعها منظرا منظرا . المقابض من عاج وقضبة . الأرض مفروشة بسجاد ثمين ملون . السقف مشغول بالزخرفة الملونة كأبسطة منقوشة لتوها . تُرى يابوى من الذى قام بشغل هذا السقف وهذه الأبواب وهذه الثريات المتدلية كأفرع الزهور وعراجين البلح ، كلها من البللور فى وسطها مصابيح بللورية كبيرة تضاء بالشموع . هذه الكراسى والمقاعد والمناضد ذات الأرجل المشغولة المرسومة على هيئة وجوه أنمية وأشكال حيوانات وزواحف وطيور جارحة ؛ إن رجل الكرسي وحدها تساوى ألوف الجنيهات من كتر ما فيها من شغل وتطعيم . فوق المناضد الكثيرة المختلفة الأحجام والأشكال أعداد لا حصر لها من تماثيل ومساخيط من جميع المعادن والأحجار الأصيلية . هذا البهو وحده متحف يابوى ؛ وإن ما سرقتة أنا من مقبرة الحاج أحمد نوار الدين السنى لا يجيء شيئا بالنسبة لركن واحد من هذه الأركان المتخمة ..

الملكة جعلت ترقبني يابوى ، تكلم ضحكها من كثرة توقفي عند كل خطوة للنظر المنبهر فى هذه الأشياء . قالت لها :

« من أين جاتك كل هذه الثروات ياأخت السعد ؟ » .

انفجرت ضاحكة :

- « لا ثروات ولا دياولو !! إنها هنا أكثر من رمال الصحراء يلعب بها الأولاد ويتقاذفون بها عند العراق ويبيعونها بكلمة : شاطر ياولد !! لو لم تكن الحكومة تضبطها وتحاكم حائزها لأعطيتك منها أجولة !! على كل حال إنها تنفعنى أشتري بها أتخن شارب فى الحكومة من صغيرها لكبيرها !! » .

قلبى راح يرقص ياخال ! لكن الانقباض حل بصدرى بمجرد ذكرها كلمة الحكومة : فإن هذه الكلمة اللعينة تصيينى بحكة الهرش فى دماغى وأجنايى .
قالت الملكة باسمه :

- «ماذا دهاك يا أبا على ؟ » .

اغتصبت بسمة مرة الطعم :

- لكن من الذى وضع لكم كل هذه الرسوم والزخارف فى هذا السقف ؟ هل جئتم بناس من مصر ؟ » .

ضحكت الملكة فى صفاء كأنها لم تضحك منذ عمر طويل قالت وهى تغمزنى فى كتفى :

- «المرحوم هو الذى فعل كل ذلك ألف رحمة ونور تنزل عليه !! كان جباراً قويا ورجلا ! كان خسارة فى الموت ولو لم أخذ بثأره لحظة قتله لبقيت طول عمرى فى مستشفى المجانين !! الحكومة لا تستنذل إلا فى اللحظة التى يجب أن تكون فيها محترمة وإنسانة ! لحظة وقوع الأصيل بين يديها ! إنها تخاف ولا تختشى !!

أه ياحسن لو تعرف الدمامل الوارمة فى قلبى من الحكومة ! لقد ضربت رأسها فى الحائط حتى تتمكن من القبض على الفارس الذى قتل ذلك الحكمдар ولم تعرف حتى الآن أننى ذاك الفارس !! نجانى الله لحسن معاملتى لجميع سكان الجبل ولأن الحكومة لا يمكن أن تجد لنفسها مرشداً من أهل الجبل !! وسأبقى ساكنة فى هذه الحكومة !! » .

- «الزمن لا أمان له ! » .

- «سعدية التى تبحث عنها الحكومة لتحقق معها باعتبارها زوجة ثانية لخرابة قد تفيدهم فى شىء ماتت يا حسن وطلعت لها شهادة وفاة وتم دفن جثمانها فى مقبرة العائلة ألم تعلم بهذا يا حسن ؟! » .

- «لا والله فكيف حدث ؟! » .

- «ما أكثر من يمتن فى الجبل من نساء ليس لهن فى الأصل شهادة ميلاد !! تخيرت واحدة منهن أعطيتها اسمى وصفاتى !! ماتت فى هجمة للحكومة على سفح الجبل !! الحكومة وجدت من مصلحتها أن تقتنع فاقتنعت !! » .
- يالك من جبارة ! » .

- «لست جبارة ! إنما أعرف كيف أشغل مخى عند اللزوم !! » .

ارتفعت حواجبى من الدهشة : تحلف اليمين يا بوى أن شعر حواجبى رقص .
تيقنت لحظتى أننى أمام واحدة أخرى لم يسبق لى معرفتها من قبل . نعم يا بوى هذه ليست أختى سعدية بل هى شخص آخر لم تكن نفهمه ، ولا هى نفسها كانت تعرف نفسها من قبل يا خال ..

رأيتنى أقف أمامها كالتلميذ المؤنب . أخذت أشروح بيدي متلعثما :

- «ولكن ! كيف يا أخت السعد ؟ كيف يعنى تعيشين وحدك فى ١٠٥ متفر ؟ وكيف تتصلين بالحياة ؟! » .

وه يا خال من هذا البريق الذى لمع فى عينيها والذى كبت أجرى من أمامه هاربا لولا أنها كانت ممسكة بكتفى بقبضتها القوية ، وتضغط قائلة :

- «تجيتنى كل الجرائد هنا !! والرايو والتليفزيون يشتغلان بالبطارية السائلة كما أننا نولد الكهرباء هنا !! قرأت وسمعت ورأيت مقتل جميع أعدائى بأسمائهم وصورهم !! الواحد منهم كان يجد نفسه فجأة تحت عجلات لورى أو مسر يا

برصاصتين وسط فرح من أفراح أسرته أو مستدرجا للقبض على عصاة أو صفقة حشيش وهمية فما أكثر الطرق التي يمكن أن تتخلص بها من أعدائك يا حسن بأرخص التكاليف !! لكنني بعد الإنتقام ممن حكموا على بالترمل في عز الصبا وعلى أولاد زوجي باليتم في عز الصغر قنعت بذلك ونذرت عمري لعبادة الله وعمل الخير !! ألم تعلم بأنني طلعت الحجاز ؟ نعم طلعت باسمي الذي يعرفني به الجميع : الشيخة سعادة ! هناك قرأت الفئان للأمراء والمشايخ صدفة أول الأمر ثم ذاعت شهرتي لأنني كنت أجيد قراءة شخصيات الناس وأنسبها للفئان !! وفي الدير القديم هنا وجدت كتبا كثيرة في السحر وحساب النجوم وتفسير الأحلام احتفظ بها خرابة في صحارة كبيرة !! صارت سلوتي ليل نهار بمعاونة بعض المشايخ والفقهاء الذين جئت بهم يعيشون معي هنا فأصبحت بفضلها ويفضلهم شخصا آخر !! » .

القشعريرة ركبتي ياخال ! لم أعد قادراً على التحرك من مكاني ؛ لم أعد أعرف إن كنت مسحوراً بأختي الملكة ، أم بسحر هذا القصر المسحور . شعرت بأصابع الملكة وهي تداعب ذقني التي تعلقت بالسقف :

- «هذا القصر كله كان مدفونا تحت الرمال ويقول أحد أصدقائي الفقهاء إنه كان في الأصل مقبرة أحد الملوك القدامى ! أما هذا البستان فكان صغيرا ووسعه خرابة وأحاطه بهذا السور !! من حسن الحظ أنه ليلة دخلتي أطلعني على سر هذه الكراسي بأنها من الذهب !! » .

على سبيل المزاح قلت لها :

- «أما فكرت في الزواج ياأخت ؟! » .

ترقرقت الدموع في عينيها :

- «لم أجد من يملأ مكان خرابة في قلبي !! قطعت روجي !! لم أعد أشعر

برغبة فى حضن الرجال بعد ما زهدت فى كل المباحج !! كلما هاجت عواطفى نحو
وجل ظهر خرابة ووقف بيننا ! إنى أن أخونه أبداً لأنه سيظل يعيش معى طول
عمرى ! ولكن فضلك من هذا وتعال تتعدى ! أين هليل ؟! » .

تذكرته فتلقت مذعوراً ؛ مضيت خارجاً أبحث عنه وهى من ورائى . إستندت
على سور الشرفة وسط مظاهرة الكلاب وناديت : يا هليل . وكان هو قد سرح مع
عم عرندس يتفرج على أشجار البستان وزهوره ليتركنى مع أختى نففض
بالأسرار على راحتنا . ها هو ذا أت يرفل فى خلقاته التى علاها الغبار فصار
ينفضه عنها بضرب نفسه على كتفيه وصدره . استقبلته الملكة بحرارة شديدة
وخجل أشد . مضت بنا فى الشرفة الجانبية فإذا هى ممتدة بحذاء القصر تلف
حوله ساير داير ، والأشجار المتنوعة ترمى بأقرعها وأوراقها وظلالها على طول
الشرفة صانعة تندة إضافية يتمنى المرء البقاء تحتها مدى الحياة متفرجا على
جميع أنواع الحيوانات الأليفة والطيور وهى ترتع فوق العشب والحشائش وفى
البحيرات والقنوات المصنوعة فى الأرض بهندسة وحرفنة . دخلنا إلى البهو من
باب جانبي فى الخلف ، عبر ممر مفروش بالسجاد فى أركانه مناوئد عليها تحف
ومساخيط . من البهو عبرنا إلى قاعة كبيرة فيها ترابيزة مائدة برخامة بيضاوية
الشكل وأرجل مخروطية مشغولة بالنحاس والفضة وقعداتها من الخيزران
الشبيكة. هناك بوريه ضخمة بعرض الحائط فوقه رخامة ومراة ضاعفت من عددنا
أظهرتنا كمدعويين فى حفل كبير تقيمه الملكة . سحبت الكرسي لأجلس عليه متوقعا
ثقله فإذا هو فى خفة الهواء . ثم إن العبيد أخذوا يتوافدون علينا بالأطباق التى لم
أر لها مثيلا فى الأسواق . بعد ذلك جىء بالشاى الأخضر - عشنا وشفنا - ثم
خراطيش كاملة من علب السجائر المكن من أشهر الأصناف . لا ، لا ياخال ،
لست أصدق أننى فى الجبل ؛ فكما أن أختى سعدية حلت محلها هذه الملكة فإن
الجبل هو الآخر صار قصرا من قصور ألف ليلة وليلة ..

ألمحت لنا الملكة إلى أن كل شئ هنا وغير إذ أن الزيارات ترد إليها كل يوم من كل مكان حاملة ما ليس يعرفه الناس في البلدان ، فكل زائر لمعشوق له في الجبل يحرص دائما على نادر الأشياء وعزيز الأصناف وثمان الهدايا . ألمحت كذلك إلى أن ماكينات المياه ومواتير توليد الكهرباء تملأ الجبل داخل أبار محفورة لها خصيصا في أعماق الأرض ومغطاة بأغطية ثقيلة متحركة لينكتم فيها صوت المواتير تمتصها بطن الجبل فلا يشعر بها . حاجة تهوس يابوى ..

طاف بنا صوت الملكة :

- «تشوفوا مزاجكما الآن أم تتمددا قليلا ؟» .

في صيحة واحدة خرج صوتي وصوت هليل :

- «تشوف مزاجنا بالطبع !» .

أشارت بيديها النحيفتين الجميلتين أن قوما ، فقمنا ، فمشيت أماننا تتبختر كالأوزة . خرجنا من قاعة المائدة عبرنا البهو إلى الممر الذي دخلنا منه ثم هبطنا سلما في نهايته ؛ مشينا فوق الحصباء نحو بناية ملحقة بالقصر محندقة ومخفية بين الأشجار . قلت : «قصر آخر ؟» . قالت :

- « هذا هو القصر الحقيقي ! ما كنا فيه مندرة الاستقبال للزوار . أما هذا

القصر فهو المريض ! المسكن ! متى ما دخله مخلوق لا يستطيع أحد أن يهتدى إليه !!

اقشعر بدننى :

- «كسبنا صلاة النبي !» .

ضحك هليل فضحكت هي الأخرى ، مضت تصعد بضع سلمات ! فتحت بوابة قصيرة القائمة كبوابات السراييب والحانات القديمة ؛ قالت : «بسم الله الرحمن الرحيم ! تفضلوا !» . ثم تناولت عصا طويلة من جوار الباب رفعتها دفعت بها

السقف دفعة واحدة فانزاحت عن السقف طارة خشبية مشغولة بنقوش تقوم على أربع أسياف من الحديد تبيت فى مجار لها . تدفق ضوء الشمس ؛ فإذا نحن فى مربع ضيق كالمربعات التى تسبق قاعات الأضرحة غير أنه مفروش بالسجاد الفخم وبه مقاعد من الرخام مثبتة فى الحوائط ، وفى المواجهة باب بدرقتين من النحاس المبطن بخشب البندق . دفعته برفق فانفتح عن طاقة من النعيم : باحة عريضة جدا بها أسرة تشبه الكراسى ، وكراسى تشبه الأسرة ، كلها غارقة فى التاموسيات والملاءات والستائر ذات اللون السماوى بدرجاته المختلفة . هنا ياخال كبس علينا النوم فجأة ؛ فابتسمت الملكة وهى ترانا نتنقل من سرير إلى سرير على سبيل التجريب إلى أن استقر كل منا على سرير وغاص فى غيبوبة رائعة ، ثم سحبت الباب خلفها برفق وخرجت . وحينما عادت لتوقظنا كنا نظن أن خمس دقائق فقط مرت ؛ ولذلك أصابنا الذهول عندما أنبأتنا الملكة أن ظهر اليوم التالى قد أتى وأن الغداء فى انتظارنا .

كان فى نيتى أن أبقى بجوارها فى هذه الجنة لأصبح من رجالها بدلاً من الأغراب ؛ لكنها غمزتنى بنظرة دافئة :

– « لا تتعجل الأمور ! وجودك بجوارى خطر علينا كلينا ! ووجودك فى مصر خير لنا معا ! فامض على بركة الله تصحبك دعواتى ! وأما فكرة الزواج فدعك منها الآن ! دعنى أخطط لمستقبلكما أهوى !! » .

وفى طريق عودتنا من الجبل كنت كمن قام برحلة إلى دولة أخرى على شمال السماء حققتنى بدم جديد فكأنتى قد صرت أنا الآخر شخصاً جديداً كل الجدة ياخال .

ولد

ذمة ودين يابوى أننى لا أستطيع وصف حبى لصاحبى هليل . إنه العقل الذى يفكر لى وبدير أمورى نون أو جهة ؛ حويط غويط كنهر النيل . فى اليوم التالى لعودتنا من الجبل سألته على سبيل المزاح :

« ألم يعرف الحب طريقه إلى قلبك يا هليل ؟! »

وكنت لا أزال متأثرا بموت حبيبتى التى أحرقت نفسها لما عرفت أننى رأيتها فى وضع غير مستور ، ولكن هليل ظهر عليه كأنه لم يسمع سؤالى ، فأعدته عليه :

« ألم تعرف الحب أبدا يا هليل ؟! »

فأضاء وجهه بإشراقة تاصعة ؛ وشملته رجفة كأنى ضببطته فى حالة عرى . ثم راح يهمهم كأنه يكلم نفسه :

« عرفتة يا بو العم إن حبى هو الحب المستحيل ! إنهم فلست أرضى بأقل منه لكن الحبيب يسجن قلبه فى مكان بعيد لا يعرفه أحد !! لا أظن أن فى الدنيا حبا كحبى يابو العم ! حبكم هذا لعب عبال أما حبى فهو الحب الحقيقى ! وهو يشاغبنى يابو العم ! كلما تخيلته قريبا إبتعد ! كلما اقترب اختفى !! » .

وزفر زفرة حارة . عاجلته :

« وهل أنا أعرف حبيبك يا هليل ؟ ! هل هو من البلاد أم من مكان بعيد؟! ولماذا لم تكلمنى فيه من قبل مادمت هكذا محروقا ؟! » .

فيشع لى نظرة حرت فى فهمها يا خال ! نظرة خيل لى أنها تتهمنى بالغباء ، كأنها تقول لى : ألم تره يا أعمى ؟! ألم تشعر به ؟! . سرح فى الجبل ،

سأنته :

- « وهل يعرف أنك تحبه ؟؟ »

إزدادت رجفته وأرتبك - شوح بذراعيه :

- « دعنا الآن من أمور الحب والغرام بابو العم وتعال نتكلم فى المفيد !! » .

قلت بشئ كثير من الغضب الدفين :

- « دعنى يا هليل ! لم يعد يهمنى شئ بعد الذى حدث بسببك !! نذب هذه

البيت فى رقبتك يا هليل !! » -

قال بحدية غريبة :

- « إذن فمنى لله ؟ لقد أردت أن أنقذك من الوحل قبل أن تجلب لنا العار !

ولكن الله أراد ما أراد ! فلا تحملنى الذنب ! لا تكن أنت وضميرى وقلبى على يا

بو العم !! كفانى ما أنا فيه يابوالعم !! » .

وأخذ إلى صمت مهموم ، فأيقنت أنه متأثر جدا . كانت شمس الضحى

تفرش نفسها فوق البلدة فنزعت عنها كل الأغطية وألبستها ملاءة من لهب . نظرت

فى ساعتى ! قلت إن الوقت يسمح لى يجمع خلقاتى والتوجه إلى محطة صدفا

للحاق بقطار الظهيرة . فإذا بهليل يلوح بأصبعه علامة النفى :

- « لا ! لا سفر اليوم يابو العم ! وراعا شغل كثير !! » -

- « شغل ماذا ؟! » -

- « لا تستعجل ! » -

واستأنف صمته ؛ فمضينا نحو دارهم نتطوح من شدة الرهق ..

أنهى هليل صلاة المغرب وتريع بجوارى يتعمم بختام الصلاة ويمسح وجهه

بكفيه . ثم سحب من حيب الصديرى دفترا مطويا من دفاتر التلاميذ يطل منه فلم

كوبيا . فتحه على صفحة مرشقة بنفس أشبه بنبش الفراخ ، صار يحسب

مستخدما أصابع يديه . أخيرا قال :

- « شف يا بو العم ! فلوسك عندي كبرت ! كبرت ! ربنا بارك فيها فأصبح القرش الواحد مائه !! » .

- « الحمد لله ! البركة فيك يا هليل أنت مبروك من يومك ولكن ما الداعى لأن تقول هذا الآن ؟ هل صدر منى شئ ؟ سألتك عن الحساب ؟! » .

- « لا يا بو العم ! الملكة ربنا يحميها رسمت لنا مشروعاً ! أصل الحكاية أنني كنت أتعشم من مشوار الجبل أن نتكلم فى هذا المشروع لكن موت البنات حرقاً عطلنى عن الكلام تشاء مت !! الموضوع وما فيه أن الملكة دائماً تسألنى عن أحوالك فأحكى لها ما يطمئنها فأوصتني أن أستقل هذه المكاسب فى مشروع لم يكن يخطر لى على بال !! شف يا بو العم ! أعوذ بالله من قولة أنا وأنت والملكة سنكون شركاء فى عملية مريحة : الملكة ستدخل باسم أولاد خراية ! المشروع هو ماكينة للطحين ! نعم يا بو العم ! البلد كلها والكفور من حولها تذهب مشواراً فى سفر طويل لكى تطحن قمحها فلماذا لا يطحنوه فى بلدتهم بنفس الأجر ؟ ! أولاد خراية نصيبهم فى الشركة قطعة أرض شرقى البلد ليس منها أى منفعة لهم فهى قريبة من الجرن ويقام فيها قمائم الطوب بالمجان ! سنبنى فوقها داراً للماكينة ! أما الأسطى الذى سيسفلهها فموجود والملكة تعرفه !! مع ماكينة الطحين ماكينة لتبييض الأرز فما رأيك ؟! » .

- « زين والله زين !! كلام كالعسل !! » .

- « الحمد لله ! يبقى المشروع الذى تم بالفعل وهو يخصنا وحدنا !! تصرفت فيه من تلقاء نفسى : اشتريت ماكينة للرى وماكينة لدرس القمح وتزيتته !! موعد وصولهما بقى عليه يومان !! سنسافر ومعنا الأسطى حامد العقدة إلى مصر لشراء ماكينتى الطحين وضرب الأرز !! » .

- « الله يفتح عليك يا هليل ! أنا باق معك إلى ما تشاء !! ليس ورائى عيال

تبكي فى مصر ! على بركة الله ! قم بنا الآن نحتفل بهذه الأخبار الطيبة !! » .

- « ما شبت من الاحتفالات يا بو العم ؟ »

- « نفسى انفتحت !! » .

- « ريتا لا يجعلنا صدادين للنفوس المفتوحة ! قم بنا يا بو العم !! » .

- « عد بنا إلى الجبل !! » .

= « لا يا بو العم ! كله إلا الجبل ! ما كل مره تسلم الجرة !! مرواح الجبل شغلانه طويلة معقدة دك منها الآن !! ولا تنسى أن الملكة ترسم لك مستقبل مزهزها وأوصتنى أن أشككك حتى لا تجعل صورتك مهزوزة فى نظر الناس ! أنت من الآن من عليه القوم المحترمين فى البلد فكن هكذا فعلا !! سنحتفل فى وسط دارنا هذه ! كل شئ موجود والحمد لله !! » .

خيراً ما أراد . لطشنا هواء وسط الدار المنعش فرسمنا دارا اللماكية على الأرض بخطوط الأصابع فوق التراب : هذه حجرة العدة لابد أن تكون مستطيلة هكذا لأن سيرا جليداً طوله عدة أمتار سوف يلتف على مجموعة من التروس والطارات المتجاورة فيبدوران الطارة الكبيرة تدور تروس جوانية ، وبدوران هذه التروس تدور أخرى ملتحمة بورانا عكسياً ، وهكذا تمضى مجموعة الطارات والتروس من أول الحجرة إلى آخرها حيث يوجد القادوس فوق قاعدة خشبية تبني له تلتحم بسقف حجرة العدة حيث يقف أصحاب الحبوب الجارى طحنها ليدلقوا فى القادوس حبوبهم . رسمنا قاعدة الأسطى ، وغرفة استقبال الزبائن بحيث تكون كبيرة ، حددنا موضع الميزان الطليعية ، ومن الذى سيشرف على وزن الحبوب قبل طحنها لتحديد سعر الطحين إذ لابد أن يعرف القراءة والكتابة حتى يتون الوزن والسعر فى قصاصة ورق يتسلمها صاحب الطحين ليسلمها للأسطى فيرشقها فى سلك معقوف بجواره ، وفى نهاية اليوم تتم مراجعة هذه القصاصات على مابون

نفي الدفتر فتعرف خطنا. -هنا قررنا في صبيحة واحدة أن يكون والد هليل هو المدير المسئول عن شغل الماكينة من الألف للياء ، وأن يتدرب أخى حسين تحت يديه بعد خروجه كل يوم من المدرسة . أما ماكينة الري وماكينة الدراس فيتولاهما هليل بنفسه ، وأن تبني لهما حظيرة ملصقة بدار الطحين . حتى الخفير الذى سيتولى حراسة ماكينة الري أثناء شغلها ، والأسطى الذى سيتولى ماكينة الدراس اخترناهما فى نفس القعدة المباركة بل وحببنا أجر كل واحد يقوم بعمل بمن فيهم هليل وأبوه ..

فى الصباح توجه كل منا على طريق ، واحد لشراء الطوب والآخر لاختراء البنائن . لم نضيع دقيقة واحدة . ويوم جاء مهندس التركيب وعماله لتركيب الماكينة كان يوم عيد على البلدة كلها : المزمار البلدى زف للماكينة من أول دخلة البلد إلى أن تم التركيب ثم استكملت السهرة فى الجرن أمامها على ضوء الكلويات . انطلق الكنادى فى بلاد الناحية كلها ينادى على خدمات أبى ضب وشركاه ، فطريت لذلك غاية الطرب يابوى ..

على حس هذه الدعاية يابوى مكنت فى الليلة حوالى ثلاثة أشهر أقرب نجاح شغل ماكينتى الري والاراس ، وشموخ مبنى دار الطحين ، واللاهتة الكبيرة يعرض الباب مكتوب عليها : أبو ضب وشركاه ..

يوم سفرى من الصعيد هذه المرة كنت بالفعل وجهها من وجوه عليّة القوم حين يسافر : تحف بى الركائب من كل ناحية ، الأعيرة النارية تزغرد حول رأسى تحية وترهيا . سبقنى إلى المحطة من قطع تنكرة القطار . ظلت ذراعى تلوح من شباك القطار مسافة طويلة فوق حشد من المودعين . لحظتذاك يا خال نقت حلوة أن تكون من وجوه القوم ، أن تكون ذا عزوة وسلطة . لحظتذاك يا خال قررت أن أمعنى فى هذه الطريق حتى نهايتها بكل نفس ذائقة الصلوة . سوف لن

يبيعدنى عن هذه الطريق عائق مهما كان صعبا - آمال يا بوى ، العز حلو يا خال ..
اللى تعرف بيته اقتله ، الآن فحسب فهمت معنى هذا المثل : فكل شئ وكل
شخص فى الدنيا له سعر وثمان عليه أن تدفعه لتبلغ ما تريد ، والعقبة الوحيدة
أمامك هى قلة المفهومية فحسب ، والمفهومية هى أن تعرف السعر المناسب للرجل
المناسب فى الموقع المناسب ، الثمن الكفء للعمل الكبير - إعرف هذا وحده جيدا ،
وانكل على الله يا بوى -

كسومي

استوى القطار على سكته يشق أرضا زراعية معظمها فاحل جاف . فلما استويت بدورى قاعدا على الكرسي فوجئت بثنى محاط بمئات من الناس فكأننى كنت نسييت أنى فى قطار . وقعت نظرتى عليه قاعدا على الكرسي المواجه لى ، ملأتى شعور بالزهو يا خال إذ أننى راكب فى الدرجة الأولى . تفرست فى الرجل فإذا هو الآخر يتفرس فى . أخذت أفكر أين رأيت يا بوى ؟ أين رأيت يا بوى ؟ ثم أننى ميلت عليه وعلبة السجائر تسبقنى إليه :

- « مرحبا ! إياك أن تكون صعيديا مثنا ! » .

ابتسم فى مودة عن أسنان ذهبية ؛ تناول السجارة شاكرا :

- « منذ مدة طويلة لم نرك ! » .

صحت فى الحال :

- « الحاج قدرى ؟ ويا مرحبا يا مرحبا ! »

ضحك لأنى تذكرته بعد وقت طويل . ضحكت أنا الآخر ؟ فالحاج قدرى أشهر من نار على علم فى حى الجمالية ، له دكان كبير فى خان الخليلى يمتلئ معرضه بالمشغولات الذهبية والتحف الثمينة ، يتاجر فى العاديات كما تقول لافته دكانه يعنى يتاجر فى الآثار برخصة ؛ وبكانه الكبير يستقبل فى اليوم الواحد مئات من السياح جاوا له خصيصا بصحبة المرشدين السياحيين . هو الآخر يسافر لهم بين حين وحين ، ويراسلونه ويراسلهم ، ويعتبر من أغنى أغنياء خان الخليلى ومصر كلها ، وبما أننى أضبطه الآن فى قطار الصعيد فقد تأكدت أن هذه

العاديات هي الاسم الذى يخفى وراء كلمة الآثار : ولابد أن مشواره اليوم كان
لمقابلة بعض مهريى الآثار فى بلاد الصعيد وما أكثرهم . قال مبتسما وهو يضع
السيجارة فى ميسم ذهبى :

« أظن أن اسمك حسن ! »

« خدامك ومحسوبيك حسن أبو ضب ! » .

« جلسنا معا كثيرا عند الحاج أحمد نوار الدين السننى ! »

« وجلسنا أكثر فى قعدة المطار فى فاطمة النبوية ! »

« بالضبط ! هل أنت من صدفا ؟ » .

« أنا من كوم سعيد ! هل أنت قادم من سوهاج ؟ »

« كيف عرفت ؟ »

« توقعت ! فأهل العرابة لهم أصدقاء كثيرون فى القاهرة كلهم لا يتخيرون

عك !! »

« الله يكرمك ! » .

« أنا أيضا أعرف رجالا كثيرين من العرابة ! »

« ربنا يجعلنا من بركاتك ! نظرة !! »

« أنت تأمر !! »

« لماذا لا تزورنى فى الدكان ؟ »

« ذلك فى بالى ! كل شئ بثوان ! »

« عندك شئ ينفعنا ؟ » .

« عندى الكثير فضلة خيرك ! »

« خش علينا يا رجل !! »

« لا تؤاخذنى ! أنت وأنا أولاد أصل ! يعنى لا نعرف إلا الأصل ابن

الأصيل !! الخسيس لا أحمله إلا أعرفه ولا أقره !! كل ما عندى أصيل فى أصيل!! التقليد لا !! » .

- « الفراسة أن تعرف الفرق بين الأصيل والخسيس ! لأن هذا يشبه ذاك الخالق الناطق !! » .

- « كثرة الحزن تعلم البكاء يا أبا الحاج ! وهذه شغلتي وشغلة أهلى وأجدادى من قديم الأزل ! تستطيع أن ترينى ما نشاء لأقره لك !! » .

- « أنا فى انتظارك فى الدكان يوم الأحد القادم ! أنا لا أشتغل يوم الأحد لكنى أفتح المكتب من الشارع الخلفى وأجلس فيه طول النهار لمقابلة أمثالك من الضيوف المهمين ! لا تحمل هم شئ ! القهوة تحت المكتب مباشرة تطلع لنا الحجارة وكل المشاريب كما نهوى وكل شئ موجود !! »

ثم دس يده فى جيب السترة الداخلى فأخرج علبة سجاائر ذهبية . ثم ظهر عليه أنه تذكر شيئاً ، فأعادها وأخرى علبة ورقية فتحها فإذا هى ملأنة بسجاائر محشوة بالحشيش . أشعل لى وله بالقداحة الذهبية ؛ ورفع أصابعه الطويلة الملأنة بالخواتم الذهبية الغليظة فسحب الأنفاس المتلاحقة . وكانت البذلة الفخمة التى يرتديها - رغم اتساقها على جسده - غير لائقة عليه بالمرة ؛ فلامح وجهه وشاربه الضخم وأسنانه وخواتمه الذهبية وتطجينه فى الكلام كل ذلك يشى بجلباب بلدى ولباس بحجر وبكة بشراريب. ضحكت فابتسم ظنا منه أن تعميرته سرها باتع إلى هذا الحد السريع .

حرفنة

تلقتانى الحاج أحمد نوار الدين السنى عند البوابة بترحاب شديد ، فتح لى أحضانه :

- « إزيك يا عكروت ! جئت فى وقتك ! ابن حلال والله طول عمرك يا عكروت !
تعال !! » .

وقادنى إلى البهو فالمر فالجرة العلوية وهولائنى يردد :

- « ياه ! غير معقول والله ! أن يطلب الواحد شخصا فيراه فى الحال ! كنت سأضطر للبحث عن ولد من الملاعين الذين كبروا هذه الأيام ربنا أعطاهم ! الله يسهل لعييده لكن الواجب واجب !! أين كنت يا ولد يا عكروت كل هذه الغيبة ؟ فى الصعيد ؟ »

قلت : نعم . قال :

- « الصعيد كله سيكون عندنا فى أول الشهر ! هل تذكر ستك الشيخة سعادة التى أوصتني بك خيرا ؟ عزماها على العشاء بطلب من شخصية كبيرة جدا عضو بمجلس قيادة الثورة ومستشيخ ويموت فى أمثال الشيخة سعادة !! أول الشهر لابد أن تكون معنا خل بالك ! إزيك يا ولد يا عكروت ؟ محمد بك أبو شناف ينتظرك تصور أنه سأل عنك ؟ رجل فيه الخير والله !! هيا !! إخلع هبومك هذه والبس لبس الشغل !! لابد أن تتكفل الليلة بمحمد بك أبو شناف تعدل رأسه على الآخر ! خش خش !! »

فعلا يابوى ؛ محمد بك أبو شناف ابتهج لما رآنى ، لا أدرى لماذا بالضبط !
صاح بصوت جهورى وجهه باش :

« أهلا يابوى على ! عاش من شافك !! »

ومد يده الطويلة نحوى فتلقفتها مسلما بحرارة :

« أهلا سعادة البيه ! واحشنى ! »

كان يرتدى جلبابا من الحرير السكروته الأبيض ، تحته صديرى من نفس
القماشة . عصاه الأبنوس مركونة بجواره . لاحظت وجود طبلية صغيرة مشغولة
بالأرابيسك موضوعة أمامه ، فوقها عدد من القطع الأثرية الفاتنة . إرتبك قليلا
حينما رآنى أحرق فيها ، حاول أن يتقبنى بنظرة تكشف له عن أعماقى ، فأسدلت
الستار على عيني مدعيا العبط على الهباله ، ومضيت أستحضر العدة ؛ فإذا
بالحاج السنى يلحقنى بها قادما من المطبخ. دخل على محمد بك ومكثت أنا فى
وقفتى أعيد ترتيب قطع العدة لأقوم بتنظيفها وتعسيل الحجارة فإذا بى أسمع هذا
الحوار يا خال :

قال الحاج :

« هل ستسافر أنت بنفسك يا سعادة البيه أم أن سمسارا سيأتى ليأخذ
البضاعة من هنا ؟ »

فقال محمد بك :

« ربما أسافر بنفسى ! ولكن اطمئن من هذه الناحية !! فسواء سافرت أو لم
أسافر فعندى الأشخاص الذين يقدرّون قيمة هذه الأشياء عن خبرة ودراية ! إلا
أن وجهة نظرى أن ما يأخذه السمسار نحن أولى به ! ليس هناك أى مشكلة ! لو
عندك أضعاف هذه القطع هاتها ولا يهكم !! وأمامك طريقتان للاطمئنان : إما أن
تبيع لى من هنا وتقبض حَقك فى الحال وفى هذه الحالة تقبض بالعمله المحلية !!

ورأى أن تتركى أسافر لأتصرف هناك بأسعار أعلى وعملة صعبة وفى هذه الحالة
أخذ نسبة خمسين فى المائة وأقبضك بعد العودة من السفر !! »

قال الحاج السنى :

- « صراحة رينا ! أنا أفضل البكاء على رأس الميت ! فهذه القطع ليست
ملكى ولو كانت ملكى فما بين الخيرين حساب !! أما وهى ملك ناس غيرى وما أنا
إلا وسيط يأكل عيشا من ورائها فأتأ ملزم أمامهم برد البضاعة أو دفع ثمنها دون
أجل !! فمعذرة إكرامى لك سيكون فى أمرين : السعر المستريح أستغنى فيه عن
عمولتى ! وضمان أصالة البضاعة !! إنها قطع أصلية مائة فى المائة تأخذها وأنت
مغمض العينين !! لن أذكرك بأننى خبير يعتد برأيه ! إنما القطع نفسها تقول أنا
أصلية واست فى حاجة لخبير !! » .

قال محمد بك :

- « ليكن ! يا دار ما دخلك شر انتفق إذن على الأسعار الآن ! أعطيك م' معى
وأبعث فى طلب الباقي من البيت ! وربما استدعى الآن صاحب مال يدفع ويشيل !
أليس يهكم دفع الحق فحسب ؟ إذن فسأريحك تماما !! » .

قال الحاج السنى :

- « أفادك الله ! عدك العيب ! شف يا سيدى ! هذا تمثال لرمسيس الثانى
من المرمر الحر ! ثمنه لك أنت وحدك وحتى لا تقاصلنى : مائة وخمسة وسبعون
ألف جنيه ! أنت تبيعه بضعف ذلك وأنت مستريح بالعملة الصعبة !! هذه تسعيرة
معروفة لا تنقص مليما واحداً ! التمثال نفسه إذا كان من الذهب الخالص فيضاف
إلى هذا المبلغ قيمة الذهب بالميزان ! وإذا كان من الفضة ينقص نصف المضاف !
وإذا كان من البرونز ينقص ثلاثة أرباع المضاف ! فإذا كان من الحجر أو الجص
أو الفيروز فإنه يبقى على سعره الأول !! وهذا رأس نفرتيتى من الذهب الخالص

ثمنه مائتا ألف لك وحدك!! وهذا العجل أبيض من الرخام ثمنه مائة ألف !! وهذا عقد من الفيروز المطعم باللؤلؤ ثمنه ثلاثمائة ألف ! صندوقه وحده تحفة لا تقدر بمال ! الواضح أنه عقد ملكي ! لأن كل حبة من حباته - على دفتها - محفور عليها وجه آلهة الخير !! على فكرة ! كنت أنوى ابخاره لابنتي لكتي خشيت أن ينكشف أمره فنروح في سين وجيم ! أنظر إلى ما فيه من أبهة وفخامة وفن ! شئ يجبر العقل !! لو كنت منك لاحتفظت به لزوجي فأتت بمالك من حصانة تستطيع أن تحمي صدر زوجك !! » .

قال محمد بك :

- « سنرى ! سنرى ! سأصرف ! »

- « عندي لزوج سعادتك أسورة من نفس النوع مع حلق وخاتمين !! » .

- « هاتها فوراً !! »

- « هي ليست تحت يدي الآن ! سأطلبها من أصحابها حينما أقبضهم

فلوسهم !! » .

- « يبقى شئ : هذه الأسعار أليس من الممكن هزها قليلا حتى يكون لنا من

ورائها نصيب ؟! »

- « وشرف امرأتى ! وينتى التى أتمناها من ربنا ! وحياة محمد بك وعشرتنا

الطويلة ! وحق صلاتى وصومى وحجى والقرآن المجيد هذه هي تقديرات أصحاب

الشأن بالميم وأنا سأخرج من المولد بلا حمص !! لا تنس أن المبالغ توزع على

كتائب من البشر لا حصر لها كلهم شارك في إيجادها وتهريبها وحراستها وما

إلى ذلك ! لكن المصلحة واحدة ! أصحابها جهلة أغبياء لا يتحاورون إلا بالرصاص

خصوصا في هذه المسائل ! وهم أوعى منك ومعنى ومن كل الخبراء ! إنهم جبابرة !

والمؤكد أنهم الآن يراقبون خط سير البضاعة نون أن نراهم !! ولو شعروا أن في

الأمر مكيدة مدبرة فإن أى خارج من هنا سيلقى حتفه فى الحال !! ربنا يكفينا شرهم !! » .

دخلت عليهم بالعدة فوق الصينية ، وضعتها فى الركن المعتاد . لم التفت اليهما ، أذن من طين وأذن من عجين ، السرعة كانت الحجارة مرصوفة وجاهزة. انتبه محمد بك أبو شناف فتحسس المكان حواليه ثم رمى لى بقطعة حشيش تزيد عن ربع أوقية من صنف لم أر مثله فى حياتى ؛ فغطيت الملل كله بتعميراته عريضة . ثم دارت الجوزة بالصلاة على النبى .

محمد بك أبو شناف يا خال كمن يشرب فى آخر زاده ، شربه يحرق دمي يا خال ، فأنا المسك بالجوزة ألقى أمامه لتكون البوصة فى مستوى شفثيه ؛ على أن ابقى هكذا طويلة لا أتحرك ريثما يشرب هو على أقل من مهله . يشد شدة ، ثم ينتظر برهة ، ثم يقطع ثم يشد شدتين سريعتين يخرج الدخان على أثرهما مندفا بغزارة من منخره ، بعدها يتلمظ قليلا وينفخ فى البوصة كما ينفخ العامل فى الميكروفون عند تجربيه ثم يبدأ فى الشد الهادئ ، السحب ، الذى يزداد قوة وسرعة شيئا فشيئا لينتهى بالسحبة الأخيرة التى يشتعل منها الحجر فترتفع راية النار ، فأصبح أنا على سبيل التحية : قشطة . عندها يترك البوصة واضعا كفه على فمه وأنفه يعتقل بهما اندفاع الدخان ليرده من جديد إلى منخره ليستمتع بوجوده فيها أطول مدة ممكنة . حاجة تهوس يا بوى ..

ها هو ذا ينكس رأسه مندمجا فى تفكير عميق ؛ أحيانا يسحب القلم الذهبى من جيب الصدرى ويروح يدون أرقاما وعمليات حسابية فى نوبة ملحقة بمحفظة جلدية أنيقة جدا ؛ وأحيانا يعيد التقلب فى القطع الأثرية فيما يراقبه الحاج أحمد نوار الدين السننى من تحت تحت بعينه الضيقتين اللتين تشعان بالشقاوة والمرح والثقة المطلقة بالنفس ، وها أنذا أيضا دماغى تضرب تقلب فتتراى لى

أفكار جرنية ترتفع راية اشتعالها فى رأس : هل يأتى يوم يكون فيه محمد بك أبو شناف هذا من زياتتى ؟ وهل أستطيع أن أبيع له بفلوس كبيرة كهذه ؟ لم لا يا بوى ؟ والعملية كلها قلب جامد وشخصية مله هومها ، ولى فى الحاج السنى مثل يحتذى يا بوى فهو بمنظره هذا لو عرضناه فى سوق الجمعة بثلاثة مليمات فلن نجد من يشتريه ، ومع ذلك فما هو ذا يعيش فى قصر لا يملكه رئيس البلاد ، ويجالس أكابر القوم ، وينطق الأرقام بجرأة وبساطة كئنه يقول : تشرب شاي ؟ ولا يبدو عليه أنه يفعل شيئا غير طبيعى . شف يا خال ، الثقة بالنفس أولا هى السكة التى يمشيها الناس نحو الثقة فيك . هذا ما تعلمته الليلة يا خال ويجب من الآن أن أتدرب على ذلك . نعم ، كيف اذن ساكون معلما وحاجا وعضوا فى البرلمان باذن الله إذا لم تكن شخصيتى نفسها على قد الثوب الذى سترتيه ؟ والله لأقعلن ، الحاج أحمد نوار الدين السنى ليس أجدع منى فى شئ ، ولا حتى هذا المحمد بك أبو شناف فإن كان متعلما فى المدارس فالعقل لا تبنيه المدارس وأكبر شهادة هى المأخوذة من كلية الحياة الدنيا يا خال . إن عالم الخريشة الذى التحقت به فى سن المدرسة يمنحنى الأوسمة مادام اللصوص والبلطجية والفتوات هم السائدون . ليس فى هذه المدينة شئ يسمى الأصل يا بوى ؛ أصلك وقتك ، فالناس هنا لا يهتمها معرفة ابن من أنت ولا من أى أصول عريقه تنحدر ، إنما يهتمها ماذا أنت الآن ماذا تملك ماذا تلبس ماذا تأكل كيف تسكن كيف تركب إلخ . وأنا بحكم دراستى فى الشارع وفى السجن وفى العراء عرفت جيدا كيف يمكن أن يحترمك الناس يشليون الأرض من تحتك على رؤسهم : سأتقمش كعمدة أمريكا نفسه ، سأعطى البقشيش كلما تيسر ، سأعطف على الناس ، سأضع على لسانى كل طيب من القول . صحيح أن هذا ليس سهلا يا بوى ، والإنسان لا يكون ما يريد بمجرد ما يريد ، لا يا خال ، الشغلة يلزمها تدريب ولسوف أتدرب فماذا ورائى ؟ ..

وكانى فلاح قرارى بس محمد بك أبو شناف أصابعه فى جيب الصديرى
فسحب ساعة الجيب المشبوبة فى كتينة ذهبية فى لون غطاء الساعة المنقوش .
ضغط على المفتاح فارتفع الغطاء فنظر فى الساعة ثم قال : أعطنى التليفون . فى
ركن الغرفة سماعة تليفون معلقة على مسمار ، ترعها الحاج وضغط على زر فيها
فسمعنا صوت الحرارة عاليا ؛ قدمها إلى محمد بك الذى تسلمها وراح يضغط
على أزرارها الملمومة فى مربع صغير . سمعنا صوت الجرس يرن عند الطرف
الأخر ، قطعه صوت امرأة حاملة طرية النبرات : هاللو .. و ... ه .. قال محمد
بك:

- « مساء الخير يا مدام ! »

إنتعش صوتها :

- « أهلا يا محمد بك ! »

- « إدينى الأستاذ ! »

بعد برهة جاء صوت رجالى ممروض :

- « أهلا محمد بك ! يا للمفاجأة السعيدة ! »

صاح فيه :

- « تعال حالا ومعك فلوس كبيرة ! أمامنا لقمة عيش طرية وحلوسة بإذن

الله!! » .

- « عملة صعبة ؟! »

- « عملة أصعب !! هاها ها .. ي !! »

- « يعنى دفتر الشيكات يتفع ؟! »

- « فى أقل القليل !! »

- « نتكلم من أى مكان ؟! »

- « من القمرة فى مصر عتيقة أنت تعرفها طبعاً !! » .

- « جميل ! حالا ساكون عندك ! من كورنيش المعادى ريع ساعة بالكثير !

عندك شرب ؟ »

- « عندى كل شىء لكن لو عندك الأحسن هاته !! »

- « موافق ! إلى اللقاء ! »

أغلق محمد بك الزر ، فجاء صوت الحرارة ، فضغط على الأزرار :

- « مساء الخير يا حاج ! تعال حالا فى مصر عتيقة ومعك فلوس كبيرة جدا !

إلى لقاء ! » .

ومكالمة ثالثة :

- « مساء الخير يا معلم ! تعال حالا فى القمرة فى مصر عتيقة ومعك

الشنطة، فاهم طبعاً يعنى أية الشنطة ؟! إلى اللقاء ! » .

وهكذا أنهى عدة مكالمات ! ثم تفكر قليلا ، ثم سلم السماعة للحاج السنى

الذى أعادها إلى مكانها ثم نهض واقفا :

- « دقيقة واحدة أشوف أخبار العشاء ! سأوصى الطباخ بزيادة الكمية !

تشرب شيئا فاتحا للشهية ؟! عندى شمبانيا قديمة وعندى نبيذ قبرصى وعندى

ويسكى بلاك أندهاويت وعندى كورفوازيه !! »

انتششى محمد بك مقدما :

- « نبدأ بالشمبانيا قبل الأكل !! »

أومأ الحاج برأسه ومضى . نزل السلم إلى الطابق التحتى مباشرة حيث

المطبخ والطباخ والسفرجية . أخذت أنا أعيد تنظيف الحجارة وتحصيتها

وتفسيلا ، وراح محمد بك يعيد التطرفى القطع الأثرية ثم راح يوزعها على جيوبه

، وعندما أمسك بتمثال رمسيس المرمى وجدتنى أندفع مشيرا إليه هامسا :

- « على فكرة يا أستاذ ! أستطيع أن أتيك بأخيه الذهبى وينفس السعر !

مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه !! »

جحظت عيناه يا خال ! ظل مجلعا فى وجهى دقائق طويلة لا ينطق ! ثم قرب

وجهه منى هامسا :

« من زين ؟ »

« من العرابة القبلية ! نفس الناس الذين يورثون للحاج نوار الدين السنى !

إنهم أقاربى شق الكلوة ! ولى عندهم خاطر كبير !! »

« إذن فهذا السعر مبالغ فيه ! أظننت أنى سأقبل هذه الأسعار ؟! الحاج

يتكلم كما يحلو له ولكن ساعة الحساب لن يقبض منى سوى السعر المناسب ! أنا

لست غشيمًا كما يتصور !! » .

« عدم المؤاخذة يا أستاذ ! السعر الذى باع به الحاج نوار الدين مستريح

وان تجده أبداً وهو لن ينزل عنه مليما واحداً لأن الاتفاق تم أمامى والحاج صادق

إلا فى شئ واحد هو أنه لن يستفيد ! فعمولته سيأخذها ولكن بصراحة ستكون

قليلة لأن ناس العرابة القبلية يعتقدون أنه سيضيف عمولة أخرى فوق السعر

المتفق عليه لكنه لم يصف وهذا يدل على أنه يريد أن يخدمك ويجعلك تستفيد أنت

بهذه العمولة التى كان سيضيفها عليك ! لقد باع لك بتراب الفلوس ! إننى أعرف

كيف يحاسبه أقاربى ! لعلم سيادتك يا أستاذ أقاربى ليسوا محتاجين له ! إن

الخواجهات التقال يذهبون إليهم لحد دورهم يدفعون وينصرفون بكل ثقة واطمئنان

والبضاعة تصل إليهم بعد ذلك فى العناوين المذكورة أقاربى يا سعادة البية لا

يغلبهم غالب ! ألم تعلم يا سعادة البية أن لى أولاد عم تعلموا تعليما اجنبيا عاليا

وأصبحوا الآن يشتغلون فى المتاحف العالمية الكبيرة والجامعات وأنهم أكبر

وسطاء بين أقاربى والزيانن ؟! إنهم يبيعون للحاج نوار الدين كرامة للنسب !

زوجه المرحومة كانت منهم !! » .

- « أعرف ! كل شيء معروف ! ولكن إن كانوا - أقاربك - يحبونك حقاً فإنك

تستطيع أن تخدمنى فى السعر ! »

- « أنا غلطان ! إنس ما قلته لك ! » .

- « أتعرف مع من تتكلم يا حسن ؟ »

- « يا سعادة البية إننى أعرف ولهذا أردت أن أكسب صداقتك بهذه

التضحية الكبيرة ! »

- « لماذا لا تحاول ؟ » .

- « لا أستطيع فتح قفى ! »

- « وكيف يتم البيع ؟ »

- « شال الحمام حظ الحمام ! تعطينى الفلوس أسافر بها وأعود

لك بالتمثال ! » .

- « بنون معاينه ؟ » .

- « معاينة ماذا يا سعادة البية ؟ أنت لا تستطيع أن تعاین الشمس أو القمر

للتأكد إن كانت شمسا وإن كان قمراً !! » .

- « ولكن ! مبلغ كهذا ! من أدرانى ؟ ربما حدث لك حادث ! ربما وقعت فى

المصيدة ! من يضمن لى رد المبلغ ؟ من يضمن لى أن اسمى يظل بعيدا عن

الواغش ؟ » .

- « قبل كل شيء يا سعادة البية إنها ثقة وأمانة ! حكاية أن يحدث لى حادث

موت فإنه يكون قضاءً وقدرًا وفى هذه الحالة أعطيك ورقة بإمضائى بأننى تسلمت

هذه الأمانة لتوصيلها لسين من الناس !! أما أن أقع فى المصيدة فهذا لا يكون

أبدا حين ولو كنت مراقبا من الحكومة !! إن تضليل الحكومة شغلتنا وفننا الذى

نأكل من ورائه عيشا !! كل ما أنبهك إليه هو أن الحاج نوار الدين السننى لا يجب

أن يعرف بهذا الكلام وإلا أفسد كل شئ ! وعلى فكرة ! أنا مبعسوط والحمد لله
وأسكن فى شقة فى عمارة على النيل فى مواجهة كوبرى الملك الصالح ! وعائلتى
ضخمة جدا وأنوى أن أرشح نفسى فى الانتخابات القادمة عن دائرة بلدتنا !
وعندى فضلة خيرك ماكينة للطحن وماكينة للرى وماكينة للدراس وأملك سراية فى
البلد ! قصدى أنتى ابن ناس وعينى ملائكة !! » .

ابتسم ، ريت على كتفى ، صار فكك السفلى يروح ويجئ كبنول الساعة .
خفت منه يا خال ولعنت أب الذين خلفونى لانسحابى من لسانى . رأيت فى لمعان
عينيه قاطع طريق يقتل القتل ويمشى فى جنازته ! خيل لى أن نهايتى والعيان
بالله ستكون على يديه ! لكن صوتا لعله صوت أمى نبح فى صدرى ! لا تأكل من
هذه الحركات فهى صنعة متقنة ! تشجع يا ابن أمك وامكر به مثلما يمكر بك لا
تضعف لأن ضعفك قوة له وهو لن يلكك إلا إذا تكلم من ضعفك فكن أقوى منه
تأكله وتذكر دائما أنه ليس إلها ولا وحشا مقترسا ! ..

من خلال سحبه للأنفاس قال :

- « إطمئن من هذه الناحية فأنا أعرفك وأحبك ! ثم إننى شخص نو حيثية ولا
أحد يستطيع النصب علىّ مهما كانت قوته !! إننى أنظر إلى أبعد ! » .

- « خلاص يا سعادة البيه ! نصرف النظر عن الموضوع !! » .

- « لا !! فرصة كهذه لا أفوتها بسهولة ! إسمع ! الحل الأمثل أن أرسل معك
أخى ومعك نفر واحد فقط هو الخبير المثلث وستكون الفلوس مع أخى سيربها لك
قبل السفر لتطمئن ! ستركب معه سيارته معززا مكرما لحد باب الدار ! تسلمه
التمثال يسلمك الفلوس ويعود بك إن أردت !! ما رأيك ؟! » .

- « ومتى تفعل ذلك يا بو العم ؟! » .

- « بكرة ! خير البر عاجله ! » .

« عدم المؤاخذه يا استاذ ! أخ سعادتك يجب أن يلبس الجلباب البلدى مثلى
وكذلك الرجل الخبير !! كما أننا لا يجب أن نركب سيارة ملاكى بل لابد أن نروح
ونجى فى تاكسى !! » .

« وما الحكمة ؟ » .

« الملاكى ستفضحنا ! ولبس الأفندية سيلم علينا الواغش ! وافقنى على ما
أقول لكى يتم المشوار فى أمان الله !! » .
« ليكن ! نحن نحب البلدى على كل حال !! » .

وهكذا كلم أخاه فى الهاتف طالبا منه المجئ بجلباب بلدى مصطحبا معه
زاهى بك بجلباب بلدى أيضا وأن يأتى معه بالفلوس التى تركها عنده أول أمس .
سمعنا صوت خطوات الحاج أحمد نوار الدين السنى على السلم الخشبي
فأمسكنا عن الكلام . لكن الخطوات تبعتها خطوات كثيرة جعلت السلم يئن
ويتوجع . دخل الحاج ومعه ثلاثة من المدعويين التقاهم عند البوابة وهو يتمم على
الخيفر فى سرادق البضائع ..

دخلوا علينا فتملكنى الذهول يا خال ، كان من بينهم الحاج قدرى الذى التفتيه
فى قطار الصعيد ، واتضح لى أن اسمه الحقيقى الحاج دهب وشهرته قدرى .
أخذنى بالحنن والسلامات الحارة مما جعل محمد بك يحدجنى ينظره منفرجة
كأنه يتعرف على حقيقتى لكن شيئا من الاطمئنان ظهر فى عينيه . بعد دقائق
معبودة حضرت صورة من محمد بك أبو شناف ولكنها أضال حجما بقليل ،
عرفت أن اسمه حازم وأنتى رأيته من قبل فى مكان ما لست أنكره . معه شخص
نصفه رجل ونصفه أنثى ، شعره طويل مرسل على قفاه كالمرأة ؛ خلوده حمراء
وكذلك شفتاه لكنه قوى البنية مع ذلك غليظ الصوت يكثر من الكلمات الأجنبية ومن
الغمز وترقيص الحواجب . ارتفعت الغاغة : سلامات وصيحات ونكات قديمة لا

مناسبة لها فى الظاهر - والحاج أحمد نوار الدين السنى يعبر عن احتجاجه فى صورة عكسية يقوله :

« براحتكم ! البيت بيتكم !! » .

ثم نزع غطاء زجاجة الشمبانيا ففارت فاعتقل فورتها فى فوهة الكوب ثم طوح بما فى الكوب فى فمه مكشرا ثم وضع الزجاجة وبقية الزجاجات أمام محمد بك ، وصفق بيديه تصفيقة خاطفة فدخل خادم يحمل صينية عليها كنوس كثيرة وضعها وانصرف . دارت الكنوس حتى نفذت الزجاجات . بعد ذلك مباشرة دخل السفرجية فنصبوا المائدة الأرضية واشتغل الأكل كلنهم جميعا كانوا جياعا منذ أعوام . غسلوا أيديهم وهم جلوس فى أماكنهم بواسطة الطشت والابريق . عاد التحشيش مرة أخرى يا بوى . أنمفتهم مصفحة يا خال ، قلاع تضرب فيها المدافع والقنابل فلا تتزعزع . ولولا أن حازم راح يساعدنى بما له من خبرة واضحة لأصابنى الكساح يا بوى ..

الشاهد يا خال ؛ لمع الخبث فى عينى الحاج نوار الدين فنظر فى ساعته وخبط على ركبتيه قائلا :

« إسمحوا لى أن أقوم لاتوضأ واستعد لصلاة الفجر !! »

وكان واضحا يا بوى أنه يريد الإنصراف فحسب ليترك لمحمد بك ورجاله فرصة التفاوض فى البيع والشراء على راحتهم . هذا ما نطقت به نظرتة الألبانية الصببانية الشقية . إنه يفهم شخصياتهم جميعا حق الفهم يا بوى وعلى الأخص محمد بك أبو شناف ولهذا يتعمد أن يتيح له فرصة هبرة كبيرة من هذه الفتة ، على سبيل الرشوة ، فلا بد إذن أنه يستفيد فوائد أخرى كثيرة من وراء علاقته محمد بك أبو شناف ورجاله ؛ أنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح . وه يا بوى ، ما أكثر ما يجب أن أتعلمه منك يا حاج عفريت ..

الرجل الذى شرب الشمبانيا لتوه متعللا بأنها ليست من الخمر مضى يستعد لصلاة الفجر حاضرا فى جامع عمرو . هو أول من يذهب وآخر من ينصرف ؛ وهو كذلك نجم من نجوم المسجد العمروى وعضو بمجلس إدارته وأكبر المتبرعين لترميمه وتجديد فرشته .

توقف عند الباب بقامته المحنية قليلا :

- « أبعث لكم بئى شئ ؟ » .

- « شكراً ! » .

فرحتى بالبقاء خابت يا بوى ؛ فسْتُ : فقد دار الحوار كله بلغة لا أفهم منها حرفا واحدا ؛ أغلب ظنى أنها الفرنسية . صرت كالأطرش فى الزفة . تحلف اليمين كأننى ثور الله فى برسيمه . على الدم فى عروقى ، جاعى صوت مجهول يلى فى صدرى قائلا : من لم يتعلم الكلام بالانجليزى أو الفرنساوى يبقى طول عمره حمارا . ندمت لأننى على كثرة معاشرتى لأكثر من ترجمان ولد عمى لم أتعلم منهم كلام الخواجات ؛ قال الصوت المجهول فى صدرى : إن كنت تروم أن تكون بنى آدم يا ولد أبى ضب فمن غد تتعلم الكلام الإنجليزى مهما كان الثمن فلربما جاعتك سفرية فتستطيع التكلم مع خلق الله . الله وكيل يا بوى ؛ تحلف اليمين أننى رغم جهلى التام بكل ما يقولون تابعت الكلام بشغف كأننى أفهم ، مثلما أتابع فيلما أجنبيا وأفهم موضوعه بالفهولة . كانت فرجة يا بوى ، معركة حامية بالانجليزى أو لعله الفرنساوى ؛ لم يكن ينقصهم إلا الإنقضااض على بعضهم ونهش لحوم بعضهم ، ولكن العجيب أن ذلك يحدث فيما هم يضحكون يتبادلون الأكف على سبيل التحية ..

عدم فهمى للغة الكلام جعلنى أركز على حركة الأيدى وملامح الوجوه . الحاج قدرى تناول التمثال المرمى وعرضه للضوء ناظرا فيه بعدسة كعدسة الساعاتى

يغرّزها بين الحاجب والوجهة ، فبدا التمثال فى نظرى أنا غاية فى الجمال يا خالـ
وه يا بوى وه ، بحق الله من هذا الذى حدد هذه الملامح فوق كتلة من المرمر حتى
جعلها تكاد تنطق ؛ كيف رسم الإنفعال على الوجه والأبهة الملوكية فى وقفة
رمسيس الجامعة بين الكبرياء والتواضع بين الإلهية والبشرية بين الخيال
والواقع، بحق جلال الله يا خال هذا لا يقدر بثمن ، مجرد النظر فى تمثال كهذا
يعلمك معنى الجمال يزرع فى قلبك الحب لمصر ولأهلها القدامى ..

دار التمثال على الجالسين واحدا واحدا مثل قنديل من ألوان الصفاء الوردى
بجميع لرجاته . كل من أمسكه ود أن يبقيه فى يديه أطول مدة ممكنة ، لولا أن يد
الأخر تمتد لتقتنصه . تحلف اليمين يا بوى أنه كان له حضور ملكى مهيب لدرجة
أننا جميعا انكمشنا فى حضرتة . فلما ظهر العقد الفيروزى المنقوش قامت قيامة
الجميع وكانوا يقطعون سلسلته من شدة الجذب والتقليب ؛ بل إن الأندى الذى
نصفه رجل ونصفه أنثى لم يتورع عن إحاطة عنقه به على سبيل التجريب ؛ فلما
استوت حباته على صدره إنتفض أحلى فى الحال تهيجا عليه لأن العقد نفى
نصف الرجل وضاعف حجم الأنثى فيه بصورة زاعقة يا خال! ثم ظهر العجل
أبيس وطائر أبو قردان ؛ ما كل هذه الرقة يا خال ؟ لا يمكن أن يكون صانع هذا
بشراً مثلاً؛ صدق والد عمى حين قالوا عنها : المساخيط ، إذ هى فى نظرم
مخلوقات غضب عليها الله كما يقولون لشدة افترائها عليه فسخطها هكذا ؛ نزع
منها الروح فجعلها كل حسب معدته الأصلى فى الحياة ، الحجر حجر
والذهب ذهب والطين طين ..

قامت الخناقة يا بوى ، بالعربى هذه المرة ، بل البلدى والصعيدى والحوارجى .
الحاج قدرى مصمم على أخذ التمثال والعقد معا كما اتفقوا فى مبدأ الكلام ؛
لقد اشتري قبل أن يرى ووافق على الأسعار بغير فصال فلا أقل من احترام

الاتفاق - وحاج آخر أصفرأوى الوجه والعينين كالثعبان من الواضح أنه زير ملائق بالفلوس، يهتف بصوت متحشرج مكتوم متاكل الأحرف بأن لديه زبوناً مهماً جداً وعزيزاً عليه جداً يطلب هاتين القطعتين على وجه التحديد وأنه لهذا طلب من محمد بك أن يبحث له عنهما لدى معارفه فهما إذن فى الأصل باسمه ومن نصيبه ، أما مسألة السعر فإنه ان يصدق بل لا يهमे مضاعفة المبلغ فى سبيل أن يظل رجلا فى أعين علمائه عملائه الأوروبيين الذين يتقون فى كلمته ..

انجعص محمد بك أبو شناف ملتفتا إليه ، وأفتى بأنه يعرف سماسرة المتاحف هؤلاء وأنهم فى نظرة أولاد قحبة لأنهم الرابحون فى النهاية . ثم حسم المعركة بأن خير الحاج قدرى بين التمثال والعقد فاختار التمثال ، بل بادر بلفه فى منديله الحريري ودهس فى جيب سترته الداخلى . فى حين مد الحاج الآخر يده فى كثير من الغضب المكبوت والكتابة فمسحبه العقد ووضع به إهمال فى سيالته ، وبدأ أنه غير راض على الإطلاق . وكانت نظرات محمد بك أبو شناف تحوم حول الحقيقة الجلدية تحت كروع الحاج الأصفرأوى - وبحركة تمثيلية ، وكأنه يدخر له هدية أنقح من التمثال ، أخرج رأس نفرتيتى صار يلوح بها فى وجهه كأب يختبر فرحة ابنه بلعبة جديدة . بالفعل إنفردت أسارير الحاج الأصفرأوى وابتسم واختطفها فى الحال كالطفل المنبهر ودهسها فى جيبه الداخلى فحدهجه الحاج قدرى بنظرة معاتبة ثم أردف :

- « حلال عليك ! شف كيف أنى لم أزعل الآن رغم أنى بالفعل كنت أتمنى هذه

القطعة بالذات لكثرة الطلب عليها !! » .

فى خبث منتقن هتف محمد بك :

- « نحن فيها ! خذها واعطه التمثال !! »

صاح الحاج قدرى :

- « ما داخل جيبى لا يخرج منه ثانية عدم المؤاخذه !! » .

- « خلاص ! كل واحد حلال عليه ما أخذه !! رينا يجعل سوقها أحلى

منها !! » .

أما الرجل الثالث ، وكان أفنديا غاية فى الإتزان والصمت والرقّة فإنه ركن العجل أبيس وطائر أبى قردان فى حجره فى شكل غير بارز علامة أنهما من نصيبه ولا مجال لعرضهما على أحد أو مشاركته فى شئ منها . بل إنه كان أول من افتتح المنظر البديع يا خال ، كان يحمل كيسا من الفاكهة وضعه بجواره تصورت أنه يحتوى على تفاح أمريكى . سحبه وفتحه فإذا هو ملآن برزم الفلوس يا خال ، ورق بنكنوت أخضر وأحمر مؤسك فى باكوات . عد لمحمد بك مائتى باكو ، فلوس مضغوطة حتى ليبيو الباكوكائه علبه من ورق الكوتشينه ، إنتظر محمد بك برهة ثم قال :

- « ماهذا ؟! أنت لم تأت على النصف بعد !! »

أشار له الأفندى بأصابعه أن أنتظر ! ثم سحب دفتر الشيكات من جيب سترته، وحرر شيكا برقم واحد أمامه أصفار كثيرة ، سلمه لمحمد بك . حاولت التقاط الرقم فلم أتمكن لأن محمد بك طواه بسرعة ووضع فى جيب الصديرى . ثم جاء اللور على الحاج قدرى ، الذى أخرج هو الآخر دفتر الشيكات وحرر شيكا برقم لم أميز على البعد إن كان تسعة أو ستة لكن الأصفار هى الأخرى كانت كثيرة . نظر فيه محمد بك ثم أعاده إليه بنظرة تائيب فيها شئ من الوقاحة كأنها تكاد تشخر قائلة : « جرى إيه يا روح أمك ؟! » . فابتسم الحاج قدرى ومط بوزه كالغلوب على أمره ثم سحب الشيك فمزقه وكتب شيكا آخر قبله بشفتيه وقدمه لمحمد بك :

- « مالى بركة إلا أنت !! » .

طواه محمد بك وهو يرشقه بنظرة ولد صايح مخريش :

- « طب يا روح أمك ! تشكر ! ربنا يبارك على كل حال !! » .

ثم اتجه بكليته إلى الحاج الأصفرأوى الذى كان قد سحب الحقيبة وفتحها .
مضى شت يا بوى ! تحلف اليمين أن دماغى تشعثت : من أين تأتى كل هذه
الآلوف ؟ فى البلد كل هذه الأموال يا خال وهناك ناس لا تلقى اللضى ويقولون
دولة إشتراكية ؟ يظهر أنها إشتراكية فى النهب والسرقه يا بوى . فلوس الحاج
الأصفرأوى جديدة لم تلمسها يد من قبل ، أ يكون هو الذى يطبعها بالكميات التى
يشاء ؟ غير مؤسكة لكنها مرصوفة فى باكوات محزمة بأحزمة ورقية عريضة
عليها أختام وأرقام . خذ عندك يا بوى : الله واحد ، ماله من ثان ، العدد ثلاثة ،
هب ، أريعمائة خمسمائة ستمائة ، ثم خلت الحقيبة ومع ذلك نزع منها دفتر
الشيكات وحرر شيكا قدمه لمحمد بك فى لهجة مشوبة بالإعتذار والرجاء :

- « عفوا ! هذا الشيك يستحق السداد أول الشهر القادم يعنى بعد ثمانية

أيام فقط ! ومن يدرى ! ربما يسهل ربنا قبل موعد الشيك فأخذه وأعطيك المبلغ !!
كله على الله ! كله سينصرف بعون الله !! » .

قال محمد بك وقد لمعت صلغته الشبيهة بقطعة جرانيت رمادية اللون :

- « أعرنى هذه الحقيبة بعد إنك !! » .

- « هى لك ! حلال عليك !! » .

محمد بك إنهمك فى رص البواكى فى الحقيبة حتى امتلأت عن آخرها ، فداس
على الغطاء بقوة حتى وصل لسان الكالون إلى مستقرة المحفور ، ثم حرك تروس
الأرقام حتى ساواها ببعضها ثم عاد فخلبطها ثم سلم الحقيبة إلى أخيه حازم
مصحوبة بغمزة من عينيه ، فنهض حازم مستأنفا ، ومضى يهبط السلم الخشبي
بسرعة . عند ذاك اعتدل محمد بك فى قعدته : رفع إحدى ركبته أسند فوقها

نراعيه ، وبينه الأخرى مسح وجهه بـرقبته وصلعته بمنديل حريري معطر ، ثم تنفس كأنه انتهى من معركة حربية خرج منها ظافرا :

- « يا .. ه !! كل ما كان فى رأسى طار ! طيرتوه ! أفقت الآن تماما !!

أين حسن ؟! شف شـفـك يا أبا على ! روقنا قبل أن ننصرف لنعرف كيف نتصرف !!».

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

- « معك حشيش أم تراه نفد ؟! »

شعرت أنه يشجعنى على القول بأنه نفد ، مع أن نصف الكمية لازال معى .
فهزرت رأسى مؤيدا لفكرة النفاد . فنظر إلى الحاج الأصفرأوى نظرة ذات معنى ، فقدم هذا قطعة وقدم الحاج قدرى قطعة . أحييت النار . دور والثانى ، تناهت إلى أسمعنا الخطوات فعرقنا أن صلاة الفجر قد انتهت . لكن الداخل كان حازم :
فتلقاه محمد بك بسرعة : « سلمت الأمانة لأصحابها ؟! » ؛ فقال وهو يظلم حذاء :
ليترجع : « حصل ! » . بعده بقليل أقبل الحاج أحمد نوار الدين السننى يتهم بختام الصلاة فى جدية بالغة . وقف بالباب مستردا نظراته الصبيانية الشقية المرة .

- « صباحين وحته ! »

ردوا جميعا :

- « قشطة عليه ! »

فظل واقفا كأنه يستعجل قيامهم ، بل صار يوحى إليهم بذلك :

- « كله تمام ؟ أى طلبات تتقصصكم ؟! »

عند ذاك نظروا جميعا فى ساعاتهم وقال الحاج الأصفرأوى : « نهاركم سعيد ! » ، ونهض واقفا ، قسـم عليه محمد بك قائلا : تلفن لى غدا فى العاشرة مساء فى النمرة الثالثة . ثم سلم على الجميع مودعا ، وقال لحازم : إسبقنى انت

إلى تحت . من الواضح أنهم جميعا يعرفون مسالك القصر وممراته ، خاصة أن الحاج السنى أغلق جميع الأبواب بالمفاتيح فيما عدا الأبواب التى تقود السائر من تلقاء نفسها إلى الطابق الأرضى فالبوابة الخارجية نون أن يخرق بهو المدخل الحافل بالتحف فوق المناضد . جلس الحاج السنى بجوار محمد بك وفى عينيه توق شديد للحساب . قال بلهجة مديبة ذات معنى :

« اتعشينا ؟ »

« اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال ! »

قدم للحاج قصاصة ورق نون فيها بعض الأرقام :

« الحسبة كانت هكذا فيما أظن ؟ أمامك عدد القطع وأمام كل قطعة

حسابها ! وأمامك الحسبة مجموعة جاهزة !! »

بنظرة سريعة مدربة استوعب الحاج السنى الحسبة كلها ومع ذلك قال بلهجة دافئة :

« أحسب وراءك ؟ والله عيب !! »

قدم له محمد بك الشيكات واحدا وراء الآخر :

« بكم هذا ؟ »

« بكذا »

« ويكم هذا ؟ »

« بكذا »

« فيكون المجموع ؟ »

« كذا »

« ويكم هذا ؟ »

« بكذا »

« إذن فيصبح لى فى زمك ثلاثمائة جنيه زيادة تردها لى عندما تصرف الشيكات ! سأظهر هالك فهى محررة لحامله ! » .

واستدرك :

« إعط المئات الثلاث لحسن بقشيشا ! حقه ! من حضر القسمة فليقتسم !! »

كدت أستسلم للفرح لكن الله ألهمنى فرفعت يدى هاتفا فى إباء وشمم :

« لا ! تشكر يا سعادة اليه على كل حال ! ولكن البقشيش بالنسبة لى لا !

أنا لم أفعل شيئا ! مستورة والحمد لله !

« إذن فخذ المبلغ وتصدق به !! لكن لا ترد كلمتى وتكسبنى !! »

« عفوا يا سعادة اليه ما قصدت شيئا !! » .

وكان الحاج السننى يراقبنى بابتسامة مرتعشة مأكرة فيما تلعب يده فى سيالته . ثم خرجت يده برزمة الفلوس مطوية ، وتقدم منى وديسها فى سيالتي :

« أنت الخير والبركة ! وضعت لك فوق هدية محمد بك مائة جنيه

من عندى !! » .

وقال محمد بك :

« عن إذنك أخذ حسن معى ساكلفه بمشوار !! »

« كلنا ملكك يا سعادة اليه ! »

ومضى خلفنا حتى الباب الخارجى ؛ وظل واقفا يتمتم والمسبحة تساقط حباتها

فى يده حتى سخن محمد بك سيارته وانطلقت بنا إلى منشية البكرى حيث مسكن

حازم . وكانت الشمس تحاول أن تشرق ولكن الضباب الكثيف يكتم أنفاسها

بشبويرة خانقة ، والناس تمشى فى الشوارع الطافحة بالمجارى لاهته شاردة

كثيبة ، وتتراص على محطات الأنوبيس ، والسيارات تمرق من أمامهم لتهيل

عليهم الغبار والأوحال .

بصره

السيارة التى استدعاها حازم بالهاتف من موقف سيارات الصعيد حملتنا
ثلاثتنا فقط : حازم ورفيقه المشعرانى فى الكعبة الخلفية ، وأنا بجوار السائق :
مسدسان بارزان فى جيبي صديرى كل من حازم ورفيقه ؛ مما أشعرنى بالأمان
والخوف معا يا خال ، لا أدرى كيف - وعندما فتح حازم حقيبة الأمتس المستعارة
من الحاج الأصفرأوى وأورانى رزم الفلوس الحمراء والخضراء شعرت بضرورة
وجود السلاح معنا يا بوى .

الله وكيل يا خال ؛ القلق لم يفارقنى طوال الطريق على الرغم من أن حازم
أغرقنا بالسجائر الأجنبية المحشوة بالحشيش ، والأفيون ، والشاى والقهوة من
إبريقين مقفلين قيل لى إنه اختراع حديث يجعل الإبريق يحتفظ للشاى بسخونته
كما نزلت من فوق النار ، أو ببروبته كما خرج من الثلاجة - حاجة تهوس يا بوى .
الرفيق المشعرانى - زاهى بك فيما أظن - لم يكف عن التكتيك والضحك طوال
الطريق ؛ نكت سياسية جريئة تسخر من عبد الناصر ، ونكت قبيحة عارية . كل
ذلك ودماعى فى البر الثانى من الوادى : كيف ستتصرف يا ابن أبى ضب فى
هذه الشغلة ؟ لا مجال بالطبع لأن تتراجع لكن عليك أن تكون حصيفا كما نبه
عليك صوت أبيك . عيناي ذابتا على الطريق يا خال ؛ أمعنت النظر فى كل سيارة
حازت أو عبرت بجوارنا أو خيل لى أنها تعاكسنا . أنا ريك والحق أشم رائحة
الشرطة مهما تخفت فى أزياء وتنكرت فى هيئات ؛ أساس الخسة يابوى أن
السلطة مغرية فضاحة لمن يعشقها إذ هو دائما أبدا يجب أن يشعر بأنه فوقك

مميز عنك ؛ شعوره بالسلطة أقوى من شعوره بالواجب يا خال ، أقوى من قدرته على التخفى ...

السكة أمان ؛ ولم يظهر لى شئ يؤيد قلقي . وصلنا إلى أسيوط بسلامة الله يابوى . قلت : بس ! هذه فرصتى لأتملك زمام الأمان فى السكة :

- « متشكرين يا أسطى ! مع السلامة أنت ! »

قاطعنى حازم باحتجاج حاد الصوت :

- « لماذا ؟! اتفقنا معه من الباب للباب وحاسبناه !! »

صحت فيه باحتجاج أكثر حدة :

- « لو سمحت يابو العم ! دعنى أتصرف كما يتراخى لى !! فالمهمة

مهمتى ! إن الأسطى إن يستطيع توصيلنا للمكان المطلوب وسط طرق ضيقة

ومزراع وعرة !! »

لحظتها صاح السائق :

- « نعم ! لم أكن أعرف هذا عند الاتفاق ! إعملوا معروف ! السيارة لا تحتمل

الطرق اللولبية غير المرصوفة !! » .

- « معك حق يا بو العم ! سيارتك هذه رقيقة مثلك ونحن لا ننفعنا إلا سيارة

صعيدية خشنة !! فاتكل على الله أنت !! » .

وملت على حازم موضعا :

- « هذه سيارة بنمر قاهرية ومنظرها يثير الريبة حوانا يجعل الناس يخافون

منا خاصة أن منظركما غريب على البلد !! »

بينى وبينك يا خال كنت أشك فى السائق أتصوره من بين الشرطة لقرب الشبه

بينه وبينهم . فلما أبدى خوفه الشديد على سيارته لمحت وراء خوفه خوفا أكبر عل

حياته يعكس استراجه من المشوار كله ، فداخلنى كثير من الأمان . صحبتها إلى

سوق أسويط لنجلس على إحدى مقاهيه بعض الوقت - تلقيت السلام الحار في كل خطوة ؛ مئات التحيات والشايات انهمرت علينا من كل من رأنا حتى انكمش رفيقاي بعض الشيء - أرسلت صبييا في طلب سيارة من الموقف القريب ؛ تصادف أن سائق السيارة يعرفني ؛ بالحضن يا بو علي ؛ أهلا يا بو العم ، بنا إلى الغنايم ...

عندما صرنا في مدخل البلد توقفنا عند عشة تبيع الشاي والقهوة ، طلبت للسائق ما شاء من المشاريب وأعطيته حسابه وجزءا من حساب العودة على أن ينتظرنا بقية النهار بالبلع الذي يطلبه كي يعيدنا إلى أسويط ...

كانت الفكرة قد عشتت في رأسي يا خال ، رأيت أن أدخل الرعب في قلب رفيقي حتى يتسنى لي أن أكون مسيطرا على الشغلة - لففت بهما حول البلدة بهدف التضليل ثم توجهت بهما إلى مقهى المغارة في الجبل ، تلك التي دخلتها ذات يوم صدفة وكنت على وشك الضياع فيها لولا ستر الله ، ما أن دخلنا من باب المغارة حتى التقانا صاحب الكشك في الحال المقام فوق المدخل ليخفيه بداخله . عرفني صاحب الكشك فوجه لي وضيوفى تحية مناسبة . رفيقاي تصورا أننا دخلنا الكشك لنشتري السجائر أو نشرب الشاي ؛ فكانت المفاجأة صادمة حينما أشرت إليهما أن يتبعاني . هبطت بهما منحدرأ خادعا يظن من يجتازه أنه يؤدي به إلى الطريق الزراعي ثم يفاجأ بأن الإنحدار فيه لا نهاية له ؛ ثم تبدأ السماء في الاختفاء شيئا فشيئا إلى أن تختفى تماما في القبو المظلم ثم داخل النفق الطويل..

بدأ الرعب يعتريهما فعلا يا خال - من خطوة لأخرى يسألني أحدهما في استرابة واضحة :

« إلى أين نذهب ؟ »

فأرد عليه بخشونة مبطنة بالركة :

- « لا تخف مادمت معي !! »

إلى أن صرنا في قلب المقهى ، فاستقبلت فيها استقبالا حافلا بابوى كائننى من كبار الزوار بل كائننى صاحب بيت ، أثنى شنب كان يجرى ليخدمنا . جاء الشاى نو الرائحة النفاذة ؛ جاءت الجوزة والحجارة ؛ وكانت بقايا حشيش الامس وأنبوبة زيت فى جيبي ؛ فملأت الحجارة ؛ شريت معهما بعض الأنفاس ؛ ناديت للواقف وراء النصبة فجاء يهرول وكان عملاقا يخيل إليك أنه ضلع من الجبل دبت فيه الحياة . سلم على ضيفي ؛ قلت له إنهما من أقاربنا فى مصر ، فأعاد السلام عليهما بحرارة أشد قائلا :

- « إن شاء الله الغداء عندنا ! جئتم فى موعده وإن تخرجوا من هنا قبل الغداء !! ما الذى تحبون أكله ؟ رومى ؟ بط ؟ حمام ؟ خرفان ؟ جديان ؟ كل هذا موجود عندنا وإن نشتره !! » .

استحسننت الفكرة التى لم تخطر لى على بال ، قلت :

- « جهز الغداء الذى يعجبك أنت ! وهذا الرجلان فى عهدتك وحمايتك حتى

أعود ! سأملك حوالى نصف ساعة !! » .

بأصبعه أشار الرجل الجبل إلى عينيه :

- « تحب أن تبعث معك حرسا ؟ ! »

- « لا ! الحارس هو الله ! »

- « ربما احتجت لمن يعاونك !! »

- « الشغلة بسيطة ! »

- « طالع فوق ؟ ! »

- « نازل تحت !! »

- « بألف سلامه ! إنكل ! »

استلثنت من ضيفى فأننا لى بنظرة فيها من الإكبار والرهبه والخوف الممزوج
بشجاعة مدعاة خرقاء ما هن قلبى بالفرح والتفاؤل - فقلت عائدا إلى البلدة -
من فورى توجهت إلى دارى ففتحتها كالمتمسلل - أزحت ملة السرير - بسن
الكوريك أزحت التراب عن غطاء البئر ثم أخرجت ما فيه فإذا بقلبي يرتعد خوفا
وفرحا معا : الثروة كانت أكبر مما قدرت - وه يا بوى ، كل هذه الانتيكات
والتمائيل عندي ؟ حمداً لله - انقضت يدي على التمثال الذهبى ، شملنى الرعب
اللمزج بالندم الكبير ، كان التمثال أكبر من تمثال المرمر بحوالى خمس قراريط
فضلا عن أنه أثقل بكثير يابوى ، مرزته فى يدي ففزرت أنه بزيد على الكيلو جرام
بكثر : ثم ما هذا الشغل يابوى ؟ تمثال المرمر كان واقفا فحسب أما هذا قواقف
فى مدخل بوابة المعبد الكبير زعلى كل من يمينه ويساره حارس بحرية مرسومين
على صدغى البوابة أما هو فمجسد بكامل وجهها وظهراً فى فراغ البوابة - وه يا
بوى ، أجننت يا ولد أبى ضب لكى تفرط فى هذه التحفة الثمينه يا ابن المرة ؟
صحيح أن الفلوس كبيرة لكننى كنت أتمنى أن أحتفظ بها وبالتمثال معا ، أو على
الأقل يعود التمثال إلى مرقدته حتى يجئ عدله - أوشكت أن أفعل يابوى ، لكننى
بصراحة خفت من بطش محمد بك أبو شناف ؛ عزيت نفسى بأنه ربما صار لى
نصيرا فى المستقبل ؛ يجب أن أضحى كما يفعل الحاج أحمد نوار الدين السنى -
وهكذا لففت التمثال فى منديل دسسته فى جيبى ؛ أغلقت البئر أهلت عليه التراب
دألت عليه قدرا من الماء دست فوقه حتى يبططته أعدت ملة السرير إلى مكانها
وخرجت إلى الشارع العمومى ..

اتخذت طريقى إلى دار هليل فإذا به يلتقينى فى الطريق حيث كان فى طريقه
إلى دارى بمجرد سماعه خبر وصولى ومعى ضيوف - فى كلمات قليلة أحطته

علما بحقيقة الشغلة من مطلق لسلام عليكم ! فدعني يرقق نحو داره ليغير ثيابه
ويأتى بمسدسه - بعد دقائق كنا فى مقهى المغارة ..

وجدنا التحشيش قائما على قدم وساق - الصبيان الضخام استقبلوا هليل بما
يليق به من الحب والترحيب ، تناثرت عليه عبارة مصاء النجف على المعلم من كل
ناحية - قال الرجل الجبل وهو يقدم لى نصف كوب من الاقيون البلدى المذاب فى
الشاي :

- « خير وصوبك طلع إلى فوق !! »

هتفت مستاء :

- « لماذا ؟ لم يكن هناك داع يا بو العلم !! » -

- « كان الخبر سيصل بنا أو بغيرنا فليصل بنا من باب أولى فنحن لا
نستطيع كتمان خبر كهذا فكل من يدخل الجبل يصل خبره فى الحال قبل أن
يجلس يا ولد عمى !! ولابد أن نعرف إن كان علينا أن نرحب به أم نطرده أم
نتأويه !! الأصول أصول يا ولد عمى لا تزعل منها !! » -

ثم استترك وهو يتناول الكوب منى :

- « هات صحابك وتعال ! عندنا قاعة لكبار الزوار يجب أن تشرفوها !
دعوا هذا المكان للركش والواغش ربما كنتم تحبون التحدث مع بعضكم فى
شئ مهم !! »

أشار إلينا فتبعناه ؛ مضينا فى القبو الواسع المستطيل مشواراً يقرب من
نصف كيلو متر ؛ ثم حوينا فى كوعة حادة بارزة كجدار يعترض الطريق - بعد
الحودة مباشرة حودة أخرى أكثر حدة وبرزوا ، تليها عطفة تؤدي إلى تجويف
سرعان ما أفضى بنا إلى تجويف أعمق على مساحة كبيرة مربعة مليئة بمقاعد
حجرية كالمصاطب الملتصقة بالجدران وبعض مقاعد صغيرة من القش - ما أن

جلسنا حتى تبين لنا أننا فى حجرة مربعة لا باب لها تحيط بنا الجدران من جميع الجهات ..

جئ بركة خشبية كبيرة امتدت أمامنا كمائدة ؛ صار الصبيان الخناشير ييزغون فجأة من أضلاع القاعة حاملين الأطباق والأناجر والسلطانيات . رائحة الطعام الدسم فاحت حملتها نسائم لا ندرى من أين تهب . وليمة كبرى يا خال ، كلُّ يا بو العم وهات معك من ياكل . قال الرجل الجبل أنه سيعطينا قيمة ساعتين نتمدد فيهما للراحة حتى نهضم الطعام وبعدهما يجئ بنفسه ليعطينا حبسة العصارى ..

الضوء النهارى كان منسريا من أماكن مجهولة . هذا بالنسبة للغشيم يابوى ؛ أما بالنسبة لمخريش صايح مئلى اعتاد النظر والتدقيق فى كل خطوة فإننى لاحظت أن هذه القاعة محفورة فى الجبل بطريقة لولبية لتضليل الغريب من ناحية وإدخال الضوء من ناحية أخرى جاعلا فى كوة من الكوعات مسقط ضوء مفتوح على السماء فى قلب هضبة عالية . حاجة تهوس يا بوى . ومن الواضح يا خال أن هذه الحجرة المغارة تصفى مشاعر الجالسين فيها وتهدي نفسه تمنع عنه القلق . طوحت بصبرى على القاعدين معى فخيلى لى أنهم جميعا من الملائكة الأطهار الأبرار

تملعل هليل فى قعدته :

« نتكلم فى الشغل يابو العم ؟ »

انتبه الضيفان فاعتدلا فى شئ من التحفز . قال حازم بفتور أقلقنى :

« جئت بالأمانة ؟ »

أشرت إلى هليل :

« جئت لك بالمعلم نفسه صاحب الأمانة !! »

« أهلا وسهلا ! تشرقنا !! »

فمد هليل يده في جيب الصديري ، سحبها بالمنديل الملفوف ؛ فك المنديل عن التمثال الذهبي أمسكه من قاعدته السفلية راقعا إياه في الهواء . أصابنا الدهول يابوى ؛ الأفواء مفتوحة عن آخرها ، المشعراني زاهى بك تناول التمثال بكثير من التقديس كأنه يمسك مصحفا ؛ صار يقلب ، يمعن النظر في كل ملمح ، ينظر بالعدسة المكبرة ، أخيرا سلمه لحازم مع كلمة واحدة :

« تمام ! مائة في المائة !! »

نظر حازم إلى هليل :

« على كم يا معلم ؟ ! »

في معلمية ثقيلة يحسد عليها قال هليل :

« مائتا ألف من أجل خاطر حسن وضيوفه !! »

قال المشعراني :

« الاتفاق لم يكن هكذا !! » .

قال هليل :

« شف يابو العم ! ما كنت أنوى إظهار هذا التمثال بالذات لكنه

حسن سامحه الله دائما مسحوب من لسانه ! لهذه التحفة زياتنها يجيئون لحد عندها !! »

اعتدل حازم كأنه سيواجه حوتا ضخما :

« يا معلم ! لقد اتفق حسن مع ناس في مراكز كبيرة في البلد ! وما أنا إلا

واسطة خير أسلم المبلغ وأسلم التمثال !! » .

صاح هليل في احتجاج دقيق متقن :

« والله عال ! بعتم واشترىتم وصاحب البضاعة كالأطرش في الزفة !! »

المشكلة يا ابو العم أن حسن نسى شكل التمثال فاتفق معكم على تمثال أصغر من هذا !! »

قلت كئنتى أخلص نمتى :

- « لم أبع ولم أشتري ! أنا عرضت فحسب يا ابو العم !! والرجل الطيب الذى تكلمت معه عرض أن يدفع الآن خمسة وسبعين ألفا وبعد أيام قليلة يدفع مثلها فقلت له سأحكم صاحب الشأن فأرس معى هذين الرجلين الكريمين لإظهار الجدية فى الكلام إن وافقت يدفعان وإن لم توافق يا دار ماسخك شر !! فماذا قلت ؟ »
- « قلت لا إله إلا الله ! »

ونكس رأسه فى الأرض مفكرا - أراد حازم أن يأخذ خطوة عملية لإظهار الجدية : فتح الحقيبة ، أفرغ ما فيها عد خمسا وسبعين باكو ملفوفة بأحرمة البنك ، كومها أمام هليل قائلا فى أريحية :

- « هذه هى الفلوس خذها وخذ التمثال ! نحن نشترى رجلاً ! ومجرد مقابلتكم لنا تساوى فى نظرنا أموال الدنيا كلها !!

ثم إن أخى - وحسن يقول لك - رجل يشتري ! رجل بمعنى الكلمة وصاحب صاحبه وينفع فى الزنقة ربنا لا يوقعك ولا يوقعنا فى أى زنقة !! ولا يصح أن أقول لك عنه أكثر من هذا وسأترك لك النظيف معرفة من يكون أخى بالضبط !! » .

- « أنت فى نظرى لا تقل عن أخيك ولا يرضينى أن أقصر رقبتك أمامه ! أنت أيضا لا تقصر رقبتى ! قلت إن أخاك رجل ولا كل الرجال ! جميل يا ابو العم ! هذا تمثال غير الذى تصوره حسن ولا يمكن التفريط فيه إلا بسعر يساويه ! سأخذ مائة وخمسة وسبعين ألفا الآن ويبقى خمسة وعشرون أخذها بعد عشرين يوما ! خذ التمثال لترى لأخيك حتى يقتنع !! » .

- « معى الآن هذا المبلغ فقط ! صدقتى ! » .

- « إذن فلأخوك يسلم لحسن مبلغ المائة أو يعود حسن بالتمثال ! مع العلم بأننى واثق فيك وفى أخيك وواثق أكثر فى نفسى فما ضاع لى حق أبداً وإن يضيع بإذن الله !! » .

واستدرك ناظر الى نظرة ذات معنى :

- « سمعت ما قلته يا حسن !؟ » .

- « سمعت يا بوى ! » .

فاتجه ببصره لحازم :

- « شف يا بوى العم ! التمثال أمانة معك سأسلمه لك أنت لا لحسن ! وعلى قدر ثقتى هذه فيك أتعشم أن تعاملنى بمثلها ! فاهمنى يا بوى العم !؟ » .

هز حازم رأسه فى امتتان ؛ ويسرعة تناول التمثال قلفه فى منديل ثم نسه فى جيب الصديرى . ففقت أنا بإعادة رص البواكى فى الحقيبة وسلمتها لهليل . طرح المشعرانى علينا طرحة سجانر ملفومة ، وإذ مال ليشعل لنا بالقداحة فوجئنا بالرجل الجبل يدخل بالعدة ليسقينا حبسة العصارى ..

عند خروجنا اقتاننا الرجل الجبل من سكة بعيدة تخترق أحشاء سفح الجبل وسط فوهات مخيفة وكتل ماثلة وأحجار تتعانق فوق فراغات . طريق شديد الوعورة يا خال ملئ ببقايا جثث آدمية أكلتها الثعالب والثعابين والغريبان والكلاب الضالة وكنا نتقافز فى مشينا لتتخطى الثعابين والحيات والكلاب الميتة والفئران الجبلية الضخمة ، وأكوام قمامة ، وإطارات سيارات وهياكل سيارات محترقة ودراجات بخارية متكسرة ، وقبعات وطرايش شائطة وأسمال بالية ، صرنا نصعد فوق مدق ترابى محفوف بكل الصخور الناتئة المدبية ، صعودا بدا أنه لا نهاية حتى تصيب العرق من جباهنا ، وقرص الشمس الأحمر المختوق يصير على مرمى حجر من روعسنا تارة ويختفى تارات ، إلى أن فوجئنا به قابعا فى السفح

البعيد وسط بحيرة من الدماء ، وكنا قد صرنا نهبط نحوه نكاد ننكفئ من سرعة الهبوط ؛ فإذا بصفحة النيل أمامنا قد احتوت قرص الشمس ، وإذا بالطريق الزراعى أمامنا . عندئذ سلم علينا الرجل الجبل مودعاً وواصل سيره حول الجبل ليدخل من كشك السجائر قيما واصلنا نحن إلى مدخل البلد من ناحية دارنا . سلم هليل علينا ومضى بالحقيبة تحت إبطه إلى داره ، ومضيت بالضبتين إلى كشك المشاي حيث ينتظرنا السائق ، الذى وجدها فى حال من الرضا متربعا على المصطبة وقد اختفى به كثيرون من عائلة خرابة فقدموا له الغداء والحجرين المعتبرين . ولد عتره يابوى ، صمم أن يوصلنا إلى القاهرة و .. طريق السلامة يا عمل ..

مكسب

وصلنا إلى القناطر الخيرية فى الخامسة من مساء اليوم التالى بعد أن استرحنا فى شقتى على نيل النيل ثم ذهبنا إلى شقة حازم فى منشية البكرى حيث أجرى اتصالاته وعرف المكان الذى يجب أن نتجه إليه فركبنا سيارته فاتجهت بنا إلى منطقة نائية بحذاء القناطر بعيدة عن العمران بمسافة طويلة ؛ هى عبارة عن غابة كثيفة من الأشجار المنسقة كأنها خارجة من محل الكوافير ، والتحيل الملكى ذى الجريد الناعم . الطريق إليها مهمد بإتقان وممتد إلى داخلها يقول للسيارة واصلى سيرك . صارت أشجار الفاكهة تحف بنا من الجانبين ، وشمة لمبات كهربية حمراء كعناقيد العنب تتدلى بين الأقعر الكثيفة . على مبعدة قصيرة ظهر باب الفيلا كقطب من الضوء . باب مسيج بالحديد الصلب المصقول اللامع على شكل درابزينات وشبكات ومصدات ، يتم الصعود إليها بخمس درجات ، ورغم أن المكان يحيطه الهدوء التام ، ولا صوت إلا نقيق الضفادع ، فإن المرء يحس أن هذا الهدوء ليس خالصا يا خال ؛ فثمة نفس ثقيل الوطاء يا خال ، ثمة حرس رهيب يتفشى فى أحشاء القابة وحواليها يرصد حركة كل نملة داخلية أو خارجة ومن الواضح أن لديه علماً بكل من سيأتى ولديه أيضا تعليمات بعدم الكشف عن نفسه إلا عند اللزوم . وهذا ما قد حدث فى الحال يا بوى ، ما أن وقفت السيارة ونزلنا منها حتى ظهر من تحت الأرض أفندى محترم فى غاية الرقة والأدب ؛ ألقى علينا التحية ثم أشار إلى السائق أن يتبعه . قمضى حازم بالسيارة خلفه على نفس الطريق المهد العريض وقد كشفت أضواء السيارة عن

الأفندى السائر أمامها فظهر المسدس متدلّيا فوق إليته اليسرى . مالبث حتى توقف وأشار لحازم بذراعه على حوذة غير مرئية لنا تقود السيارة إلى طريق الخروج من جانب آخر ، ثم اختفى . عاد حازم ليتقدمنا صاعدا الدرج . ضغط على زر فى الحائط ، فسمعنا وشيشا صادرا عن جهاز يشبه الراديو الترانزستور مثبت على صدغ الباب ، ثم انطلق صوت فيه خشونة وتوعد : « من بالباب ؟ » . رد حازم فى الحال : « أنا حازم أبو شناف ومعى صديقان ! » . فانفتح الباب من تلقاء نفسه بحركة آلية ذات صوت كئنه يدور فوق تروس ساقية من سواقى الفيوم ---

دخلنا فلم نجد فى استقبالنا أحدا . ردهة كبيرة جدا ملئية بالأسطة الملونة الناعمة اللامعة على الأرض وفوق الحوائط بين براويز لوحات ومرايا . تحف ثمينة موضوعة على أرفف وطاقطيق عالية . نجف كثير يتدلى من السقف كعراجين البلح الأحمر والأصفر والأسمر والأبيض والأخضر . أشكال وألوان من الكراسى والمقاعد والكتب والشلل والبغات متناثرة فى مجاميع متآلفة تفصل بينها ممرات ومناضد صغيرة عليها تحف تضاء بالكهرباء . تهنا فى الردهة يا خال ، صرنا تتخاطب يمينا وشمالا ، لكن صوتا رن فى قلب الردهة صائحا من أعلى : إطلع يا حازم . فقدفنا بأبصارنا إلى أعلى فإذا بأقاريز ذهبية لشرفات وبلكونات تلف حول الردهة . وكانت أعيننا قد ألقت الضوء الخافت فتبين لنا فى الركن البعيد سلم مائل بدرابزين خشبى مشغول بالأرابيسك ودرجه مفروش بالسجاد . اخترقنا المقاعد إليه . فى نهايته كان فى استقبالنا رجل أسود كالنيز يظهر فى الأفلام فى قصور الباشوات يرتدون جلابيب مقصبة . اقتادنا عبر ممر عريض مستطيل مفروش بالسجاد . موسيقى أجنبية خافتة الأنغام تزفنا منطلقة من كل خطوة . فى آخر الممر غرفة بدت مفتوحة كالملعب فيها أسرة ساحرة مفروشة بالحرير ، وبواليب وخزانات ومرايا ومقاعد كالحمير المنجدة . من شدة اتساعها وارتفاع

جدرانها بدت كأنها بلا سقف ، تمتد حتى مشارف البصر بلونها الأبيض المزدان
بظلال لينة ونقوش زرقاء وحمراء خافتة ، ولها أبواب عديدة لونها أبيض ؛ شيش
وزجاج وشبك سلكي . لم نميز الأبواب من الشبائيك إذ أن الأرض المغطاة
بالخشب الباركيه تمتد تحت الأبواب المواجهة لنا على البعد ، وفي العمق البعيد
سواء متلاثة مترججة تخترقها أشعة عملاقة وقزمية . صرنا نقرب منها فنميز
فيها صفحة النهر المداح ملتحقا بالسماء ؛ وكلما اقتربنا ابتعدت الأشعة . عبرنا
الباب الثاني فإذا بنا في شرفة ملحقة بالحجرة لا تقل عنها اتساعا مسقوفة
بشرفة مثلها ، مفتوحة كهذه على شاطئ النهر نصف سورها عواميد حديدية
منكدة ومتداخلة في أشكال زخرفية . حاجة تهوس يابوى ...

محمد بك أبو شناف ملقى في كرسي خيزراني كالأرجوحة بقاعدة دائرية
تسمح لظهره بالتراجع حتى يلامس الأرض . كان مضطجعا ويجواره تراييزة
عليها زجاجة وكأس ، وعلى تراييزة شقيقة مجموعة أطباق فيها جز ولوز
وفسوق . تراييزة ثالثة صغيرة عليها طاسة نحاسية يرتص فوقها ما يقرب من
عشرين غليوناً مما يسمى بالبباب . دفع ساقيه إلى الأمام قليلاً وكان يرتدى سنامة
فوقها روب . اعتدل به الكرسي . وضع الكأس وأبقى على الغليون بين أسنانه
صائحا من فم مقفل :

« سبيع ولا ضبيع ؟ ! حمدا لله على السلامة أولا !! » .

قال حازم وهو يلقي بنفسه على كرسي مماثل :

« سبيع طبعاً ! » .

جلس المشعراني وجلس . سحب حازم المنديل وفكه عن التمثال . انتفض

محمد بك فاتحا فمه من شدة الذهول والرهبة :

« يا سلا ... ! ... ! ... م !! »

واختطفه ، صار يقلب فيه ، يقربه ويبعده :

« شئ يفوق الوصف ! سأحقد على من يقتنيه !! »

عاجله حازم :

« ولكن البيع ليس نهائيا مع الأسف !! »

فرحت بقوله إذ يطرق الحديد وهو ساخن ، بدت على محمد بك صدمة من نوع صدمات قطاع الطرق الذين يدعون الأصول وتشى ملامحهم ونبرات صوتههم بأنهم مدربون على اختراقها . نظرت يابوى قالت يبريقها الجهنمى إنه بيع نهائى وإن تستطيع قوة فى الأرض إلغاه ، لكنه سرعان ما تسربل بإهاب الحكماء المسالمين :

« ما المشكلة ؟! لن يكون هناك مشكلة !! »

بكل وضوح وحيدة قال حازم :

« هذا مختلف عن التمثال الذى وصفه حسن ! لقد وصف من الذاكرة !! »

صاحب التمثال لم يقبل بأقل من مائتين : مائة مقدما والمائة الثانية فى ظرف عشرين يوما ! وأنا تعهدت له عهد رجال أن التمثال أمانة عندى حتى يأخذ هو حقه كاملا ! فإن وافقت حضرتك على هذا المبلغ فإن حسن يجب أن يأخذ الآن خمسة وعشرين ألفا ليعود بها ! أو يأخذ التمثال ويرد المبلغ !! » .

نظر فيه محمد بك متمعنا باستغراب ودهشة كأنه يريد أن يقول له : أنت معنى أم معهم ؟! لكنه استبدل هذه العبارة بقوله :

« وأنت ! ما رأيك فى هذا الكلام ؟ وما رأى الخير ؟! »

بلهجة ذات معنى قال حازم :

« ما رأيته ولمسته أن الرجل كبير الشخصية وقوى جداً وليس من السهل ولا من الحكمة مما طلته فهو واثق من نفسه إلى حد الجنون لكنها ثقة فى

محبها!! وقد عالمنا باحترام وشجاعة وشهامة ولما كلمته عن حضرتك كان مستعداً
لرد الفلوس وهو على ثقة بأنها ستعود إليه كاملة ثم إننى وعدته ويهمنى كما يهم
حضرتك طبعاً أن أكون عند وعدى !! بصراحة لقد أحببته واحترمته وقررت أن
أكسبه صديقاً إلى الأبد وأنت أيضاً لو شففته ستقر به منك !! هذا ما حدث ولك
الرأى فى النهاية !! »

زام محمد بك فى تفكير عميق ثم نظر إلى المشعرانى فهز المشعرانى رأسه فى
تأييد لحازم ، وأضاف :

- « تحفة لا مثيل لها فى العالم كله ! لا يقدر على ثمنها إلا دولة !! وهى
خسارة فى البهدة بصراحة وحضرتك تفهم ما أعنى !! » .

تناول محمد بك رشفة من الكأس ثم أشعل الغليون بولاعة ثم جذب عدة أنفاس
متلاحقة . وضع التمثال بجوار الزجاجاة فأشاع فى المكان كله بهجة ذهبية ذات
أبهة وأنس . أخيراً قال محمد بك :

- « ماش ! أنا أيضاً سأنشترى هذا الرجل سأفقد له كلامه فهو لا يجب أن
يكون أرجل منا ونحن فعلاً يجب أن نحفظ به ! خلاص يا حسن ! الليل وآخره !
قوموا شوفوا لنا حجراً نشربه قبل أن يطبق هذا الباب اللعين على صدرى !! » .
تقدمنى حازم فى نفس الشرفة التى نجلس فيها . كانت الأشرعة فى مواجهتنا
على مرمى رصاصة كما بدا لى ! لكن الشرفة انكسرت فجأة إلى اليسار ثم
امتدت إلى الأمام فكأننا ذاهبون مباشرة إلى الأشرعة التى بدت كأنها فى متناول
اليد ! لكننا بينا أن الأشرعة لا تزال بعيدة وأنها تبعد قريية لأن الفيلا مبنية على
أرض منخفضة عن سطح النهر بمقدار الطابق الأرضى كله رغم ارتفاعه . أخيراً
صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الأشرعة فى العمق البعيد لاتساع
النهر. هذا الجناح من الشرفة كان متكامل الجدران لكنها جدران من الزجاج

والألونيوم وهو زجاج ترى منه كل ما فى الخارج دون أن يراك من الخارج ؛
أخبرنى حازم بذلك لما رأتى متحرجا من أن يرانا من هم على ظهر هذه السفن .
حاجة تهوس يا بوى ..

القعدة كانت متكاملة يا خال تقول للخرمان إجلس وإنس الدنيا كلها فى هذه
الجنة . حشايا ومساند أرضية ، حصائر ملونة فى أركان متعددة ، طبلبات من
خشب مصدف . فى أحد الأركان ثلاث جوزات فى قلب دلو كبير ملئ بهضاب تلج
وماء ؛ بوتاجاز صغير يشبه الكلوب ، براريد وأكواب فوق صوانى من الفضة ،
شكارة ملائكة بفحم من شجر البرتقال أشار إليها حازم قائلا :

« شوف شغلك يا حسن ! هذا فحم يشتعل يعود كبريت !! »

قامت القعدة يابوى لا ينقصها سوى الشاربين . نظرت حوالى فلم أجد أحداً
فبدا الجو موحشا بعض الشئ وخيل لى أن مخلوقات غريبة ستنتظ من النهر
لتتنقض على ؛ تراخى لى فى كل ركن شبح غامض الهوية . وكانت الستائر المتراحة
تهتز وتثير صلصلة وخشخشة وهسيسا يختلط بهدير الموج الذى يبدو مع ذلك
ساكنا تماما ؛ وثمة غناء حزين يقطع القلب يابوى كان الهواء يلعب به يطوحه هنا
وهناك . قمت مشيت نحو الأشرعة ؛ كانت كأنها معى فى الشرفة . خيل لى أنى
يجب أن أفعل شيئا ؛ مضيت إلى الداخل كى أنادى عليهم . التقانى حازم مهولا
لمنعى من مبارحة المكان . غمزنى بقطعة حشيش كبيرة كالرشوة المفضوحة ،
وغمز بشفتيه قائلا :

« شف مزاجك وحدك حتى نجى فأمامنا دقائق ربما تطول !! إسرح مع

نفسك ومع الجو هنا ولا تقلق إن تأخرنا عليك !! » .

بقيت وحتى متربعا تحت الشباك أدخن الحجر تلو الحجر حتى تعبت ، صرت أتسلى بغناء صعيدي أت من السفن ، ويمنظر السيارات رائحة جانبية بأضوائها الشبيهة برياح مرئية تكتس الأرض . سئمت يا خال ، شعرت بالجوع ، تخفت وجهي وقمت ؛ مضيت على أطراف أصابعي نحو الداخل . عبر الحوائط الزجاجية الداخلية المتقابلة رأيتهم منهمكين فيما يشبه العراك الصامت وقد تحلقوا الترابيزة الزجاجية الكبيرة : محمد بك وحازم وزأفي المشعراني و ... الحاج الأصفراوي . عجبت كيف جاء دون أن أشعر به . أخذت أقترب على أطراف أصابعي ، إرتعت يا خال ، كانت رزم الفلوس مكومة على الترابيزة كهزم سقارة المدرج ؛ البنك الأملئ أو بنك مصر لا أظنهما يحتكمان على مثل هذه الكمية من الفلوس . تدهورت رأسي يابوي : كيف يمكن لإنسان واحد - مثلي ومثلك يابوي - أن يمتلك كل هذه الأموال ؟! كيف استطاع أن يحملها ويمشي بها ؟! وإذا كان لشخص أن يدفع كل هذه الأموال في بيعة واحدة فما الذي يمكن أن يقبضه بعد بيعها وماذا يكون رأسماله ومن يكون ذلك المشتري يا خال ؟!

أخيرا هب محمد بك واقفا ، صار يلم هذه الرزم ويرمي بها في شكارة من شكائر البريد . نهضوا جميعا واقفين فاستدرت في الحال عائدا إلى مقر القعدة وركبي تهتز برعشة شملتني من شال العمة إلى أصابع قدمي . استأنفت قعدتي أمام النار الكتنى جعلت وجهي تجاههم . رأيت أشباحهم تتحرك . مضى حازم أمام الحاج الأصفراوي في المر الذي جئنا منه ، ثم سلم عليه وعاد . رأيت محمد أفندي يضع جهازا صغيرا في جيبه ويعطى آخر مثله للمشعراني ثم يمسك بلفة من ورق الجرائد منفوخة ثم يقبل نحوي فيلحق به المشعراني وحازم . اقترب مني محمد بك بابتسامة عريضة :

- « شف يا حسن يا إبنى نحن لسنا أقل رجولة من قريك هذا ! سنقسم البلد نصفين فلا نظلم قريك ولا نظلم أنفسنا ! ستأخذ الآن خمسا وسبعين ألفا

مرة واحدة ولا يبقى لكما عنزى أى شئ !! هذا هو العدل والإنصاف وأتعشم أن
تقلح فى إقناع قريبك بأن يشترينا هذه المرة ويكسب منا فى المرة القادمة !! أليس
كذلك ؟ ! « .

وضحك : فرقص قلبى من الفرح لهذه الثروة التى هبطت على من حيث
لا أحتسب . سلكت صوتى من جراب صدئ :

« يا سعادة البيه الصعيد كله ملكك ! نحن جدعان ونشترى الرجال بأغلى
من المال ! وقرئى أرجل منى ! هات المبلغ يا سعادة البيه ودع الباقي لى !! « .
ربت على كتفى بيد :

« حازم سيوصلك به إلى بيتك ! «
وناولنى اللفة فاحتضنتها بقوة . ووجدتنى أقول لىون أنرى - لكى أسبك
الشفلة :

« بهذا أكون طلعت من المولد بلا حمص ! باع البياح واشترى صاحب المال
وضاع السمسمار فى البلموطى !! « .

ضحك بصوت مجلجل . إلتفت إلى حازم :
« أعطه ألفين يا حازم ! وحلال عليه ما سيأخذه من قريبه !! « .

أوماً حازم برأسه بحركة : نحن مع بعضنا لآخر الليل ! فهزنت رأسى أن :
وماله . ثم دخلت بالبوصة على محمد بك ! فأمسكها واقفا وراح يعزف على ماء
الجوزة لحنا طروبيا بعث النشوة فى رأسى يا خال . ثم إنه جلس متربعا على شلثة
فوق حصير ملون . وحينما وقفت لتغيير ماء الجوزة لمحت على البعد فى الضؤ
الخافت حازما يفتح شنطه السيارة ويضع فيها الشكارة ويخلقها ثم يكلم الأفتدى
الواقف فى الحديقة قائلا : دعها هنا قريبة من أعيننا ! ثم يرتد عائدا . دخلت
بالبوصة على محمد بك ووجدتنى أقول له على سبيل المزاح :

- « على فكرة يا سعادة البية ! نفسي ومتى عيني أن أدخل الانتخابات لأصبح عضواً في البرلمان !! » .

ضحك حتى أبعد البوصلة عنه ماسحاً عينيه بمنديل :

- « وماله ! وهل تظن من في البرلمان أحسن منك ؟! رشح نفسك يا رجل واتكل على الله ! » .

- « هل كل واحد يمكن أن يرشح نفسه ؟! »

- « إلا أصحاب السوابق بالطبع ! وحتى هذه يمكن أن تطلعها أنت وشطارتك !! » .

- « وكيف يرشح الإنسان نفسه يا بوى ؟! »

- « يذهب إلى البرلمان ويملا استمارة الترشيح ويانتظر أياماً حتى يبلغوه على عنوانه إن كان ترشيحه مقبولاً أم لا !! فإذا كان مقبولاً تذهب إلى دائرتك وتقوم بالدعاية اللازمة لنفسك !! » .

- « دعاية كيف يا بو العم » .

- « يعني تجتمع بالناس وتقول لهم سأفعل لكم كذا وكذا من الخدمات ! ويجيء يوم الانتخابات فيتوجه المواطنون إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم ! ويتم الفرز وتظهر النتيجة !! » .

- « زين يا بوى زين !! هل يمكن أن تخدمني في هذه الاستمارة ؟! » .

ضحك ، أشار لحازم :

- « حازم يساعذك إن شاء الله حينما تتوى عندما يجين موعد الانتخابات !! » .

- « وهل للانتخابات مواسم يا بوى كالزراعة ؟! »

ضحك حتى نفذ وقاره :

- « طبعاً ! حينما يجي موعدها سأقول لك !! »

رن صوت كشكشة العصفور . سحب محمد بك الجهاز من جيبه ، رفع غطاءه فضوعف حجمه : آلو .. هو تليفون إذن بغير سلك ولا دياولو . أخذ يردد :

- « نعم ! أيوه ! وماله ! هاتها وتعال ! وحسن بك أيضا ؟ ماشى ! سنؤجل

العشاء حتى تحضروا بسلام ! »

وطوى الجهاز ووضعه فى جيبه :

- « مفاجأة يا حسن ! الشبخة سعادة آتية بعد قليل مع الحاج أحمد نوار

الدين السننى وحسن بك ! » .

- « معقوله ؟! »

- « حسن بك هذا ليس أنت بالطبع ! إنه صديق لنا من أعضاء مجلس قيادة

الثورة ! »

ثم أخذ يصفق كفا على كف ، استطرد مندهشاً ومعجباً فى نفس الوقت :

- « العالم جُن !! تصوروا أن بعض أعضاء السفارة الأمريكية هم الذين دعوا

الشبخة سعادة هذه المرة للتعرف عليها والتبرك بها عن طريق صديقنا حسن بك؟!

رجل أعمال سعودى يعمل بالسياسة تقل لهم أخبارها بأنها ساحرة تجيد قراءة

الطالع السياسى للأشخاص والدول !! يعنى تشوف بخت دولة مثلاً !! ها ها ها !!

عندها تنبؤات خطيرة بالنسبة للعالم كله والكبار السياسيين والزعماء !! قيل إن

معها كتاب سحر فرعون تجيد تقنيط أوراقه وتوزيعها على الأيام والشهور

والأبراج لتخرج بنتائج يقولون إنها صانقة ومهمة !! تنبأت لرجل الأعمال

السعودى بأشياء حدثت بحذاقها !! وزميلنا حسن بك يحلف أنها ترى كل ما فى

دماغه وبماغ غيره ويتحدث عنها مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة !! حسن بك

أرسل من أتى بها من أسيوط كما يفعل دائماً ! ذهب معها للسفارة الأمريكية

شافت شغلها هناك ثم دعاها لقضاء بقية السهرة هنا !! الحاج نوار الدين يقول الآن إن الأمريكيين قتلوا بها وأكرموها كرما زائدا خاصة أنها لا تتقاضى أى أجر وهذا ما يزيد الثقة فيها باعتبارها ليست محترفة تتكسب !! ليلتنا فل إن شاء الله !! إرفع زجاجة الخمر يا حازم واخفها فى أى مكان حتى لا يصدع حسن بك رء وسنا بالحرام والحلال !! »

سحب الجهاز الثانى من جيبه - ضغط على زر ، تصاعد الوشيش بصوت عال ، أصوات طشطشة وغليان ومواتير خلطات زاعقة ، جاء صوت رجل :

- « الشيف تحت أمر سعادتك !! »

- « مساء الخير يا شيف ! ما أخبار العشاء ؟ »

- « تحت الطلب يا أفندم ! »

- « زاد عدد الضيوف ثلاثة ! وربما أكثر !! »

- « الخير كثير بإذن الله ! »

- « سنطلبك بعد قليل ! شكرا ! »

ووضع الجهاز أمامه :

- « هذه ليلة المفاجآت السارة ! إسقنا يا حسن طاقما سريعا قبل مجئ

الضيوف !! » .

ورحت أسقيه بأعصاب مضطربة من الفرح يابوى .

أوراق السر الأعظم

ما أظن يا خال أننى سلجد شبيها بأختى سعيدة التى حققت ما يشبه المعجزات . حقيقة الأمر يا خال أننى لم أكن عرفت على حقيقتها أثناء الطفولة ؛ فطفولتى كانت شديدة شقية ، أبعدتني عن الدار مدداً طويلة يا خال نسيت فيها أشياء ولم أظن لأشياء . فمما كنت نسيته مثلاً يابوى أن أختى سعيدة هذه سعيدة الحظ من يومها تستقطب الحب من القلوب المتصخرة فهى الوحيدة التى اصطفاها عمى الفقيه الكبير أثناء طفولتها لكى يعلمها الكتابة والقراءة - رغم أنه ضرير - خيراً من كتاب القرية ومدرستها ، ولكى تخدمه - فى نفس الوقت - أثناء انشغاله فى الدرس لمريديه وطلابه وطلاب الفتوى . كل الكتب كانت فى رأسه فحين يجئ من يطلب إليه الفتوى طلب من سعيدة أن تأتى بالكتاب الخامس على اليمين من الصف الثالث للرف المجاور للباب ، ثم يأمرها بأن تفتح صفحة كذا وتقرأ من بداية السطر السابع مثلاً . فتفعل بلمهجتها الركيكة المتعثرة ولكن تلويحة العصا القاسية تجعل ذهنها صاحباً يتجنب الخطأ فى نطق الحروف وتشكيلها قدر الإمكان وهو لاينى يصحح لها . وبعد قراءتها فقرة أو فقرتين ربما صفحة أو صفتين يطلب كتاباً آخر فيستمع منه إلا صفحة أو صفتين ، وقد تنوخ البنت بين عشرة مجلدات رائحة عابدة بها مقلبة صفحاتها لكى يتمكن هو فى النهاية من إصدار فتوى مكونة من خمسة أسطر وربما أقل . ولما كان جميع أبناء عائلة أبى ضب قد فاتهم قطار التعليم فإن جميع كتب عمى الكبير قد اندفنت فى نواحيها العتيقة حتى شاطت أوراقها وأوشك أبناء عمومتى على تبيدها إهمالاً وبعزقة لولاً

بقية من تقديس موروث الورق المكتوب إكراماً لضاطر القرآن الكريم ؛ إلى أن أنقذتها أختى سعدية فأخذتها كلها إلى الجبل استجلاباً للبركة والقال الطيب .

طب ما قولك يا خال أننى أتذكر الآن لحظات طيبة ؛ إذ تحكى لنا سعدية فى الليل كل ما سمعته من عمها الكبير وضيوفه وحول ماذا دارت معارك اليوم بينهم وبينه . والله يابوى كانت تتكلم مثلهم بالنحوى الفصيح وهى بنت ست سنوات . وفى صباها كانت من اللعاضة ومرونة اللسان على درجة كبيرة ...

يالها من امرأة قوية جبارة . تصور يا خال أن رمش عينها لم يطرف حين رأتنى فى القعدة ؟ كل ما هناك أنها هزت رأسها قائلة كأنها تخاطب شخصاً رأتة من قبل مرة واحدة عابرة :

- « كيف حالك ؟ طيب ؟ الحمد لله ! » -

ثم انصرفت عنى بوجهها الذى انسدت فوقه الطرحة الحريرية البيضاء الشفافة . كان فى صحبتها الحاج أحمد نوار الدين السنى ، وذلك المدعو حسن بك عضو مجلس قيادة الثورة نو اللحية السكسوكة . تناولنا العشاء الدسم فى حضورها بشراسة نون أن تفتتح لها شهية ؛ إنما اكتفت بتمرتين أخرجتهما من حقيبة يدها الشبيهة بالصندوق السحرى قائلة إن هذا هو غذاؤها على النوم . احتراماً لها أمر محمد بك أبو شناف بإيقاف وإبعاد الشرب بجميع أنواعه جالسا أمامها كالتلميذ المذنب هو وحسن بك والجميع فى حالة ترقب لكل كلمة تخرج من فيها ..

الأضواء يا خال كانت خافتة ، هادئة ، والهواء الطرى يربى على أكتافنا بيد حريرية حانية . صوت أذان الفجر ارتفع كأن المدينة قد تفجرت فجأة بصوت الله أكبر ترجعه مئات المآذن بمكبرات الصوت فى جميع الاتجاه . نهضت الشيخة سعادة لصلاة الفجر ، فاقتاها الحاج أحمد نوار الدين السنى إلى ركن بعيد

جداً فى آخر الغرفة الواسعة ، وعاد قائم الصلاة بمحمد بك وحسن بك وحازم
والمشعرانى الذى ظهر أنه انضم على سبيل المجاملة للمصلين فحسب . وجدت
نفسى فى وضع بائس يابوس ، فقلت - غفر الله لى - وانضمت إلى الصف بغير
وضوء ، موحيا للجميع بأننى على وضوئى وجاهز للصلاة فى أية لحظة . لكننى ما
أن فعلت حتى فوجئت بالشيخة سعادة كالقضا المستعجل ترتب على كفى
بخشونة قاتلة بحدّة :

« أنت ! عيب عليك ! إذهب وتوضأ !! »

ثم فعلت نفس الفعل مع المشعرانى وحازم ! لكنها سلطت عينيهما على
المشعرانى بنظرة غاضبة حارقة : فارتبك حتى ارتعش . فقالت له :

« أما أنت فعليك أن تستحم قبل الوضوء !! »

حاول أن يفتح فمه لينطق فى احتجاج مرسوم على وجهه إلا أنها صفعته
بنظرة أمرة بالسكوت مؤنبة ، ثم أمسكت بطوق ثوبها وهزته متأقفة متشممة .
فلما رآته مصرا على غيائه قالت له بصريح العبارة :

« ألا تشم رائحتك ؟! كيف تمشى هكذا ؟! من يخطف المتعة الحرام خطفا
كاللص فيجرى والنفس عالق بجسده لا يصح أن يخطف الصلاة !! لقد أفسدت
صلاة هذين الرجلين الفاضلين !! »

ثم هتفت برفق فى أذن الإمام :

« إن الله مع الصابرين ! أقم الصلاة من أولها يا مولانا واسبقها بركعتين
للاستغفار !! »

ففى الحال سلم الإمام واقفا ذات اليمين وذات اليسار ، ثم بصوت عال نوى
الصلاة ركعتين للاستغفار ، فتبعه كل من حسن بك ومحمد بك . أما ثلاثيتنا فقد
وقفنا غارقين فى البلب : فيما عادت هى إلى مقر صلاتها . دون أدنى تردد مضينا

خلف حازم كالتلاميذ الأشقياء إلى نورة المياه كي نتوضأ . لم يجرؤ أى منا على التبجح فى وجهها والإساءة بأنه متوضئ ؛ وهتف المشعرانى وهو يخلع ثيابه على باب الحمام فى غير حياء :

« هذه الشيخة نافذة البصر ومن يشكك فيها أخرج عينيه !! » .

وقال إن هذا الحمام تاريخى بالنسبة له لأنه لن يكف عن التطهر بعد ذلك مطلقا .

على الضوء الخافت يا خال خرج الكتاب المفصص الأوراق من حقيبة يد الشيخة سعادة محاطا بهالة من الرهبة والتقديس . العيون كلها عمودية عليه . كان عبارة عن رزمة من ورق البردى الأثرى متساوية الأحجام طولا وعرضا ؛ تقريبا فى حجم كف اليد الكبيرة ، مربوط بشريط حريرى أحمر . نزعَت الشيخة سعادة هذا الرباط ، قلبت فى الأوراق بحركة من يلفظ ورق الكوتشينه . الورق كلمه ملئ بالرسوم والنقوش ، بعضها أشكال زخرفية ملوبة تتخللها شرط تشبه الأرقام ، ورسوم لوجوه وسيوف وأنية وبنائر حاجة تهوس يابوى ..

راحت ترص الورق على الأرض فى كومتين . فصلت كل كومة عن الأخرى ، فإذا بمجموعة كثيرة الورق والأخرى أقل بكثير . محسوبك - لا أدرى لم - كان يعد الورق وهى ترمى به ، فعرفت أن الكومة الكبيرة عددها ست وخمسون ورقة ، تقريبا كعدد ورق الكوتشينه الجديدة ؛ أما الكومة الصغيرة فكان عددها اثنتين وعشرين ورقة ، ورسومها تختلف عن رسوم المجموعة الكبيرة . فمجموع الورق كله ثمان وسبعون ورقة بالتام يا خال .

صاح المشعرانى وقد اقشعر صوته :

« حازم ! هل تذكر ؟! رأينا مثل هذا الورق فى النمسا !! يوم زرنا العراف النمساوى ليكشف لنا عن حفظنا فى ذلك المشوار المعقد المؤلم إياه وكنا متشائمين!

نفس هذه الرسوم ولكن على ورق حديث بمطابع حديثة وعليها أرقام لاتينية !! » .

ظهر على حازم ومحمد بك كثير من الحرج ، وغمغم حازم :

« نعم ! بينو هذا ! أظن ! » .

قالت الشيخة سعادة :

« هذا كتاب التاروت المصرى ! ورثته عن أجدادى ولكن الذى كشفه لى

وعلمنى قراءته هو أستاذى العراف المغربى الحسين بن عزيزة لعلمكم سمعتم به !! »

هتف حسن بك :

« أنا قابلته شخصيا عند الملك الحسن ! تكلمت معه ! هو رجل

مبروك وجهبذ من جهايزة قراءة الكف والفنجان فى العالم فكيف عرفته يا

ستنا الشيخة؟! » .

قالت الشيخة سعادة :

« أنا قابلته فى الحجاز عند أحد الأمراء وقام بيننا الود فى الحال حصل

اتصال روحى عاجل ! دعوته إلى مصر ليزينى من علمه وحينما أورانى نسخة

مقلدة من هذا الكتاب مطبوعة حديثا تذكرت ما عندى وجئت به من صندوق عمى

فكاد يغمى على الشيخ من شدة المفاجأة قال إنه الأصل المبارك الذى لم ينزع عنه

سحره القديم إذ هو مرسوم باليد !! فما كاد يفك لى رموزه حتى صرت بعون الله

كائننى مؤلفته ومع ذلك فكل يوم أتعلم منه شيئا جديدا !! لقد ألفه أجدادى

المصريون ليحفظوا فيه سر ما توصلوا إليه من تقدن وعلم وحضارة لكى يحافظ

عليها أحفادهم !! » .

أمسكت بالمجموعة الكبيرة لوحت بها :

« هذا ما تقول به هذه الأوراق وهى المسماة بأوراق السر الأصغر !! » .

منظرها يا خال ، وهى تتكلم عن الأوراق شارحة كل ما يتعلق بها بفصاحة

وطلاقة لم يكن غريبا علىّ يا خال ، لم يدهشنى على الإطلاق يا خال ؛ فالمنظر
مألوف لى تماما يا خال ؛ ومن زار معابد الفراعنة فى الصعيد فلا بد أنه شاهد
الكثيرين من أمثال الشبيخة سعادة . تضم وفود السياح رجالا وسيدات من
المثقفين المتعلمين تعليما عالميا ؛ ومع ذلك يتلقفهم فلاح صعيدى لم يدخل أى
مدرسة لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يشرح لهم معانى النقوش وصور الحوائط
صورة صورة نقشا نقشا فى حيوة متسلسلة مليئة بالمعلومات الثمينة المبهرة
والأحداث التاريخية الكبيرة ؛ فيستمع إليه المتعلمون دارسو التاريخ فى الكتب فلا
يجرؤ أحدهم أن يتفلس عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا
المرشد الصعيدى الأمى قد حفظ هذه النقوش عن رواه الأوائل من أساتذة
التاريخ وأضاف إلى ما تعلمه ما أنشأه خياله استكمالا وتصورا ، فلماذا أفلح فى
هذا يابوى ؟ لأنه عشق هذه النقوش عشقه لما تتطوى عليه من وقائع وحوادث
.. وهكذا بدت أختى سعيدة يا خال . ها هى ذى أمسكت المجموعة الثانية القليلة
الأوراق لوحت بها :

« أما هذه الورقات فاسمها أوراق السر الأعظم !! أثبت فيها أجدادى ما
سيقع فى الحياة وفى البلاد على امتداد واحد وعشرين قرنا من الزمان تبدأ
بميلاد المسيح يعنى ألفين ومائة سنة ؛ مضى منها ألف وتسعمائة وواحد وتسعون
فببقى عشر سنين ؛ فكل ما حدث فى السنين الفائتة وما سيحدث فى السنين
العشر الباقية مثبت فى هذه الورقات !! » .

بعينين ضيقتين سألتها الحاج أحمد نوار الدين :

« ولكن ما معنى التاروت ياستنا الشبيخة ؟ ! »

بسرعة أجابت :

« يعنى الطريق المصرى بالفرعونية يا مولانا !! »

- « أفادك الله !! » -

ثم انكمش يستمع فى شغف ؛ واستدركت الشيخة سعادة :

- « بعضهم يقول إنها الطريق الملكى !! »

نظرات حسن بك تتسع ، تعترية حالة من التحفز المتوتر ، حالة من يريد أن

يعرف كل شئ دفعة واحدة وفى الحال ، إذا به يابوى يطرقع بأصبعيه صائحا :

- « حلو ! حلو ! مهمتك الليلة ياسمتنا الشيخة أن تكشفى لنا نبوة أوراق

السر الأعظم هذه ! نحن فى عرضك ؛ نريد أن نعرف ماذا سيجرى لبلدنا فى

السنين القادمة !! »

رمقه محمد بك أبو شناف بنظرة فيها من الاستغراب والدهشة قدر ما فيها

من فضول لمعرفة ما ستتنبأ به الشيخة سعادة - وحينما تقابلت نظرتيه مع نظرة

حسن بك ظهر كئنها متواطئان على شئ خفى مشترك بينهما ، ثم اتجها

بالنظر إلى الشيخة سعادة فى شغف واضح واهتمام كبير مغلف بالمرح - قالت

الشيخة سعادة :

- « تريد أن تعرف السر الأعظم ؟ ! » -

كانت لهجتها تعكس السؤال والجواب معا ، كئنها تريد أن تقول له : أنت تريد

ذلك وأنا أيضا أريده - ثم أمسكت بالمجموعة الصغيرة فأعادت النظر فى أوراقها

وأطلعت إلى ترتيبها ثم وضعت الرزمة مقلوبة على وجهها .

المهرج

تمهلت برهة طويلة يا خال ، قلبت خلالها نظرتها الثاقبة فى جميع وجوهنا ، ثم رفعت الورقة الأولى وقلبتّها على ظهرها أمامنا ، فإذا هى رسماية تكاد تكون صورة طبق الأصل من ورقة الكوتشينية المسماة بالجوكر لولا اختلافات طفيفة جدا يا خال ، ربما اختلاف يد الرسام الحديث الذى شذب خطوطه من ظلال خطوط الرسام القديم : رجل كالبلياتشو ، يقف فاتحا صدره العريض ماذا إحدى قدميه إلى الأمام فى حركة شبه راقصة ، الفخذان مفتولان مكتنزان بعضل رشيق وكذلك الساقان فكل ساق ملفوفة بما يشبه الجورب الواصل إلى الركبة تتدل منه شراريب ، كل ساق بلون مختلف عن الآخر . فى قدميه حذاء أشبه بحذاء الأطفال كل فردة مختلفة اللون عن الأخرى أما جسده القوي فملفوف بما يشبه العباءة مشغولة عند الصدر بالقصب والكفة فى شريحة متعرجة تمتد من أسفل العنق إلى أسفل البطن ، جانبها الأيمن أزرق ، وكذلك جانبها الأيسر أما المساحة التى تغطي البطن فما بين الأصفر والزيتى ، حتى البياقة التى تحيط بالعنق ينقاسمها اللونان الأزرق والزيتى ، ذراعاها أيضا كذلك ، على رأسه غطاء أشبه بكلبوش صوفى ذى أذنين طويلتين مائلتين على أذنيه تبدو كل منهما فى عيّلها كراس حصان صغير ، اليمنى زيتية اللون واليسرى زرقاء ، بقوة ظاهرة يمسك بيسراه عصا من عصى الشرطة لكنها مغلولة إلى عنقه ؛ فى حين فرد كف يميناه رافعا أصبعه السبابة كمن يتشهد . على شفثيه ابتسامة عابثة لا مبالية ، وفى عينيه نظرة مرسلة إلى بعيد فى تفحص وإن أوحى بأنها تعرف كل شئ سلفا .

قالت الشيخة سعادة مشيرة إلى الورقة :

- «المهرج ! الورقة الزائدة ! غير المحسوبة لا رقم لها إذ هى موجودة فى البدء قبل الترقيم ! تطفو دائما فوق الأعداد ! رغم أنها لا رقم لها بين الورق فإنها محسوبة فيه يحلو للكثيرين اللعب بها بل هى ورقة الحظ !! فى يميناه العصا رمز لقوة الردع والتأديب ! وفى أصبع يسراه النذير والتحذير والوعيد !! أصبع يسراه

كانه يقول أنا ربكم الأعلى والعصا فى يمينه تقول هذه قوتى فاتبعونى لهذا فهو
مهرج وهكذا كان الفرعون قبل أن يتعرف قلب أحد أحفاده على الواحد الأحد
القهار !! ورغم أن الله قد أصبح ساطعا فى السماء وفى الأرض ووسعت رحمته
كل شئ وبيده الملك لا اله إلا هو فإن هذه الصورة بقيت فى الحساب وإن كانت
بلا رقم بقيت رغم الحساب من قبل الحساب وفوق الحساب بقيت لأن ابن آدم
جبلته الطغيان والتهريج ! بقى كورقة يلعب بها أولئك الذين فطرت قلوبهم على
القسوة والتآكل الكاذب فى معاملة خلق الله كما يلعب بها الزمن صانع كل الأوراق
!! اندساس ورقة المهرج بين الورق أمر وارد على الدوام واندساس المهرج نفسه
فى لحظة تاريخية فاصلة لعبة خسيصة من لعب الزمن الخسيس لكنها واردة بل
هى فى كثير من الأحيان مرتقبة !! ظله يبقى زاحفا أمام كل طاغية ما بقى
الطاغية طاغوتا متسلطا متسلطنا !! إنه ظل الدكتاتور وجهه الآخر قرينه
النقيض !! أرى فى الأفق ظل المهرج يفشو وهذا إيذان بقرب نهاية الطاغية !!
الطاغوت نفسه إذا استمر سادرا فى غيه ربما انقلب إلى مهرج خطير ! ولقد
امتهنت كرامة النيل ، ألقى فيه بالروث ، ركبته الكفرة الفجرة وتلك علامة الانهيار
إلى حضيض الحضيض والأفطع منه أن يتخلى الطاغية باختياره عن العبء
صراحة أو من وراء ستار وهذا يعنى أنه صائر إلى رحيل حقيقى مفاجئ !! كل
الشواهد تشير بعين قوية إلى قرب رحيل الطاغوت واعتلاء المهرج سرير السلطنة
وحينئذ تموت البلاد ميتتها الأولى فالبلاد لا تموت بنكسة أو هزيمة إنما تبدأ
الموت حينما ينزوى المسئول ويظهر المهرج وقد ظهر المهرج بالفعل فى الإذاعة
واضعا شنبه فى المصيدة وفى الشوارع ظهر الغيل فى المنديل والفة فى القائلة
والبغل فى الإبريق وكل ذلك يعنى غداً سرير السلطنة يصبح التهريج سيد الأخلاق
يرقص السكارى فوق بركان الغضب المضغوط تحت طقاطيق الأرض فاللهم لا
نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه!!» .

ألقت بالورقة مقلوبة وتناولت ورقة أخرى .

الساحر

لوحث بالورقة فى وجوهنا كى نراها جيذا ، الرسم نفس المنظر الذى نراه دائما للساحر يا خال ، أو الحاوى ، هو أقرب إلى الحاوى يا خال ، بل هو الحاوى بكل حذافيه ، رجل ممسك بالعصا السحرية القصيرة ، أنواته موضوعة فوق منضدة صغيرة أمامه : أربع كور ، علبة مستطيلة ، بوقان ..

قالت الشيخة سعادة :

– «الورقة رقم واحد : الساحر ! أول ورقة محسوبة فى أوراق السر الأعظم البالغ عددها اثنتان وعشرون ورقة !! الساحر قديم قدم الأزل كانت له فى العصور القديمة مكانة مرموقة فى قصر الفرعون وقصور السادة النجب ، وقد تطور شأن كل الأشياء فأصبح سلاحا من أسلحة العصر الناجعة فى التأثير على الناس !! الساحر بأبواقه وألعيبه السحرية المبهرة أصبح ذا شأن عظيم فى عصرنا أصبحت له شاشة فضية فى كل دار كل فندق كل كوخ كل مخيم لسوف يلعب فى السنوات القليلة القادمة أخطر أدواره على الإطلاق يذيع أنباء انتصارات السلطان الكاذبة يضلل الناس يخفى عنهم عوراتهم العارية يلهيهم عنها ينسيهم أنفسهم يجتث جذورهم من الأرض يستأصل شأفتهم يحولهم إلى قطيع من الدهماء البلهاء المخدرين لا حول لهم ولا قوة ليستمر زبانية الجحيم سادرين فى غيهم تباع الأرض من تحت أقدامهم بالجملة والقطاعى لكل من هب ودب فلا يعترض أحد ولا يأبه أحد كالحمير تلقى إليها بالشعير فتأكل وتتبعك أينما ذهبت بها يصبح شغل الناس الشاغل هو استمرار الجلوس أمام الساحر الذى يبت فى أفئدتهم كل ما تبغيه القوى الشريرة بفعله – بفعلها – يطراً على البلاد رواج كاذب تكثر الدراهم فى الأيدى وتنعدم فى الحال قيمتها يعز القوت يرخس الأدمى تتدهور الكرامة يتاجر الناس فى شرفهم فى أعراضهم فى دينهم فى تاريخ بلادهم تاكل الأم من

فرج ابنتها يموت الشرفاء والوطنيون كمدا وقهراً يرتع اللصوص والقوابون فى جميع الأروقة يعم الفساد يضرب فى نخاع السقف يدب السوس فى أوصال الأسس المتينة الراسخة يزلزلها ، والساحر يعرض على الناس كل صنوف الفسق والفجور بذريعة التثنية والتسلية وهو فى الواقع يكرس لها تكريساً !! المستفيدون من انتشار الفساد يكثرون ومعفرو جباههم تحت أقدام أثرياء النفط يكثر عددهم تحت راية الدين والدين منهم براء !! يضيع الفقراء كل الضياع تنمحي صورة الوطن من الأذهان من القلوب المرهقة !! التلاميذ فى المدارس يتعلمون العهر مبكرا لا يقوى المعلم على منافسة الساحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصبح الساحر نفسه بصندوقه السحري الصغير ملائذاً يصبح أفيونا إدمانا ترياقا أسود وحينئذ تموت مصر ميتتها الثانية ، فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه !!» ،

ألقت بالورقة مقلوبة فوق زميلتها ، وأمسكت بالورقة التالية لها .

الكاهن

مرسوم عليها صورة سيدة تمسك هى الأخرى بالعصا يا خال ، لكن العصا أطول من قامتها يا خال كالحرية ، الأرض من تحتها ضيقة يا خال ، لونها فاتح . تشير المرأة بيدها اليمنى إلى الأمام : ثمة طاووس واقف تحت قدميها ككلب حراسة ، حاجة تهوس يابوى ، يمضى الطاووس بجوارها فى نفس الإتجاه ، المرأة ترتدى ثوبا أحمر اللون بغير كمين فهى إذن عارية الذراعين يابوى وفى خصرها حزام أزرق اللون ، أما لون وجهها وعنقها وساقها فلون السمن البلدى يا خال ، تغطى رأسها - فوق شعرها المرتب حتى عنقها - طاوية تشبه التاج وما هى بتاج ، لونه أخضر بغرة صفراء ، ساقها اليمنى لحارية واليسرى نصف مغطاة بما يشبه بقايا جورب . يدها اليمنى تشير إلى الأرض ، المرأة جميلة

يابوى، يحلو لك أن تقبلها فى جيدها وعنقها وسمانة ساقها اليسرى التى انحسر عنها الثوب ، قالت الشيخة سعادة وهى تنقل بصرها بين الورقة وعيوننا الشاخصة :

- «الورقة رقم اثنين ! ورقة الكاهن الأعظم هذه السيدة الممسكة بهذه العصا الطويلة كالحرية هى الأم والزوج والعشيقة والأخت والابنة هى أيضا ذلك الطاووس الذى يحازى قدميها !! جسدها كما ترون يتفجر بالأنوثة الطاغية الرزينة السهتانة تلك هى مؤهلات الكيد العظيم إذ هى الفتنة والردع فى آن ، بها صارت رمزاً للكهانة للفجور فى آن معا وذلك تبعاً للمناخ الحاكم ففى عصر التهريج والفتنة يظهر وجهها الفاجر ينمو الطاووس حتى يطاول قامتها إذ المهرج دائماً أبدا سعيد الحظ ولهذا فورقته فى لعبة الورق تسمى بالمحفوظ !! ولأنه يعتلى الأريكة عقب فترة من الشدة والقهر فإنه يحظى بالهتاف والتأييد حتى ممن لا يحبونه ولا يحترمونه ! لا غرابة فإنه يترك لهم الحبل على الغارب ! وغدا أو بعد غد تنفتح كل المنافذ على كل المنافذ تسيح الأشياء فى الأشياء يمارس الجميع الجنون فى لذة فائقة تصير حرائر الوطن عاهرات تتحكم المرأة الطاووس فى رقاب الرجال تمسك دفة الأمور من وراء ظل المهرج باسمه تبيع كل شئ تبيع كل شئ تطول العصا الحرية فى يدها تصل إلى أبعد مكان فى قلب العباد تلك هى سنة الضلال والانحراف ! لقد خلقت حواء من الضلع الأعوج فى آدم كما تقول الأمثال فاعوجاجها منسوب لابن آدم وهى لا تطغى وتتجبر إلا فى عصر يخلو من الرجال الحقيقيين يخلو من المعنى الكبير لكنها إن شعرت بالمعنى الكبير حولها مع ندرة الرجال فى نفس الوقت صارت أعتى وأشجع من بعض الرجال قدمت ما لا يقدرون عليه إلا ان حساب النجوم والأفلاك يشير مع مرسوم الورق إلى أننا مقبلون على أيام بلا معنى فلا مجال بالطبع لأى معنى والمهرج فوق يمسح

لوجوده نفسه كل المعانى كل القيم كل الرجال كل الشجعان فاللهم لا نسألك رد
القضاء بل نسألك اللطف فيه!! .

ورمت بالورقة وسط دھول مطبق من الجميع .

الملكة

الصورة لامرأة أخرى يابوى لكنها من طراز آخر تبدو كالملكة يا خال بل هي
ملكة على رأسها تاج ، قد جلست على كرسى العرش ممسكة بيمينها عصا
الصولجان، تشير بأصبع يسراها إلى أعلى كأنها تقول إن الله واحد ، رشيقة
نحيلة الجسد يا خال لكن صدرها محدد تحديداً مثيراً بل إن بقعة سرتها بارزة
تحت قميص أحمر ، فتحة صدره مشغولة بكلفة صفراء ، يلتف حول جيدها عقد
من طابقين من فصوص لعلها من اللؤلؤ ، للقميص كمان كاسيان حتى المعصم ،
الكم الأيمن أحمر والأيسر أصفر على أخضر ، من حول الخصر النحيل ينساب
ثوب سخي كثوب الزفاف ، يتداخل طياته في موجات . ما فوق الردفين المكتنزتين
والفخذين يتداخل اللون الأخضر مع اللون الأصفر شاملاً مسند الكرسي الأيمن ،
وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح . منظر
في غاية الجمال يابوى ، لا نقل لى الملكة نازلى ولا فريدة ولا نور ولا ناريمان ولا
الشاهبانو التى نسمع عنها فى إيران ، لا يابوى ، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوى ،
حاجة تهوس يابوى . قالت الشيخة سعادة وهى تجاوبنا بابتسامة مشرقة فياضة
بالذكاء اللامع فى عينيها :

- «الورقة الثالثة : الملكة ! ترون الحكمة والحشمة على سمتها ولذا لن يكون
العصر عصرها إنما هو عصر الملكة الزائفة التى تمتطى ظهر المهرج يصبح
الناس جميعا من تحتها حميرا وحمارين !! الملكة الأصلية جبلتها العقاف والملكة
الزائفة جبلتها الإسفاف !! الملكة الأصلية برقعها الحياء والملكة الزائفة لا برقع

لها !! الملكة الأصيلة تحنو على شعبها والملكة الزائفة تمتص دمه !! الملكة الأصيلة لبست ذات يوم عدة الحرب خاضت بحار النار أوقعت بالقياصرة في شر أعمالهم والملكة الزائفة عما قريب تخوض أنهار المال توقع بالسماصرة الجبابة في شر أعمالها هي !! الملكة الأصيلة مفطورة على العطاء والملكة الزائفة سوف تستلب الكحل من العيون !! كل الملكات لسن بقديسات هذا شئ بديهي معروف ولكن ملكة أصيلة لديها بعض الإنحراف خير ألف مرة من ملكة زائفة تتظاهر بفعل الخير والتقوى والصلاح فالملكة الأصيلة لديها من الروادع والتقاليد ما يحكمها أما الملكة الزائفة فليست محكومة بشئ سوى اهتبال الفرصة المتاحة للثراء واستعباد خلق الله وقانا الله وإياكم شر ما تخبئه لنا الأيام المقبلة من مفاجآت ضارية!!» ..

ورمت بالورقة فكأنها نزعَت من دماغى قطعة من ظلام المخ رمت بها إلى بعيد، ذمة ودين يابوى إن هذه المرأة فيها سر إلهى .

الملك

الصورة كما هو واضح يابوى صورة ملك أو إمبراطور يجلس على كرسى العرش آخر أبهة يابوى ، مرتديا التاج فوق رأسه ، ممسكا بيمنه الصولجان ، وييسراه ما يشبه الدرع ، أظنه الدرع يا خال ، أشبه بالذى أراه فى تصويره أبى زيد الهلالي وهو راكب على الحصان ممسكا بالسيف وبهذا الشئ الحديدى الذى يتقى به الضربات ، لون التاج أزرق على أصفر على أسود على أحمر ، وعلى كتفيه وشاح أحمر اللون على الذراعين بشرائط أزرق فاتح على الذراع الأيمن . جزء من ظهر الوشاح أسود اللون يغطى الجنب الأيسر للملك أما بطنه كلها فعارية ، وبقية الجسد ملفوفة بثوب أزرق فضفاض تمتد ذيلوله على الأرض وينحسر عن الفخذين من فوق الركبتين حيث يتضح أن الركبتين ملفوفتان بلفاف

يشبه جورب النساء أصفر اللون فاتح . أما الصولجان فلولونه بين الأصفر والأخضر فى خطوط طولية وهو عبارة عن عصا تشبه الشمعة فى أعلاها بقايا شعلة لم تنطفى لونها أحمر . وأما الدرع فلولونه كريمى ، قالت الشيخة سعادة :
- « الورقة الرابعة : الامبراطور !! عقدتنا الأزلية تختلط بدمنا منذ الأزل !! أزلنا الملكية لكننا لم تلغ الملك إنما غيرنا اسمه فحسب ! ذهب الملك فجاء الامبراطور يسعى لتوسيع ملكه ليشمل أمة محمد !! عيب المصرى منا أنه إذا اعتلى الأريكة صار امبراطوراً فى الحال ونسى كل شئ أمام ذلك الكرسي اللعين مغير النفوس والأحوال !! من يلبس ثوب الامبراطور ويجلس على كرسيه ممسكاً بالصولجان لا يكون امبراطوراً صحيحاً حتى لو امتلك الجيوش والاموال والأنصار والحاشية والأبهة إنما الامبراطور الحق هو ما ترونه فى هذه الصورة يمسك الصولجان بيد ودرع الحرب باليد الأخرى : الحكم والمسئولية الشرع والقوة !! يقول الدرع فى الصورة إن الامبراطور فى حالة تاهب مستمر لأن ينزل الميدان بنفسه يخوض الحرب دفاعاً عن امبراطوريته حتى ولو مات فى سبيلها فالموت هنا شهادة وبطولة واستمرار للتألق والقوة أما من لبس ثياب الإمبراطور فقد أمسك الصولجان بيديه الاثنتين والصولجان وحده ليس يحميه ! يريد أكل الحلوة بغير نار ! يأكل الحلوة والنار للمخاليق فسبحان الملك الأعلى فمن يجعل من نفسه امبراطوراً وهو ليس بامبراطور حقيقى شرعى يكون قد حمل نفسه مسئولية جسيمة سوف ينوء بحملها لا محالة كمن يحمل قرية مثقوبة تخر على دماغه !! يقول حساب النجوم وحساب الحياة وكل الحسابات إن القرية خرت كل مائها على دماغ الإمبراطور الزائف فأصبح مبلولاً وصبر الناس قد فاض مع مياه هذه القرية المثقوبة !! لقد مات حلم الامبراطور وتدهورت أركانه فمات الإمبراطور بالتبعية وهو الآن يجرى ويتلطط من حلوة الروح وإن هى إلا ساعات ويلفظ بقية

أنفاسه بفعل فاعل أو من تلقاء نفسه ! تقول الحسابات أيضا إن الناس لن تحتمل عهدين متشابهين فلا نفس الكلام ينفع ولا نفس الخطب تلهب الحماسة !! تشير الشواهد إلى أن القادم الجديد ، وإن جنح إلى الترفيه ورخى الحبال وفتح المنافذ سوف يختار صورة جديدة للإمبراطور الذى يكونه سوف يغير شكله فحسب سيكون امبراطورا من بين الشعب وباسم شعبى خالص لكنه سيكون أشد صلفا وغطرسة وتشدداً من أى امبراطور حقيقى لكى يقنع نفسه أولاً بأنه على مقاس الكرسى وأن أحداً من رعاياه لن يستهزئ به أو يستهيفه سيجد نفسه مضطرا لإطلاق يديه فى البلاد قتلا وسجنا وتشريدا وتنكيلا ، سيطيح بكل من يظنه خصما له فمن الصعب على المهرج أن يتصرف كإمبراطور حقيقى يملك صفة العفو عند المقدرة والقدرة على زجر الصغار وردع الكبار بحسن السلوك ومثاليته سيظل دائما أبدا فى حاجة لتأكيد امبراطوريته يتلذذ بطعمها قدر الإمكان ولسوف يذوق حلاوة الكرسى بالطبع فيصير مستعدا للتنازل عن كل شئ والتغاضى عن كثير من الأمور فى سبيل أن يظل امبراطورا حتى لو استعان بقوة الشيطان !! فى عهده تموت كل الأشياء الجميلة الزهر والنهر ونسمة الدنيا !! يذهب من كان حكم باسم الفقراء يخلفه من يحكم باسم الأغنياء لكن من يظلم الفقراء لا يكسب هذه سنة الحياة ولا أحد يملك لسنة الحياة تبديلا !! ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع واسوف يقصف ظلمه عمره لكن كرسى الإمبراطور أبدا لا يبطل سحره فالله لا نساك رد القضاء بل نساك اللطف فيه!!! .

ورمت بالورقة كأنها تستعيز بالله من شرها يا خال .

الحكيم

الصورة مألوفة لى يابوى ، إذ هى قريبة الشبه من تصويرة رأيبتها كثيرا فى كتب التلاميذ وفى المجلات يقولون إنها لأمير الشعراء أحمد شوقي ، غير أن هذا

الرجل عاري الصدر والذراعين بارز العضلات كالمصارع ، يسند رأسه على يده اليسرى كثنوقى بك بالضبط يابوى ، ويتدمج فى التفكير ، مطلق اللحية ، ولحيته مدببة بشعبتين ، وعلى رأسه طاقية فى أعلاها مثلثات زرقاء وصفراء ، يجلس على صخرة من صخور الجبل ، نصفه الأعلى مغطى بشال كبير أزرق اللون فى أطرافه شراريب صفراء ، يمسك بيمناه عصا برأسين متقابلتين ، كأنها تريد أن تقول : سكة الحكمة سالكة من الناحيتين ، أمامه نسر رابض تحت قدميه كما لو كان هذا الرجل يشغل مدرباً لهذا النسر يابوى ، وهاهوذا قد أمره بالقعود تحت قدميه صاغراً ففعل ، ولابد أنه دربه على الرقص وعجين الفلاحة أيضاً ، النسر لونه أحمر على أصفر على أخضر غامق كلون صخرة الجبل ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الخامسة : الحكيم ! روح مصر الباقية ما بقى الدهر ! لا يسخرن أحدكم من عيال مصر الذين يقولون : نحن الذين دهنا الهواء بالدوكو ونحن الذين عبأنا الشمس فى زجاجات فهذا القول فيه من الصحة نصيب كبير !! هاكم هذا الحكيم المصرى الذى فعل ما لا يستطيع فعله أحد ! فلإنسان أن يدرب القرد أو الفيل أو الأسد أو حتى التمساح لكن أن يدرب طائراً يخترق الفضاء فهذا هو المستحيل سيما وإن كان هذا الطائر نسراً ، ولكن هاهوذا النسر يقعد بين قدمى الحكيم المصرى قعدة التلميذ المؤدب !! الحكيم المصرى لم يدربه بالقوة ولا بالسحر ولا بالفهلوة إنما دربه بالحكمة وهامى ذى عصا الحكمة فى يمينه برأسين إن ذهب هنا رأت وإن ذهب هناك رأت يعنى عصا الحكمة صائبة أينما اتجهت أماما أو خلفا يميناً أو شمالاً شرقاً أو غرباً !! ذلك هو صبر المصريين على البلاء . الصبر الذى يظنه الأغبياء تلبداً واستسلاماً للعبودية ! الصبر الذى بنى الأهرامات وامتنى النيل وشيد للعبادة بيوتاً ذات عمد راسخة ! الصبر الذى

نقش على الحجر الصوان قصة الخلق والحياة قبل الموت وبعده ! الصبر الذى حنط الأجساد بعد صعود أرواحها إلى بارئها ! هو صبر من الحكمة وحكمة من الصبر فإن رأيتم المصرى يمشى لاهيا خلى البال غير معنى بمن يركبه من يمض دمه من يستعبده فاعلموا أنكم مخطئون إن تصورتموه هكذا لأنه فى الواقع يعرف كل شئ يدرك كل شئ إلا أنه حكيم طويل البال جبلته الصبر على الزرع حتى ينمو وعلى الأرز حتى يستوى !! كم قنيت أمم وبادت شعوب ودالت دول إلا مصر بقيت منذ بدء الخليقة وتبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها بفضل هذا الحكيم الشارد فى ملكوت الله ممسكا بعضا الحكمة يدرب بها النسور الجوارح وما أظن حكامه أشد بأسا من النسور ! لقد صبر عليهم وروضهم حتى فنوا جميعا وبقي هو !! يقول لى الورق إن البلاد فى قابل السنين تجتاحها الرياح الهوج من كل ناحية من الداخل ومن الخارج تقلب أعاليها فى أسافلها ترفع الخسيس تخسف الأصل تشعل النار فى الأخضر واليابس فكان القيامة قامت فأذهلت كل مرضع عن رضيعها فجرت الأرض بالحمم وإن ينقذها فى النهاية سوى حكمة هذا الحكيم الذى نصت عليه وسجلته خطوط الأولين فى هذا الورق فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه !!

ورمت بالورقة كأنها تنفض يدها من ذنب تبرأت منه .

العاشق

الصورة واضحة يا خال : هذا عاشق ومعشوقته يقفان معا فى خلوة . فتى وفتاة أجمل من بعضهما والله يابوى ، يقفان متجاورين متقابلين فى أن معا ، يمتانها فى يمتانها ، يسراها على صدره ويسراها على ظهرها ، هى ترتدى فستانا أزرق فوقه بطانة حمراء كالمعطف مفتوحة يلبو من الفتحة قميص حريرى رقيق أصفر اللون يبرز صدرها فى كرتين متجاورتين ، شعرها مصفف إلى الوراء

كالوشاح الأسود أما الفتى يابوى فيرتدى ثوبا يشبه الفستان أزرق اللون على كتفيه ظلال حمراء ، يصل إلى ما فوق الركبتين حيث يبرز من تحته سروال حابك على الكاحلين ، فى قدميه حذاء أحمر اللون كالسروال ، فوق رأسيهما يابوى ، يحلق ذلك الطفل ذو الجناحين أنت تعرفه يابوى فلا بد أنك شاهدته كثيرا مرسوما على دائر ناموسية السرير يمسك بيديه نبلة يسد منها سمها فى اتجاه رأسيهما وإذا هما فى هذه الخلوة يا خال يتسلل نحوهما رجل خنيس ينضج شكله باللؤم والخسة والتآمر ، شكله غير مريح يا خال ، بلا رقبة ، رأسه مغروسة فى كتفيه الضيقتين عليه طاقية كطاقية الخفراء مكبوسة فيه ، يرتدى ثوبا أحمر اللون كالدم بكورنيش أزرق ، فوقه عباءة برتقالية اللون تخفى ذراعيه فلا يبين منهما سوى يدين ، اليسرى تستند على عصا طويلة رفيعة ، واليمنى تشير بأصبعها السبابة نحو الفتى والفتاة فى توعده ولوم وتهديد ، ويظهر يا خال والله أعلم أنه أب الفتاة جاء يضبطها فى هذه الخلوة المرحجة ..

قالت الشبيخة سعادة :

- «الورقة السادسة : العاشق ! العشق مكتوب علينا وهذه نعمة من نعم الله لا يمن بها إلا على عباده الصالحين الأتقياء ! قلوبنا والحمد لله مفطورة على الحب والحب هو باب الحياة وهو الماء الذى يرويها يجعلها تورق وتخضر تثمر تعطى !! لكن الله تعالت حكمته ابتلانا دون خلقه جميعا بالعزل لا بد من عازل يبعثر القلوب يششت الحبيبين يفرق بينهما كغراب البين إن لم يكن أبا أو عمأ أو خالاً أو أخا أو أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه يطلب أن يسرى الحرمان على غيره إشفاءً لمرض فى قلبه !! من تراه يكون مسئولاً عن تجريم الحب وتحريمه فى بلادنا !! أى شيطان أسود القلب أصاب نفوسنا بالعطب حتى أصبحنا نقف لكل حبيبين بالمرصاد !! أغلب اليقين أنه جاء من القبائل وخرافة الأنساب التى ظن الرجال الواهمون أنهم قادرون على حصار

الأرحام حفظا لها مع أنه لا حافظ للنسب والأرحام سوى الأرحام نفسها إذ هي
مجبولة على الإنغلاق من تلقائها دون غير المرغوب غير الجدير غير الشرعى فما
بالك بعد الوعى والتربية الصحيحة والثقة فى الأنثى باعتبارها أصل الحياة ؟
يقول الورق إن العزول الذى ابتلينا به قد تجدد هذه الأيام فى عزول أكبر لا قبل
لعاشق باحتماله : فمن ذا الذى يستسلم اليوم للحب - حتى ولو كان مباحاً - وهو
يعلم أن لا جنوى منه ولا نهاية لطريقه المحفوف بالصعاب والأشواك ؟ من ذا
الذى يجرؤ على المضى فى طريق الحب الصادق النية وهو لا يدري أين يبيت ليله
ولا أين توجد لقمته ؟ هج الشباب وطفش إلى بلاد المال يطلب مسكناً ومركبة
وهمة ولقمة فلئن أفاضت عليه بلاد المال فتاتها الكثير نقلته إلى دنيا غير الدنيا
أنسته الحبيب الأصيل وضعت نصب عينيه تطلعا جديداً امرأة سلعة لا حبيبة ولا
قريبة !! وغداً يرحل كل الشبان لا يبقى فى البلاد سوى العجائز والأرامل
والعوانس الجميلات المائسات البائسات لا يبقى على المداود إلا شر البقر !!
تتعب البلاد فى الخلفة والتربية لكى ينتفع غيرنا بفلاذات أكبادنا !! وقديما قيل
لجحا أين وطنك يا جحا ؟ قال هو مؤخرة بقرتى !! فلا يفرنكم إذن قول القائلين
من المغتربين وراء المال إن الوطن ساكن فى قلوبهم أبد الدهر مهما غاب عنهم
بل كلما غاب عنهم !! لا ! ربما كانوا صادقين لكن الأصدق منهم تجارب الزمن
القائلة بأن البعيد عن العين بعيد عن القلب يعنى أن بلاد المال شاء هؤلاء أو أولئك
أم أبوا استأصلت شأقتهم من أرض الوطن فلئن عادوا إليه فى خريف العمر
متخمين منعمين فى رغد من العيش فإنهم محض سكان لا مواطنين !! لكل قاعدة
استثناء بالطبع لكن المرئى لنا دائما أن من يكسب المال من بلاد أخرى ومن
طرق سهلة أو ملتوية أو غير مشروعة فإن المال دائما يباع بين قلوبهم وقلوب
حتى نوبهم فما بالك ببنى وطنهم !! حينئذ تموت مصر ميتتها الثالثة فاللهم لا
نساك رد القضاء بل نساك اللطف فيه !! .

ورمت بالورقة فى هدوء وحنو كأنها مستمرة فى مناخ العشق وبنفس الهدوء تناولت الورقة التالية .

العربة

الورقة يا خال مقسومة إلى نصفين بالعرض . النصف الأعلى مبروز بما يشبه ستارة المسرح المفتوحة ، وقد وقف فى وسطها - كأنما على خشبة المسرح يا خال - رجل يشبه القائد قوى البدن مفتول العضل على صدره رسم يشبه الدرعين فوق الثديين من الواضح أنهما جزء من تفصيلة البدلة التى يرتديها وهى أشبه ببدة نابليون بالضبط كما أتذكرها فى كتب التلامذة وعلى كتفيه نجمتان كل نجمة عبارة عن دائرة صفراء اللون ببيرواز دائرى أزرق كلون الكمين . يتوسط الدائرة شكل دقيق يشبه الهرم . أما البدة فأعلاها أزرق اللون وأسفلها أحمر فاتح ، ومن تحت شكل الدرعين الصغيرين اللذين هما جزء من القماشة ينحدر مثلث أصفر اللون بداخله رقوش مزرقة ، يغطى منطقة السرة كلها ، شعره كشعر الأنثى ممدد على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا طاقية تشبه الطاقية الورقية التى تباع للأطفال فى الموالد . حافتها العليا على شكل مثلثات متجاورة . ذراعه الأيمن مثنى ويده على خاصرته أما ذراعه الأيسر فيمسك بعصا صغيرة شكلها يشبه ريشة الكتابة وسنها يبدو من بعيد كأنه شعلة ، ولونها أحمر فاتح على وجهه عزم وتصميم وإصرار فيما أطلق عينيه بالنظر إلى بعيد . حاجة تهوس يابوى ..

أما نصف الورقة التحتى يا خال فتحمله عربة يجرها جوادان عريان كل منهما يمضى فى وجهة مختلفة ، أى والله يا خال ، حيث يجنح الجواد الأيمن إلى الجهة اليمنى ، ويجنح الأيسر إلى الجهة اليسرى ، غير أنهما ليسا منطلقين إنما يمشيان فحسب فى خطو منتظم متناسق ، كل منهما يمد القدم اليمنى فيما انكسرت لها اليسرى . الجوادان لونهما أصفر أما العربة فلونها أزرق ومقعدها أحمر فاتح . فبدت الصورة يا خال وكأنما القائد واقف فى شرفة قصره يرقب العربة التى صارت تحت بصره تماما ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة السابعة : العربية ! ها أنتم ترون القائد الحكيم واقفا في شرفة القصر وقد انزاحت عنها وعنه الستار يمد بصره إلى بعيد يكاد يعانق ببصره حدود الوطن يرقب من قد تسول له نفسه الإقتراب من حرمة الحدود المحمية ! ذلك واجب لابد منه إذا ما قام وطن فلا بد لكل وطن من قائد ولا بد لكل قائد من هذا الواجب وإلا ما كان قائدا !! بعضا الحكمة هذه يوجه هذه العربية إلى حيث يفقدى الوطن !! فى الصورة عربية واحدة لكنها بحركة الجوادين مهياة للسير فى هذا الإتجاه وذلك معا !! حكمة الأولين أنت بورقة العربية بعد ورقة العاشق مباشرة فى الترتيب لأن الأمور هكذا مرتبة : الوطن موطن العاشق وعشقه ' عشق العاشق للمعشوق هو أغنية المواطن للوطن حرارة العشق هى نار القتال فى سبيل الوطن قلب العاشق ومنزله العامر !! العربية عند أهلنا القدامى لم يكن لها إلا وظيفة الجرى إلى الدفاع لكننا يا ألف حسرة لم نقرأ هذا الورق فجاءنا قائد غير حكيم توفرت له العربيات بكل أنواعها إلا عربية الحكمة لم تتوافر له فأوكل بالمهمة أهل العز والرفاهية الذين أراوا اغتصاب كل شئ ظنوا الدفاع عن الوطن نزهة يعودوا منها بمغنم شخصى ظنوا الدفاع عن الوطن يعنى الدفاع عن الإمبراطور فقط وحماية حياته وحده فكلهم مجند للبحث عن أعدائه يؤلفون له الأعداء من صنع خيالهم وفى هذا السبيل يقضون على كل من لا يروق لهم أو لا ينضوى تحت لوائهم حتى صار الأمن يعنى أمنهم الشخصى والجميع تبعاً لذلك أعداء لهم فأوقعهم الله فى وحل شرورهم لكن العدو حصد فلذات أكبادنا ونور عيوننا وعتادنا وأرضنا وسماعنا !! ولقد يجى غداً من يستفيد من الدرس المؤلم فيرد للوطن بعض هيئته المفقودة لكن الواقع ينذرنا بأن القريبين من الكرسي ليسوا من خيرة الرجال وإن كانوا ملء هدمهم ومراكزهم وملء السمع والبصر هكذا

شفناهم عرفناهم لسعت ظهورنا أسواطهم حولنا إلى عبيد أذلاء فرقوا بين المرء وبنيه بالرعب بالخوف جعلوا من المرء مخبرا على أمه ! انقسم المرء على نفسه أضعفوا الناس قتلوا فيهم روح المحبة روح العشق لوطن ملأوا الهواء بالأكاذيب وهذا ليس من شيمة الرجال !! غداً ينزاح الكابوس فينطلق المارد الحبيس لا ليصنع مجدا بل ليعب من الحياة يقنى للفوضى وهو معذور إلا أن هذا هو ما يرجوه أشباه الرجال الذين يتأهبون اليوم للوثوب على الكرسي فمما يوافق هواهم أن يلهو الجميع في العبء من الحياة بآثر رجعى لينصرفوا هم إلى تثبيت ملكهم بإرضاء القوى الأجنبية فيقاؤهم على الكرسي مرهون برضاء القوى صاحبة المصلحة في خير بلادنا !! يقول الورق : أفيقوا أيها القوم واقربوا هذا الرمز لتعرفوا أن كرامتكم مرهونة بكرامة هذه البلاد التي تأويكم وتستر أعراضكم وترويكم بنيلها وتدقنكم بشمسها وأن كرامة هذه البلاد مرهونة ببقائها قوية ذات بأس وهيبة وأن هذه الفترة مشروطة بقائد ممسك بعصا الحكمة وعريه حرب تجرها خيول عفية !! يقول الورق هذا من عصور طويلة مضت لكننا قد حيل بيننا وبين الأصول فباتت أقدامنا على سلم النزول هابطة فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه!!» .

إستقرت الورقة فوق زميلاتها .

العدالة

في الصورة ياخال امرأة ذات صدر ملآن بثديين متخمين بالأمومة يابوى ، يشعر المرء أمامهما بالطفولة ياخال ، لكنها عمياء يابوى ، وملامح وجهها في غاية البراءة يابوى ، تضع على رأسها طاقية صفراء اللون بظلال مزرقّة تشبه شكل الهرم ، وخصلات من شعرها نافرة في فوضى متسقة ، ترتدى ما نسميه اليوم

بالبلوزة : نصف كم زرقاء اللون على كتفها شارتان صفراوتان برقوش مزرقّة، أما لون بشرتها وساعديها فلون الزيت الفرنسي تقريباً يابوى ، من تحت الإبط الأيمن - مع استدارة الخصر ومن منبت الثديين المتكورين تحت الثوب - تتساب ملاء حمراء اللون تلف بقية جسدها ، تماماً كينت البلد المصرية القديمة يا خال حينما تترك الملاء اللف تنزلق عن كتفها فى إهمال لتبرز كنوزها المستورة ، لكن ساقها اليمنى بارزة من الملاء ، ملفوفة فى جورب يميل إلى الزرقة ، وفى قدميها حذاء أصفر اللون ، أما ساقها اليسرى بقدمها فمختفية تحت الملاء يابوى ، تمسك بيدها اليمنى سيفاً مرفوعاً إلى أعلى ، ويدها اليسرى ميزاناً معتدل الكفتين ..

قالت الشیخة سعادة :

- «الورقة الثامنة : العدالة !! السيف فى يمانها وفى يسراها الميزان متوازن الكفتين : القوة والعدل ! فلا عدل بغير قوة تسنده تقرضه ، لكنها كما ترون عمياء ! يقول ما بينى وبين الورق إن عماء العدالة يأتى حينما يرغبها الإمبراطور على العمل لحسابه الشخصى تحكم بما يراه هو على من يعاديهم هو بالحق أو بالباطل !! ولقد تحققت نبوءة الورق منذ سنوات قليلة يوم هجم البلطجية المدعومون بقوة الإمبراطور على كبير القضاة مشرع القوانين فضربوه فوق منصة الحكم ضرباً مبرحاً أهانوه أهدروا كرامته دهوروا كل هيئة القضاء إنتقت العدالة أصيبت بالعمى ومن غد يسوء الأمر أكثر فأكثر فالحفظ الذى سيرث العدالة مفقوداً العينين جاهزة سوف يلوى عنق الميزان يحرف سيف القوة ليصبح مسلطاً على رقبة العدالة ذاتها فتتفتح السجون تبتلع الصالح مع الطالح العاقل مع الباطل تحتجز اللصوص الصغار سارقى طعام يومهم لتخلو الساحة لكبار كبار اللصوص سارقى الأقوات والمصائر والأحلام والأقراخ والدول يتوه فى

المعمعة كل الأبرياء ينمحي صوت الحق تموت روح المقاومة وحينئذ تموت مصر
ميتها الرابعة لكن يبقى فى الجسد ذبالة نبض يغذيها زيت من عرق الفلاحين
والصنایعيه وصفار الموظفين الشرفاء يبقى الأمل معقودا على قلة من حاملى
ميزان العدالة ممن جرى فى عروقهم سر مصر ذات الأرواح السبع فاللهم لا
نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه !!» .

ورمت بالورقة فى شئ كالنأس يا خال ، وأمسكت بالورقة التالية ولوحت بها
فى وجوهنا بتمهل يعطينا جميعا فرصة تأملها .

الناسك

صورة رجل عجوز كحكوح . شكله يا بوى أقرب لشكل قسيس ، يرتدى جبة
مقفولة تلف جسده من رقبته إلى قدميه ، لها زنط مثل القرطاس يمكن لبسه فى
الرأس لكنه مطروح على كتفيه أما الرأس فعارية ، صلعاء من الوسط كجزيرة
بيضاء تحيط بها دائرة من الشعر تغرز فى مؤخرة الرأس تخف فوق الجبهة فكأنه
يلف حول رأسه حبلا أسود ، الوجه مشطوف بفك مستطيل يختفى تحت لحية
منسقة قصيرة الشعر ، أنفه دقيق وفى مستوى الجبهة بالضبط لا بروز له ، عيناه
ضيقتان كليلتان تدققان بوهن فى البعيد ، يده اليمنى ممبودة بفانوس منير ، ويده
اليسرى تتكى على عصا ، الجبة لونها بنى فاتح والعصا زرقاء اللون وكذلك
الفانوس ..

قالت الشيخة سعادة .

« الورقة التاسعة : الناسك !! يمر على البلاد خريف كخريف عمر هذا الرجل
الفاقد الهدف فى شيخوخته الحائرة تنحني قامة الوطن !! ها أنتم ترون أنه لا
إشارة لليل أو الظلام فى الصورة بل إن الفراغ المحيط به كله أبيض فيما
المصباح مشتعل مع ذلك فالمصباح إذن إشارة إلى ظلام طغى على نهاره حجب

عن بصره كل مرئى !! شئ كهذا سوف يحدث للبلاد فى قابل السنين حيث تكثر الأموال فى البعض وتتعدم فى أيدي الكثيرين فمن يكثر المال فى أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى الإتفاق تفقد الحياة معناها ومن ينعدم المال فى أيادهم ويصبح لا عمل لهم سوى البحث عنها بغير طائل تفقد الحياة معناها عندهم أيضا فما أسرع ما يشعر هؤلاء وأولئك بخريف الحياة بغضب الله إذ يصيب البلاد بمن يتحكم فى مقدراتها دون قدرة على بعث الربيع والخصوبة فيها !! يلجأ الناس إلى التنسك فى ظلام البصيرة فكأن التعبد مصباح يستهدون بنوره العليل نحو الهداية تصبح العبادة هدفا وحيدا فى الحياة لأنهم جميعا بلا هدف وما هكذا أرادت لهم السماء العادلة فقد أمرنا الله بعبادة كآنها العمل وعمل كآنه العبادة !! يجئ على الناس يوم لا يجدون فيه ما يفعلونه يحولهم الساحر ذو الشاشات الفضية إلى نسخة متكررة من كائن لا حضور له ولا أثر يشعر الناس بالضياع التام !! ولما كان الانسان مجبولا على أن يفعل شيئا يحقق به ذاته فلسوف تتجه الأغلبية العظمى إلى الإغراق فى العبادة لا بدافع من قوة الإيمان بل لمجرد تحقيق الذات على نحو من الأنحاء !! فى غد يخرج دين الله عن هدفه السامى عن طريقه الفعال يصبح ميدانا للصراع لاستجلاب القوة لاستدرار المال باسم الله يتقاتل المسلمون يعم الخراب وسط برك من الدم ومستنقعات من الجيف وحينئذ تموت مصر ميبتها الخامسة فى خريف أجرد بلا ملامح يحيل الوطن إلى عجوز كليل البصر محنى القامة يتوكأ على عصا يبحث فى ضوء مصباح شاحب عن حقيقة ضائعة وهدف مفقود فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه!! .

ووضعت الورقة بهدوء، متجاهلة امتعاض محمد بك أبو شناف ، وانذهال

الحاج أحمد نوار الدين السنى ، وولع حسن بك بما يسمع .

عجلة الحظ

عجلة كعجلة العربة الكارو بالضبط يا بوى ، منصوبة بين قائمين من الخشب لهما جذور ضارية فى الأرض متشعبة كجذور الشجر ، للعجلة يد معقوفة ، يمسك بها - بكتا يديه - رجل أشبه بالملك الطائر البرئ يا خال ، عارى الجسد إلا من أزار أزرق اللون يلتف حول سواته ، وقد نبت له فوق ظهره جناحان أشبه بفروة شعر الخروف يا بوى ، وماهوذا منهمك بكل قوته فى تدوير العجلة ذات الإطار الأسود ؛ وقد ركب فوق إطار العجلة فتاة ممسكة بشاب مذعور هابط مع دوران العجلة ، يده اليمنى متشبثة بيد الفتاة ، ويده اليسرى طليقة فى الهواء ممسكة بقبعة تكاد تطير فى أسفل العجلة - قريبا من الهاوية يا خال - رجل ساقط برأسه فى الهاوية قدمه متشبثة بالعجلة ، ومن فوقه هيكل رجل آخر ألقى به دوران العجلة إلى الفراغ فتشبث بهذا الفراغ الساقط تحته . حاجة تهوس يا بوى...

قالت الشيخة سعادة :

- « الورقة العاشرة : عجلة الحظ !! هذه هى الحياة كما ترون دنيا نواراة كما الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل فى الهاوية يوم لك ويوم عليك فلو دامت لفيرك ما وصلت إليك وما وصلت إليك إلا لكى تتخلى عنك بعد حين لكن أحداً لا يتعظ !! من يرى نشوة الراكب فوق القمة وزهوهِ وفرحه تصدمه رؤية المتهاوى فى القاع مدحوراً تعيساً !! يقول الورق إننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة هذا المصير حتى لا يستخف الطرب من فوق القمة فيطغى ويتجبر عليه دائماً أن يتذكر أن الركوب على القمة إنما هى برهة من الزمن لحظة خاطفة مهما طال لعلها الوهم بعينه أما الحقيقة فهى السقوط إلى الهاوية حيث ينتظرنا فى القبر ما ينتظرنا من عذاب أليم لا ينجو منه إلا من ظل دائماً أبداً يتذكر المصير

النهائى يحسب حسابيه بالعمل الصالح فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه!!» .

وضمت الورقة إلى أخواتها .

القوة

الصورة لأسد هصور كما يقال يا بوى ، شكله مخيف ، يكاد يشبه الحصان فى حجمه وقوته يا خال ، فى وضع هجوم ، ذيله طويل مرتفع لأعلى ومقوس كعلامة الاستفهام ، وهناك رجل يماثله فى القوة ، مبروم العضلات عارى الجسد إلا من غلالة تحيط خصره القوى ، وفى وضع صراع مع الأسد . لا يا بوى هو ليس كمحمد الحلو فى السيرك القومى ، فمحمد الحلو مدرب للأسود بالفعل والأونطة من بعيد لبعيد وفى وجود من يقفون قريبا منه فى استعداد لضرب الأسد بالنار أو بالسيف إذا قل عقله وهجم على مدربه ، أما هذا الرجل يابوى فإنه يأخذ الأسد بالباط جسدا لجسد قوة لقوة ، وقد أمسك بذراع الأسد وثناها على فخذه يكاد يقطعها قطم الخيارة ، والأسد رافع رأسه فاتح فمه يجأر بالصراخ ، شعر رقبته الكثيف مهوش متهدل مما يدل على أن الأسد حالته كرب والله يابوى ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الحانية عشرة: القوة !! هذه الورقة يوجهها التاروت المصرى لكل متجبر متسلط على الشعب المصرى لكل مزهو بقوته المأخوذة من قوة الكرسي أو المال أو العزوة !! يقول الورق ، هذا هو الشعب المصرى فاحذروه ثم احذروه ثم احذروه لا تغرنكم القوة التى منحت لكم فإنه فى الأصل صاحبها مانحها لكم فإياكم إياكم أن تغتروا بها تغلبوها عليه فلو كان الواحد منكم أسدا كهذا الأسد فالشعب كهذا الفارس الجبار يستطيع أن يلوي نراعه هكذا يكسرها فوق فخذه يسلبه قوته يجعله غداء لأمثاله من الوحوش الضارية الشاردة إن المصرى الذى

أنشأ هذه الأهرامات وهذه المساجد وهذه الكنائس وهذه الغدادين الزراعية وركب فوق النيل أمسك بلجامه لقادر على ردع كل متغطرس مزهو بقوته !! يقول الورق إن هذا الأسد هو كل قوة غاشمة والرجل القوى كل قوى الجماعة تختزنها مضفوفة مقهورة لتصبها فى واحد يفيض به كيل الهوان الجماعى وما دام الورق قد أثبت هذه الصورة على هذا المرسوم فلا بد أن شيئاً من هذا سوف يحدث فى السنين القليلة القادمة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!! .

وفيما كانت ترمى بالورقة يا خال ،لاحظت أن ابتسامة شبه ساخرة قد انطبعت على وجه محمد بك أبو شناف إلا أنها كانت ترتعش بالخوف يا بوى لا أدري أمن رهبة الكلام أم من ذنب ينتوى فعله عما قريب ، صار ينظر لحسن بك من تحت لتحت كأنه يتهمه بالتآمر عليه ؛ وكانت نظرة حسن بك التى رد بها عليه يا خال كأنها تقول له : إصبر فإن الله مع الصابرين ..

المشوق

حاجة تهوس يا بوى : خشبة المشنقة ممدودة على جذعى نخلتين طويلتين ، والعشب الأخضر يملأ الأرض . رجل معلق فى حبل المشنقة لا من رأسه يا خال بل من إحدى قدميه ، تماماً كالذبيحة يا بوى فى سبيه الجزار ؛ رأسه غاطس فى العشب ، قدمه اليمنى مربوطة مكسكرة فى خشبة المشنقة . أما قدمه اليسرى فسائبه ، ويظهر يا خال أنها مقطوعة حتى الساق ، حيث لا يظهر منها سوى الفخذ . يرتدى لباسا مكونا من قطعتين : قميص أخضر اللون على صدره كلفة صفراء مشرشرة كالزقزاق ، وسروال أحمر اللون ، ياقة القميص حمراء حابكة حول رقبته ، الرأس واضح أنه ميت معلق العينين شعره الغزير - الأحمر اللون كذلك - مهتدل على جبينه الملتحق بالحشائش الخضراء ..

قالت الشيخة سعادة :

- الورقة الثانية عشرة : المشنوق !! هكذا تكون شخصية المواطن المصرى الحق فى القريب العاجل كما يحدث دائما حين تتفتح البلاد لكل مغامر أفاق مصاص دم من نفاية العالم وهذا ما يتنبأ به الورق للسنين القليلة القادمة يأتى للبلاد جحافل للنصب والسلب وسط زفة هائلة يقيمها المنتفعون يباركها الجياع الواهمون يصبح ابن البلد معلقا كالذبيحة فى مشنقة من نخيل بلاده الذى جف وفوق عشبها الطرى الأخضر المرتوى بعرق الذبيحة وحدها !! أموال النفط سوف تعيث فسادا فى البلاد تصل إلى أيدي التجار الجشعين إلى السماسرة الوكلاء أهل الخور المستعدين لبيع كل شئ تعز السلع تذهب إلى القادرين على ثمنها يصبح المواطن المسكين مستباح الجسد والكل يثرى على حسابه !! المثل الشعبي المصرى ماكذب حين قال : كل واحد معلق من عرقويه ' هذه الصورة ترجمة لهذا المثل كما أن المثل فى الأصل ترجمة لها ومعناه أن كل واحد من الشعب يصبح مسئولا عن نفسه حين تنفض الحكومة يدها من جميع مسئولياتها تجاهه تتركه غداء للغريان وأكلة لحوم البشر تبقى سادرة فى غيها ناسية أنها بدونها لن تستطيع العيش فى رفاهيتها فالممكنون فى الأرض لا يقدررون على صنع رفاهيتهم لوحدهم ما لم يكن هناك من يهيأها لهم ومن هنا فالحكمة الكامنة وراء هذه الورقة على هذا المرسوم تقول إنه على الباغى تنور الدواير ولا بد أن يجىء الدور على المنكثين فيها ليعلقوا من عرقويهم هكذا تاكلهم طيور جارحة تجذبها من بعيد رائحة الجيف فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه!! . وسقطت الورقة من يدها نون إرادة منها ، فيما نكس محمد بك أبو شناف رأسه فى الأرض شاحبا متفكرا ، فى حين راحت نظرات الحاج أحمد نوار الدين السننى تتقافز بينه وبين حسن بك فى أشعة من الشقاوة وحب الاستطلاع الجارف وإن بدا ذلك فى صورة مرح جميل كمرح الأطفال الغفل الأبرياء .

الموت

هيكل عظمي كامل لجسد آدمي ، نفس الجمجمة التي نرى رسمها دائما يا خال كعلامة على الموت ، وهكذا بقية الهيكل العظمي بالرقبة والقفص الصدري والذراعين والإيتين والفخذين والساقين ، مجرد عظام كالعصى الناشفة لكن اليد اليمنى ممسكة بما يشبه المنجل ، هو شكل بين المنجل والمنقرة إذ أن يده الخشبية طويلة كيد المقشة طول قامة الرجل ، لون الهيكل العظمي أحمر ، وكذلك لون يد المنجل ، أما سلاحه فلولنه أزرق . الهيكل العظمي واقف منفرج الساقين جدا ، والأرض من تحته حمراء كلها تلال ، لكن منظر الهرم واضح بين ساقيه يمتد خياله الأحمر اللون خلفه كجدار أقل احمرارا ، المدهش يا خال أن رقم الورقة ثلاثة عشر وأنا أعرف يا خال أن الكثيرين من كل أنحاء العالم يتشاعون من هذا الرقم : أف يكون هذا التشاؤم راجعا لهذه الورقة يا بوى ؟ أنا شخصيا أظن ذلك يا خال فهذه الورقة قديمة جدا يا خال ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الثالثة عشرة : الموت !! من هذه الورقة ارتبط هذا الرقم بالتشاؤم يقول مرسوم هذه الورقة هاكم منجل الموت يترصدكم ليحصدكم جميعا لا يفرق بين أمير وخفير بين ملك ورعية يقول انتبهوا دائما يعني اعملوا لاخرتكم كأنكم تموتون غدا واملوا لديناكم كأنكم تعيشون أبدا كما هتف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم !! أجدادنا لم يهابوا الموت لكنهم احترموه كحقيقة ماثلة وضعوه في حسابهم كمصير محتوم لا مفر منه !! لم يكن في نظرهم نذيراً بالفناء بل كان منفذاً إلى الخلود حيث تبدأ الحياة الثانية التي لا تنتهى ولا تفنى جعلوا من مقابرهم كما يقول شيخى المغربى معلمى قصوراً متينة البنيان عامرة بكل نفيس جليل الشأن كي تكون ملائمة لاستقراره فى الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بقطرة

الله على علم بأن الموت ليس نهاية كل الحياة وأن الإنسان لم يخلق عبثاً ولن يضيع سدى أو يذهب هباءً إنمّا لا بد له من مثول محقق أمام محكمة إلهية حيث يوضع قلبه بكل حسناته فى كفة الميزان وتوضع أعماله السيئة المناقبة للخير والأخلاق فى الكفة الأخرى فإن رجحت كفة القلب السليم استأنف الإنسان حياته فى ظل الخلود وإن رجحت كفة السوء ألقى به فى نار جهنم !! لكن اعلّموا أنه ليس لهذا فحسب رسم التاروت هذه الصورة إنمّا أراد أن يقول لنا شيئاً آخر أشدّ وأنكى :

إن الحياة على ظهر الأرض ستكون مهددة بالفناء التام فى السنوات العشر القادمة سيفنيها بنو الانسان سيتحقق قوله سبحانه وتعالى : يخربون بيوتهم بأيديهم وإنسان هذه الأيام على ظهر الكرة الأرضية يخترع الأسلحة الفتاكة التى تحول الأرض بكل ما عليها إلى هشيم تذروه الرياح ولقد أدرك أجدادنا القدامى منذ وقت مبكر خطورة ما تسمونه اليوم بالتقدم العلمى القائم على اللعب بالنار والتدخل فى نظام الكون !! لقد أنبأنى معلمى عن القنبلة المسماة بالذرية التى ألقىت على اليابان فدمرتها والتى أصبحت الآن كالكرة يلعب بها الأمريكان والروس فرسم أجدادنا هذه الصورة على هذا النحو كى تصبح وازعاً على الفعل الصحيح المناسب يعنى أن نستعد بشئ يبطل مفعول الدمار الذى ينشره زبانية الشر من بنى الإنسان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!! ..

وكان الاقتناع والانبهار واضحين على وجوه الجميع خاصة وجه حسن بك الذى راح يتمم بكلمات مبهمة أغلب الظن يا خال أنها آيات قرآنية .

الاعتدال

ملاك جميل الصورة يا خال ، بجناحين كبيرين كجناحي نسر عفى ، لونهما أخضر زرعى مشوب بالأصفر الفاتح . يرتدى الملاك قميصاً أحمر اللون بنصف

كم ، فوق جبية زرقاء اللون ، وقد أمسك في يده اليسرى أنية أشبه بإبريق من الفخار ، وأمسك باليد اليمنى إبريقا آخر من الفخار أيضا كما يظهر يا بوى ، وقد رفعه وراح يصبُ في الإبريق سائلا أبيض كاللبن الحليب يا خال ، وأغلب الظن أنه لبن . على الأرض تلال في لون الطمي المحروق وثمة ما يشبه قصرية الزرع ترتفع منها أغصان مخضوخرة مورقة .

قالت الشيخة سعادة :

- « الورقة الرابعة عشرة : الاعتدال !! لعلها كما ترون واضحة وضوح الشمس ومعناها ساطع كالقمر . الملاّن يكب على الفاضى ' بهذا وحده يحدث الاعتدال !! هذا الملاّن الجناحين الأخضرين الممسك بالإبريقين هو طيف من عند الله سبحانه وتعالى يشير إلى أن هذه هى حكمته مقولته عدالته : الملاّن يصب فى الفاضى لكى يحدث التوازن فتورق الفروع وتخضر الأغصان ويأتى النمر فتستمر الحياة !! تلك هى كلمة السر التى حفظها لنا أجدادنا فى كتاب التاروت كى نعرف سر ازدهار الحياة واستمرارها زاهرة مشرقة كانوا على علم بأننا مقبلون على زمن صعب يستأسد فيه الشطار يستأثرون بكل شئ فيكثر عدد المحرومين مما يهدد أمن الحياة بالدمار بثورة يشعلها المحرومون فى الأخضر واليابس تهون عليهم كل الأشياء الثمينة والمنابع الخصيبة طالما أنهم محرومون من خيرها !! عدالة التوزيع ليست كل ما نقوله الصورة بل نقول بالاعتدال أيضا وفى كل شئ فى الحياة كما قال ديننا الحنيف لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إنما أراد الله كما أثبتت هذه الصورة المشعة أن يكون الإنسان لا بخيلا ولا مبذرا وهذا ما كان يقصده سيدنا يوسف

الصديق عندما أنبأ فرعون بحقيقة الرؤيا وهى أن يدخر من خير السنوات السمان لينفق منه فى جفاف السنوات العجاف فأصبحت مثلا يحتذى ويلتزم به أجدادنا يحرصون على تبليغه لنا كى نبقى على ما بنوه !! وإنها لحكمة عميقة أن يجئ ترتيب هذه الورقة بعد ورقة الموت فكأنها الجواب على النذير نسال الله أن ينير قلوبنا كى نواجه بهذه الورقة زمننا الصعب هذا الذى تنبئ الأيام الحاضرة عن أهوال وأهوال يخبئها لنا فى جوفه المعتم الكئيب فاللهم لا نساك رد القضاء بل نساك اللطف فيه !!» .

وألت بالورقة وسط همهمة جهيرة تصيح فى ورع يارب عفوك ورضاك .

الشیطان

الصورة بشعة يا بوى ، تقول بالفم المليان أنا الشيطان ، نفس الصورة التى رسمتها الحواديت القديمة وأظهرتها أفلام السينما ، هكذا تراءت لخيال جميع الرسامين : رجل عارى الجسد تماما يا بوى ، لونه أحمر قاتم و أصابع يديه ورجليه حوافر كحوافر الحيوانات الجارحة مدببة معقوفة كالخطاطيف يا خال ، وله ذيل طويل مبروم كنيل البقرة يتقوس فوق مؤخرته ويلتف على فخذه الأيسر ممتدا فوق إحليله منتهيا بشراة من الشعر كشراة الخرج يقترب شكلها من شكل الحوافر فكأنها يد ثالثة تحت يديه . أنفه معقوفة يا خال كأنف اليهود وعلى وجهه مسحة من الخسة والنذالة والخبث الناعم الأريب ، وشعر واقف كالريش المدبب كالخطاطيف المعقوفة كالحوافر . أمايده اليسرى فقد أمسكت بشوكة مستطيلة كحربة بشعبتين مدببتين كالخافر ، بينما امتدت يده اليمنى فى الهواء مع امتداد فخذه اليمنى بساقها المتكسرة كأنها أوقفت الخطو فجأة ، وقد جلست

بنسائها الفاتنات يطمون بارتشاف رحيقهن لا يهمهم أن هذه الأرض كنانة الله
فى أرضه ولا أنها أنفقت دم قلبها وفلذات أكبادها لتدفع عنهم الأعداء حتى
أضناها الفقر وهدها العوز إنما همهم اهتبال الفرصة بالوثوب على الضحية وهى
ساخنة بنار الحرمان فاقدة للمقاومة بضغط الحاجة والعوز !! تمر على البلاد
محنة تضربها فى الصميم ينفرد فيها الشيطان بالمرأة يسלט عليها قوته
السحرية يوسوس لها يغريها بالسقوط فى الخطيئة مقابل ما بات أمنية لكافة
المحرومين المرهقين : لقمة طرية وثنيا زاهيا ومسكنا عامراً وسيارة مجنحة !!
تمر على البلاد محنة تكون المرأة فيها هى الخاسرة والضحية الأولى ويسقوطها
تتدهور كل الأبنية إنها الوعاء الذى إن تلوث تحدرت الأجيال نحو المستقبل الأسن
ببذرة حرام تملأ الأرض جوراً وانحطاطا يعكر الررس مياه النيل وحينئذ تموت
مصر ميتتها الخامسة ما لم نحفظ للمرأة شرفها وعلمها وقوت عيالها كى تصد
عن نفسها غواية الشيطان المتربص بها لا محالة فاللهم لا نساك رد القضاء بل
نساك اللطف فيه!!» .

وكان الجميع قد وضعوا خدودهم على أكفهم كأن صورة المحنة قد تجسدت
فى أنظارهم شاخصة دامغة .

المعبد

بناء كبير ضخم مرتفع الجدران ، عليه مهابة واضحة يا خال ، مبنى هو
بالحجارة المخروطة من صخور الجبل خرطات متساوية منسقة ، مثل بناء جميع
المعابد التى رأيتها فى الصعيد يا خال ، والتى قامت بينى وبينها علاقة ود حميمة
يا بوى لدرجة أنى إذا دخلتها شعرت بالرجفة والرهبه . تماثله فى البناء مساجد

كثيرة فى القاهرة : مسجد قايتباى ، مسجد عمرو ، مدرسة برفوق ، جامع قلاوون، الجامع الأزهر ، الجامع الأنور ، وكالة الغورى ، والظاهر يا خال أن الذين بنوا هذه البنايات كانوا يقلدون معابد الفراعنة الصعيدية . للبناء الذى فى الصورة باب مغلق بضلفتين من الخشب الثمين مدهون بلون بنى غامق ، أما الجدران فلونها زيتى غامق وفيها بعض نوافذ لونها أحمر قانى الحمرة ، البناء شبه متصدع يا خال ، فتحة أصداغ من أضلاعه العليا سابت وانكفت منهارة ، وبعض قطع صغيرة من حجارته تناثرت متطايرة فى الهواء كسرب من عصافير مهيضة يا خال . يوجد رجل منكفى على وجهه منحدرأ نحو الهاوية رأسه فى اتجاه الأرض وقدماه إلى أعلى ومن الواضح أنه وقع من فوق سطح المعبد أثناء تصدعه وانهار واجهته ، يلبس قميصا أزرق وسروالاً أحمر . يوجد كذلك رجل آخر قد وصل إلى الهاوية بالفعل مجندلاً على الأرض تناثرت حوله بعض قطع من الخشب والحجارة، يرتدى قميصاً أحمر وسروالاً أصفر ، الظاهر يا خال أن نفرأ من المارقين قد اعتصموا بهذا البناء وتبادلوا الحرب مع من بالخارج فتعرض المبنى لهجوم عنيف زلله وصدعه ..

قالت الشيخة سعادة :

« الورقة السادسة عشرة : المعبد !! من أراد به سوء قصف الله عمره فى الحال ! النبوة فى المرسوم واضحة : ستجى أيام كنيية تختلط فيها الأمور نتيجة لعناء البصيرة لا يعرف فيها المرء صديقه من عدوه يكثر وكلاء الله على الأرض بغير مسوغ أو قرينة يمتلى المعبد بالدهماء من الجهلة نوى النفوس المعتمة يريدون اتخاذه قلعة يستمدون منها الحصانة يعتلون منبرها وهامتها المقدسة

لفرض أنفسهم على مقدرات البلاد والعودة بها إلى عصور الجاهلية الأولى
يتخذون من أنفسهم حكاما وخلفاء بغير سند حاملين في ذلك راية الدين متذرعين
بما أصبح يعم البلاد من فساد وفساد وفساد وفساد وفساد وفساد وفساد وفساد
العدل حيث يسلطهم في البداية على أهل الفساد والفساد حتى يورقوا مضاجعهم
يزعزعو الأرض من تحتهم ثم يسلط عليهم زلازله الطبيعية وبراكينه وصواعقه
فيقضى عليهم ذلك أن هؤلاء وأولئك أبعد ما يكونوا عن الورع والتقوى ويكون الله
قد سلط أبدانا علي أبدان لحكمة بالغة ولكن يبقى المعبد شامخا رغم تصدعه إلى
أن يهوى الله له من يعمره على أساس من النور والخير والمحبة الصافية وتكون
مصر قد ماتت ميتتها السادسة فالله لا نساك رد القضاء بل نساك اللطف
فيه!!» .

وكان الجميع قد نكسوا رءوسهم في الأرض وانشدت جلود وجوههم فصارت
الوجوه مسحاء يا بوى .

النجم

ملاك آخر يا بوى ، ولكن بدون أجنحة . شكله أقرب إلى الفتاة إن لم يكن
فتاة، شعره منسدل الخصل حتى الكتفين العاريين ، وقد التفت بإزار أحمر اللون
غطى الجانب الأيسر من الصدر والبطن تاركا الذراعين عاريين وكذلك الجانب
الأكبر من الصدر حتى الذراع الأيمن متحرر من الإزار ، ركبته اليسرى ممدودة
من خلال ما يشبه ملاء زرقاء اللون فاتحة تغطي نصفه السفلى ، والساق ممتدة
تصنع مع الركبة زاوية حادة حيث استقرت القدم الرقيقة الحافية على شاطئ
البحر . في يده اليسرى قلة فخارية حمراء ، وفي يده اليمنى إناء يشبه الكوب

أصفر اللون ؛ أماله الملاك وجعل يدلق ما فيه من سائل أزرق اللون فى البحر .
وهذا شئ غريب يا خال ، فحيث نتوقع أنه يغترف بالكوب من البحر ليملاً القلة إذا
هو يفعل العكس كما يظهر فى الصورة يا خال ، وإلا فما فائدة أن يكون الكوب
فى يمناه والقلة فى يراه ؛ المهم يا خال أن السماء من فوق رأسه مباشرة مرصعة
بسبعة نجوم ، ثلاثة حمراء اللون فى أعلى تشكل هيكل مثلث متساوى الضلعين
المتقابلين ، وأربعة نجوم أخرى صفراء اللون ، اثنان منها فى منتصف الفراغين
بين الضلعين المتقابلين ، واثنان فى أسفل تحت النجمتين الحمراءتين ، ورأس
الملاك بينهما ، واحدة أمام جبهته والأخرى خلف شعر رأسه ، حاجة تهوس يا
بوى ، مع ملاحظة أن السائل المندلق من الكوب فى البحر رغم تماثله فى الزرقة
مع مياه البحر فإنه مشوب بظلال حمراء وصفراء نفس لوني النجوم السبعة
والإزار والملاء وأرض الشاطئ الصفراء تماما يا خال ، ولذا فقد صنع السائل
المندلق دوامة صفراء وحمراء ؛ حاجة تهوس يا بوى ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة السابعة عشرة : النجم !! يجئ يوم يعلو فيه النجم فيعم الفيضان
يرجع إلى سابق عهده الأول لكنه يكون ملوثا شنيعا قد أُلقيت فيه الجثث
والجيف والسموم الصفراء قادمة من المنبع الأعلى ذلك الذى
كان فيما مضى وقبل خصى النيل بالسسد يخلط الماء بعرق الأرض
السوداء !! فيضان الماء ولو كان ملوثا خير من جفافه وهاهنا
يهوى النجم بفكرة ملائكية ملهمة على هذا المرسوم فى الورقة ترينا
ضرورة وضع مطهر فى الماء ينقيه من كل السموم وأول نداء علينا اتباعه هو

قتل الداء المستشري فينا نحن أبناء هذه الأيام . نوقف اعتدائنا السافر المتواصل على النيل وإنه لعدوان يصيب أرضنا وأبداننا بالأمراض المستعصية ومهما يكن من أمر فإن هذه الورقة كما يقول معلمى هى رقة الأمل والرخاء والنجاح ولكن أى رخاء وأى نجاح إنما هو مرهون برفع أيدينا الآثمة عن نهر النيل وعن كل ما يجرى فى البلاد من مياه فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه !!»

إنضمت الورقة إلى زميلاتها .

القمر

الورقة مقسومة إلى نصفين بالعرض ، بينهما شريط أبيض ضيق . فى النصف العلوى يلتصق القمر بسقف الورقة ؛ هو أشبه بالميدالية مرسوم عليها وجه شاب طفولى الملامح نكى العينين مضموم الشفتين ينظر فى البعيد ، ويظهر يا خال أن القمر يبدو هكذا دائما لمن ينظر إليه من بعيد : وجه إنسان بملامح وتقاطيع ناطقة ..

على يسار القمر يا بوى شرفة قصر منيف ، وعلى يمينه شجرة مورقة لون جذعها بنى غامق وأوراقها خضراء بالطبع ، والأرض فى لون الطحينة ، تكتنفها بعض نباتات شوكية. فى شرفة القصر فتاة يظهر نصفها الأعلى ، مرتدية ثوبا منزليا بسيطا ، بنفسجى اللون ، فوقه مريلة بيضاء ، وقد عقصت شعرها ، ومدت يدها اليمنى فى دعوة وترحيب ، تحت الشجرة يجلس شاب يرتدى قميصا أزرق اللون على سروال أحمر غامق ، وغطاء رأس أحمر ، وقد أمسك بألة موسيقية تشبه آلة البزق وآلة السمسمية ، راح يعزف عليها وهو فى حالة من الطرب والنشوة ؛ والأنغام خارجة على هيئة خطوط ونقط رفيعة جدا تشكل موجات متدافعة فى بطن كبقايا دخان السجارة ..

فى النصف السفلى يا خال مساحة زرقاء فاتحة تشبه نسيج الخيش ، وتبدو كأنها حوض من أحواض أسماك الزينة ، يحدها من اليمين ومن اليسار ضلعان تخينان من اللونين الأحمر والأصفر فى وسطها تماما شكل شبح أحمر قان ، لرجل متصلب يرفع ذراعيه إلى أعلى كأنه يلعب رياضة الصباح ، لكننا لو نزعنا ذراعيه يصير شكله شكل فانوس من فوانيس رمضان ، تحت كل ذراع من ذراعيه حشرة حمراء اللون لكنها غامضة الجنسية لا نعرف إن كانت سمكة بذيل أو سلحفاة أو خنفساء ، هذه الورقة يا خال من أشد الأوراق غموضا ..

قالت الشیخة سعادة :

— «الورقة الثامنة عشرة : القمر !! يفسرها معلمى نقلا عن علماء التاروت وما أكثرهم فى العالم بأنّها ورقة الفضيحة والخطأ والوهم !! يمر على البلاد زمن تتكشف فيه كل الخفايا يصبح ما كان يسمى بالمستور عريا كاملا يصبح العرى سمة عنواناً على العصر تفقد كل الأشياء جلالها تضع من كل الكلمات معانيها تغترب مفردات الشرف والأخلاق والكرامة والسؤدد والوطنية والأمانة والأدب والواجب والتضحية والإيثار والعدالة والإنسانية والرحمة تصبح كل هذه الكلمات سيئة السمعة مثارا للسخرية والهزء والراء يتساوى الجميع فى قلة القيمة تنعدم الروادع تضمحل الوزعة تدخل النفوس فى ليل حالك ثقيل الوطاء مدلهما يبحث فى كل صائد عن فريسة شاردة وهنا ينزل القمر بنوره الفضى الفاضح يخترق أعماق البرك والمستنقعات يبرز ما فى جوفها من حشرات وجيف وسموم !! ما القمر هذا إلا إنسان حقيقى مستنير أغلب اليقين أنه عقل الأمة التى بقيت فى أرضها الخصيبة روحها السابعة التى لا تموت مطلقا فهذه الأرض المباركة التى أنجبت الأبطال والفاتحين والمتنبئين والمقرئين والمتقين والكاتبين والمثاليين والنقاشين والبنائين والزارعين الحارثين الحاصدين تحتفظ فى باطنها فى ضميرها الحى

لون أجسادهم النحاسية ، مما يوحي للرأى بأنهم كانوا مدفونين فى المقابر وأنهم لبوا نداء البوق فبعثوا إلى الحياة من جديد فرموا بالأكفان ، وانبثقوا من باطن الأرض كالسكارى التائهين الغزعين من ملاقة يوم الحساب حاجة تهوس يا بوى ، لابد يا خال أن هذه الصورة ترسم يوم الفزع الأكبر ..

قالت الشیخة سعادة :

— «الورقة العشرون: المحاكمة !! تلك هى القومة ! قومة الموتى من الأحياء الذين بثت فيهم الشمس حرارتها وشققت لهم الأرض فنهضوا خارجين من شقوقها متلهفين على الإمساك بمن كان السبب فى دفنهم أحياء كى يقتصوا منه!! إن علماء التاروت فى العالم حين عرفوا أن هذه الورقة اسمها المحاكمة وأنها تعنى الحساب العسير فرقوا بينها وبين الحساب الإلهى النهائى وذلك من واقع المرسوم فى الصورة فها هى ذى إحدى النساء ترفع ذراعها اليمنى صائحة فيمن حولها بحركة تنبيه وتوجيه فلا بد أنها تقول لهم ابحثوا عن المسئول عما جرى لنا وما هم الآخرون حولها يتبادلون المشورة سيما وأن الأمر قادم إليهم بإلهام من السماء عبر البوق الملائكى الصائح فيهم أن انهضوا حرروا أنفسكم من الموات من القهر من الذل من عوامل الفناء حاسبوا من ظلمكم أهانكم امتص دماكم فلكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ولا بد أن المحاكمة ستكون شاملة فضوء القمر وحرارة الشمس يفرزان من بينهم الأصفياء الأنقياء المهتدين القادرين على حقن الدماء فالله لا نساك رد القضاء بل نساك اللطف فيه !!» ..

وكنا جميعا قد أرهقنا يا خال ، فأخذنا نرمق الورقة الأخيرة فى استرخاء لذیذ .

العالم

رجل عارى الجسد يا خال ، يمسك بيديه وشاحا أو ربما شالاً مبروما كشال العمامة الصعيدية ، يتلوى عند طرفيه وفى الوسط يغطى سواة الرجل ، فكأن

الرجل ممسك بثعبان كبير مذعور . يقف الرجل وسط طوق من الزهور والورد
بيضاوى الشكل ، نفس الطوق الذى نراه عند بانعى الزهور فى أيامنا هذه ، فى
أسفله عقد شريط حريرى أحمر مربوط بعقدة وشنيطة ، فوق الطوق يا خال ، على
الزهور وأوراق الورد ، يقف ثلاثة من الطيور الجميلة كأنها جزء من فكرة الطوق ،
الطائر الأوسط بجناحين أصفرين كبيرين مفرودين ، لكن شكل الطائر ذى اللون
النحاسى أشبه بالنسر وما هو بنسر ، أما الطائران الآخران عن يمينه وعن
يساره فرأسهما أحمر وریشهما أصفر مخضوضر ، وكلاهما واقف فى وداعة
مضموم الجناحين فى تطامن وسلام لاوياً عنقه فى اتجاه الطائر الأوسط .
الطائران ربما كانا حمامتين أو قيرتين ، وأما الرأس السفلى للطوق فمستقر بين
رأسين لحيوانين شكلهما غامض وواضح معا ، على اليسار رأس لأسد كثيف
الشعر يظهر جزء من ظهره خلف شعره ، وجهه وجه إنسان تكاد نظرة عينيه
القويتين بما فيهما من إنسانية تدفعانك لأن تمد يدك لكى تسلم عليه ، أما على
اليمين فوجه ثور عفى بقرنين مدبيين معقوفين ، وجزء كبير من جسده ظاهر فى
الصورة لصق بطن الأسد ، الثور غير مذعور من الأسد يا خال ، وإن كان منظره
يوحى بأنه فى حالة تهيج جنسى ، ويظهر يا خال أنه رأى فى المساحة غير
المرئية بقرة أنثى أهاجته ، لكن سبجان من جمع الأسد مع الثور فى مثل هذا
الود المسالم يا خال ، حاجة تهوس يا بوى ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الأخيرة : العالم !! تلك هى ورقة الاكتمال كما وصفها علماء التاروت
!! التحقق الكامل والنجاح المستمر بالعمل الخلاق الدوب هكذا كان حلم أجدادنا
الوردى : أن يصل العالم إلى هذه الدرجة من الأمن والسلام والتوافق حيث
يعيش الإنسان مطوقا بالزهور والورد محاطا بالطيور الغناء تضمحل العدوات

حتى بين الأعداء الألداء من الوحوش المفترسة والحيوانات الأليفة وهكذا يكون كتاب التاروت الذى منه نشأ تعبير : إفتح لى الكتاب يعنى اقرأ لى طالعى قد كشف لنا سر استمرار الحياة زاهرة متحضرة موزقة على الأرض يسودها الوئام والسلام ليس بين البشر فحسب إنما بينهم وبين جميع ما فى الكون من مخلوقات يتم التكامل بينهم كما يتم التحقق لهم !! كلمة السر هى العلاقة الخفية بين الورق فى ترتيبه من ورقة إلى التى تليها كل ورقة تحمل مرسوماً لمعنى وكل معنى يرشد إلى ما ينبغى عمله كى تستمر الحضارة صاعدة طالعة من أرض مصر الطيبة كى يظل المصريون حملة لواء السلام والوئام إلى العالم أجمع !! إنكم لا شك تعلمون حقيقة الرسم بالنسبة للمصرى القديم فقد كان لا يرسم إلا ما ينتوى فعله فتمنى رسمه صار حقيقة نافذة !! أنبأنى معلمى أن جدى القديم كان قبل خروجه للصيد يرسم نفسه وهو يصطاد شيئاً محدداً هو على وجه التحديد الشئ الذى طلبته نفسه فإن طلبت لحم الغزال رسم نفسه فى كيفية الإيقاع بالغزال فكأنه ينفذ خطة الصيد نقشا وتلوينا على الحائط ثم إذا به قبل خروجه للصيد يضع القدر على النار ثقة مطلقة فى أنه عائد بالغزال لا محالة قبل غليان الماء فى القدر فهو إذ يرسم العالم هكذا إذن معناه أنه ليس يرسم حلمه الأكبر فحسب بل يضعه موضع التنفيذ يحيله إلى حقيقة واجبة النفاذ يلتزم بها !! اللهم أعنا جميعاً على الخلاص من كافة المعوقات . ضع فى قلوبنا بلسم الشفاء وفى عقولنا مشعل الهداية وفى ألسنتنا ذكر الواحد القهار إنك أنت السميع العليم يا مذل يا معز يا واهب النعم ! أمين يا رب العالمين !! ..

رحنا نتنفس هاتفين فى صيحة واحدة : يَا رَبِّ ، فيما راحت الشريحة سعادة تطوى أوراقها ، تلفها بالشريط الحريرى ، تعيدها إلى محفظتها الجلدية ، ثم اعتدلت فى جلستها تجفف عرقها ، ثم طلبت كوباً من الينسون .

باسم الله ما شاء الله حضروا جميعا ما عدا محمد بك أبو شناف أرسل اعتذارا
مع حازم ..

تمت الدخلة فى سرايتى فى البلد وسط دهشة الجميع من مظاهر الثراء التى
بانت فى الفرح فى الصباحية انهالت علينا فلوس كبيرة من أقارب العروس
وأقاربنى فأهديتها جميعها للعروس تشتري بها مزيدا من الذهب ، مما رفع مقامى
فى نظرها ونظر أصهارى يا خال ، الأهم من ذلك يا بوى أنتى ضمنت قلب البنية
فوضعتة فى جيبى من أول ضمة .

أن الحقيبة لا تزال عامرة ، وأنه سيسفح مبلغا رهيبا من وراء هذه الصفقة ، لكننى كنت راضيا تماما . عانقتى بحرارة قال إنه وأخيه تحت أمرى فى كل ما أطلب فى كل وقت ، ثم انصرف عائدا إلى القاهرة بشبه مظاهرة أوصلته حتى طريق أسيوط . أما أنا فذهبت إلى هليل لأتناول الغداء عنده مع الشلة الوسخة ، فانتابتنى نوبة كرم عاتية ، نفحت كل واحد منهم ألف جنيه : مش خسارة فيكم يا أولاد الفرطوس . ثم قلت لهم : أنا الآن عضو بالبرلمان وأنتم من الآن رجالى وياات مصلحتكم عندى فوق كل اعتبار . وودعتهم على موعد محدد فى القاهرة فى شقتى بعد أيام . أما يوم سفرى أنا والعروس يا خال ، فحدث ولا حرج .

بلدياتى هؤلاء يابوى كان منهم عدد كبير شغلته قريب من المقطم ، لاحظوا بفطرتهم أن الجبل كله فضاء يحتاج لتعمير سفوح تمتد هابطة قليلا لتلتحم بصحراء الممالك المتاخمة لحي الدراسة . صعب على بلدياتى أن يروا هذه المساحات الهائلة تصفر فيها الريح وهم بلا ملأى . هم يدركون أن الطريق إلى مكاتب الحكومة مغروشة بالذل والهوان أو بالمال المسفوح ، ومن لديه المال يضمن به على صنف الحكومة ، جنس الحكومة ، في نفس الوقت لا يحتمل الذل والهوان من موظف ، ولا يثق حتى فى أى قاض يعوج الطربوش على ناحية ويحكم بأربع سنين فى قضايا الدم . وما الداعى لأن يتطوع الصعيدى بنفسه لينبه الحكومة إلى شئ ينتويه . إنه إذا أراد شيئاً فعله فى الحال وإحطها بعد ذلك الحلل ، ثم إن احتياجه للشئ لا يعطيه فرصة لأن يأخذ الإذن من أحد .. وهكذا يابوى هجموا على فضاء المقطم . منهم من اختار رقعة فسيحة فى أحد سفوح الجبل أو صحراء الممالك فحوط عليها بعيدان الحطب والبوص والقش وأقام فى وسطها كوخا يأوى تحت سقفه . ومنهم من كان قادرا فابتنى حجرة بالطوب وحوط على الباقي بسور يحاط مساحة تكفى لبيت صعيدى كبير . لاشئ أسرع من التقليد فى بلادنا المصرية يا بوى . الناس كلهم كحيته متشردون بصاصون ، ما أن يرى الواحد منهم مشروعا ناجحا حتى يأخذ نفس الفكرة وينفذها بحذافيرها ، ربما بجوار صاحبها الأصيل بقفا غليظ ووجه كالح ، نزيعة فى ذلك أن الله مقسم الأرزاق ولا بد أن يرسل لكل واحد رزقه . وهكذا رأى بقية الصعايدة من بلدياتى إخوانهم قد غنموا هذه القطع من الأرض البراح التى لا صاحب لها ينازعهم فيها ، فتواتروا جميعا على سفوح المقطم وصحراء الممالك ، كل حسب قوته وعزوته واجتهاده وجرائته وذكائه وخبرته ، منهم من حوط على فدان وبناء فعلا ، ومن حوط على ثلاثة أفدنة بنا بعضها وزرع البعض الآخر حديقة . هم يدركون أن

الأرض ملك للحكومة ، وفى اعتقادهم أن يوم الحكومة بعام كامل ، فإلى أن تنتبه الحكومة وتطالبهم بالجلاء وينازعونها وتنازعهم يكون قد حلها الحلال الذى لا يقفل ولا ينام ، يكون الطرف قد تغير وتوافرت الفلوس والإمكانات لمساومة الحكومة . هم أيضا أنكياء يابوى نكاء حيوانات الصحراء الماكرة القادرة على التنكر والزوغان والهروب فى عراء الرمال . لقد فهموا من مجريات الأمور أن البلاد فيها أزمة مساكن تعترف بها الحكومة وتعلن عجزها التام عن حلها ومن ثم فإنها تتغاضى عن ناس حلوا مشكلتهم بأنفسهم وينوا لأنفسهم فى أرض حكومية كان من المفروض أن تبنيها الحكومة لهم ، يعنى لابد أن الأمر سيكون فى صالحهم فى النهاية يابوى ..

وقد كان يا بوى ، اكتسبوا بطول البقاء شرعية البقاء كأمر واقع منذ سنوات طويلة ، فمن يلقي نظرة على هذه الأعشاش يترك لأول وهلة أن الحياة قائمة هاهنا منذ وقت طويل مضى ، بهذا تشهد الأرض التى رطبته المياه المتدفقة باستمرار فاخثفت بصمة الصحراء ، وبهذا تشهد هذه الأكشاك والنكاكين التى تبيع البقالة والخضراوات والسجائر والعلوى واللحوم ، وحلاقين وسمكرية وميكانيكية ونجارون وسباكون وقطع غيار سيارات ، كذلك تشهد هذه الهوائيات القائمة فوق الأعشاش وقد علاها الصدأ والتراب ، وهذه الأشجار الوارفة ونباتات الخروع وأشجار الموز والأسوار المخضوضرة ..

إلى أن شرعت الحكومة فى تخطيط مدينة نصر فى الطرف القصى من صحراء الممالك . وبدأ المقاولون فى البناء لحساب الأهالى العائدين من ليبيا والعراق والكويت ولصوص القطاع العام وتجار المخدرات وكبار التجار الذين أثروا على حساب أقوات الشعب . الحكومة شجعت على البناء وسهلت أموره ، وفرت حديد التسليح والأسمنت بأسعار رخيصة ، حتى الأرض باعتها لهم بسعر

تكلفة المرافق تقريبا وبالتقسيم المريح . فى المقابل يابوى كانت هناك صفوف من عرسان وعرايس واقفين بالمرصاد يتسقطون أخبار أى بناء ، فبنت لهم الحكومة بعض المساكن الشعبية . فلما فرغت أراضى التخطيط الرسمى تكالب الأهالى على الأراضى المجاورة ، حيث التحويطات الكثيرة بوضع اليد صارت فى حكم الملكية الشخصية . قامت سوق جديدة فريدة : واضعو أيديهم على الأرض يبيعون قطعاً منها للملاك جدد بأسعار باهظة . العجيب يابوى أن واضع اليد البائع يستطيع فى النهاية - بلغة طويلة معقدة فى دواوين الحكومة - أن يسجل للمشتري . إلى أن فرغت هذه المساحات بدورها فبدأت الأنظار تتجه إلى سفوح الجبل فى مواجهة قرافة المجاورين ، حيث أفقر الفقراء من واضعى اليد الذين رغم طول مدة وضع اليد لم يستطيعوا إقامة بنيان واحد ، والأكادة يابوى أن الحكومة التى صهنت علي الحيتان الكبيرة فى صحراء الممالك وطرمت على كل المخالفات لم تتشطر إلا على هؤلاء ، طبعاً ياخال ، لأنهم أفقر من أن يساموا . وبدأ شبح البلدوزر يطل عليهم فى الظهيرة يابوى ، فالتقوا بأنفسهم فى طريقه تحت عجلاته بكل جسارة . داس البلدوزر من داسه يابوى ، ولكن سيل الدم أعجزه عن المواصلة فتوقف ريثما يتشرب أنفاسه وتتشرب الأرض دم المجروحين التعساء . وهنا يابوى تذكروا فجأة ، أو ربما جاءتهم الأخبار مؤخراً ، أن حسن ولد أبوضب ، بليدياتهم ، الذى طالما اشتغل معهم فى تفتيت الجبل بالديناميت وحمل جنبه السمك على رأسه فى الأسواق ، قد أصبح بقدرة قادر عضواً فى مجلس الأمة ، ويستطيع نقل استغاثتهم إلى سمع الحكومة ..

فجأة رأيت المعلم شندويلي يصعد إلي مكتبى ، كالنبي موسى عليه السلام يجر خلفه رهطاً من بنى إسرائيل المطاريد . يتأثر شديد ، وعبر انفعالات هتماء مليئة بالحروف المكتومة الصافرة ، حكى لى المعلم شندويلي قصة شعبه المختار ،

وما نالهم من آلام وخمائن فادحة ، صار يردد بصوت يكاد يكون باكيا - وكأنتي
المسئول عما حاق بهم يا خال :

- «يروحو فين دول ؟! بنى اسرائيل دول اللي تايهين في صحراء الممالك
وجبل المقطم أكثر من أربعين سنة ؟! بقى يعنى الحكومة لامننا ولا كفاية شرها ؟!
خلاص ! تدور لهم على متوى يلهمهم ! ولا يعنى خلاص ما عايش لهم لازمة في
البلد ؟! والله الصعايدة لوروحوا بلادهم القاهرة تتنن وماتلاقى لقمة تاكلها ! طب
أهم بكره يرحلوا على الخليج يعمروه ونبقي ندور على نفر بطلوع الروح ما
نلاقهش !!»

جريت إلى سيارتى الشيفروليه السوداء ذات الستائر الحاجبة . بسبوسة
بجوارى ، وهندى خلفى مباشرة باعتباره حارسى الخاص حامل المسدس ، ناهيك
عن مسدسى المرخص باسمى والنائم دوما تحت ابطى . بجوار هندى كل من
بريش وغزولى . ومن خلفنا المعلم شندولى بسيارته المرسيدس العتيقة المجنحة
ملآنة بالخلق من بلدياتى . ومن خلفه سياة أجرة تحمل الباقين ..

ذهبنا من فورنا إلى ذلك الخلاء الرايض فى سفح الجبل ، حيث تكون القلعة
على الجانب الآخر من الطريق ، ومن بعدها حوش العائلة الخديوية الشبيه بقصر
من القصور الملكية بحديقته الكبيرة الزاهرة . أمام حوش العائلة الخديوية صفوف
من المقابر الخاصة بعائلات أخرى كبيرة ، بعضها داخل أحواش وبعضها في
العرء - مكانها الآن طريق الأوتوستراد وهو وحده قصة سأحكىها فيما بعد -
أمام هذه الصفوف من المقابر توجد قضبان فى سكة حديدية خاصة بالقطار
الحربى المتخصص في نقل الأسلحة والذخيرة بجميع أنواعها من حلوان إلى
معسكرات العباسية . هو طريق موحش يا بوى ، لكن بعض سكان حى قايتبى
الذى يخدم هذه المقابر ويعيش عليها تخصصوا فى التريض بهذا القطار الحربى

من أيام الجيش الإنجليزي ، فنظرا لأنه يمشى ببطء شديد خاصة وهو يجتاز هذه المنطقة فإن مجموعة من الولاد المخربشين يريضون تحت الجسر ثم يقفزون إلى العربات ، ليدحرجوا الأسلحة وصناديق الذخيرة وشكائر المؤن والتموين ، فتتساقط على الأرض ، حيث تكون بقية أفراد العصابة قد لاحقوا الجسر لتجميع ما ألقى لهم ..

وكنت أعلم منذ مدة أن نفرا من بلدياتى الذين استولوا على رقع في هذا المكان الموحش البعيد وحوطوا عليها يتخذون من أكواخهم هذه مرابض ومحطات ومخازن لهذه العصابات ، إذ يبارر الواحد من أفراد العصابة بتسريب المسروقات إلي كوخ من هذه الأكواخ بسرعة هائلة ليمشى بعد ذلك بأعصاب مطمئنة يترقب من قد يستوقفه أو يشتبه فيه . قل إن هذه المسروقات مالها كلها في النهاية لمن قاموا باخفائها من بلدياتى ، فحينما يقلق الأولاد عاندين ، يتجمعون في كوخ من أخفوا عنده هذه المسروقات ، حيث يساوهم علي شرائها ، هو وشطارته ، وغالبا هو الكسبان يابوى ، يأخذها بتراب الفلوس ، يبيعها بأعلى الأثمان للصعايدة المقتدرين في القاهرة ، أو يصدرها للصعيد الذى لا يشبع من السلاح ، سيما وأن معلمى شادر السمك الذين يقعون في ضديات مستمرة يعلنون الحرب على بعضهم البعض دائما أبدا ، ولكن دون أن يظهروا فى الميدان ، إنهم يكتفون بشراء الأسلحة والذخيرة وتكديسها تحت أيدي صبيانهم ورجالهم هنا أو في الصعيد ، لأنهم هم الذين يخوضون الحرب الضروس نيابة عن المعلمين ، ومن يموت منهم فالمعلم يتكفل بعياله ، أو يسجن فالمعلم متكفل به على أكمل وجه ..

كنت أعرف هذا يا بوى بل كنت فى يوم من الأيام ضمن من يفعلون هذا . المهم يا بوى ، أوقفنا السيارات ومشينا على أقدامنا بين برك وبروب ملتوية . المكان موحش جدا ولكنه جميل يابوى : مجموعة أكواخ متناثرة ، بين الكوخ

والآخر مسافة يقطعها السائر فى مشوار سخن ، وبين التحويطة والأخرى مرتفعات وصخور وأتربة وقمامة ، ولكن كل كوخ وكل تحويطة تتبع منه وتحوطها أشجار وارفة وتكعيبات غنب ، فوجئنا بسيارات ملاكى فخيمة راكنة بحذاء بعض الأكواخ فعجبنا كيف دخلت إلي هنا ، رائحة احتراق الحشيش تملأ أنوفنا تستدرجنا للنشوة . حقا يا خال إنه لمنتجع عظيم ، فأصحاب هذه السيارات الفخيمة ناس من علية القوم من كبار الفنانين وكبار الموظفين والرأسماليين ، جاءوا إلى هنا لتدخين الحشيش فى أمان الله بعيدا عن نوشة القاهرة اللعينة . ثمة موسيقى شجية يصحبها غناء أجش لكنه مستساغ ومؤثر . قال واحد ممن يسيرون معنا إن أحد أشهر كبار الملحنين زيون يومي دائم عند صاحب هذا الكوخ ، يحشش ويلحن ، فقررت يابوى أن أتخذ لى أنا الآخر منتجعا ها هنا ابتداء من اليوم ..

تجولنا فى المنطقة من أقصاها إلى أقصاها ، عاينتها جيدا يابوى ، تقابلت مع الكثيرين القاطنين فيها ، استمعت إلي المشكلة من جميع أهلها وكيف أنه قد بات من المستحيل عليهم اقتلاع جنورهم من هذا المكان . أكملنا الحديث فى قعدة الملحن نفسها ، فتعرف علينا وتعرفنا عليه ، كان ضريرا ، وله ألحان كثيرة تذاغ فى الإذاعة ، واسمه سيد أبو العرب ، فى هذه القعدة استراحت أعصابى يابوى ، هففت روجي مع التسيم العليل والهواء النقى . حقا يا خال ، أولاد الفرطوس بلدياتى وضعوا أيديهم على أصح وأجمل مكان فى القاهرة كلها . قديما حظى الموتى بحى يرم عظامهم ، والآن يحظى به بلدياتى بالمجان ، فليكن من نصيبهم إن شاء الله ..

الولد بسبوسة استأذن وقام بعد حجرين ، قال إنه سيلف لفة ويعود . وبعد أن خطا خطوتين أشار إلي غزولي أن يتبعه ، فتبعه . القعدة احلوت يابوى ، وسيد

الفدادين التى بلا صاحب ! مثلنا مثل أى واحد من هؤلاء ! نحن لسنا أقل منهم فى شئ ! نحن الذين بدعنا الفتاكة والفهلوة والضجك على الحكومة !! أنت تحوط على هذه السبعة الأفدنة ! وأنا ساكتفى بهذه المساحة التى ستفصل بينك وبين العيش ! وأما غزولى وبريش وهندى والمعلم شندويلى لو أراد فكل منهم أمامه البراح كل واحد يحوط على المساحة التى يرى أنه قادر على الانتفاع بها !!

قلت برضاء تام :

- «عذاك العيب يا بسبوسة ! وماله ! رينا معنا ! من يدري ؟ ربما أكرمنا الله وأصبحت ملكنا فعلا !!»

- «هى خلاص أصبحت ملكنا من الآن !!»

هكذا قال بريش بكل ثقة . فنظرنا جميعا إليه فى إعجاب كأنه قد منحنا ملك الملكية بالفعل يا خال ، وضوعفت حماسى بصورة غير طبيعية . فشجوت بعصبية:

- «المهم التنفيذ فورا يا بسبوسة !!»

شوح بسبوسة مؤكدا :

- «من صبيحة رينا سيجى الأنفار بالأسلاك الشائكة والطوب والشتلات ! دع الأمر لى ! اعتبره قد حصل !!»

ابن الفرطوس نفذ كلامه بالفعل يابوى من اليوم التالي . فبعد حوالى ثلاثة أيام لا أكثر فوجئت به يقدم لى فاتورة الحساب . كانت كبيرة على عكس ما توقعت ، لكننى سرعان ما فطنت إلى أنه قد حملنى تكاليف العملية كلها : مساحتى ومساحاتهم ، وبدلا من عشرة أنفار اكرتلى ثلاثين لكى تنتهى العملية فى زمن قليل وتصبح أمراً واقعا . قلت لا بأس فهم رجالى واليد الواحدة لا تصفق . ذهبت فى مشوار سريع خاطف للمعاينة ولتعيين خفير من بلدياتى لإختراره المعلم

شندوبلى على ضمانته ، ثم عدت فى ذلك اليوم فرحا إلى الشقة التى استأجرها لنا بسبوسة فى حى المنيل فى مواجهة بر الجيزة لنشوف مزاجنا فيها . وكان مقررا أن نستمع فى تلك الليلة إلى نص الاستجواب الذى كلفت بربش بكتابته لكى أحفظه جيدا وألقيه فى البرلمان بين يدى الوزير المختص ومحافظ القاهرة . والواقع أننى لم أكلف بربش ، بل لم يخطر هذا على بالى يا بوى ، إنما خطر على باله هو ، إذ رأيته فجأة يسألنى فى اهتمام شديد :

- «هل حضرت الكلام الذى ستقوله فى حضرة الوزير ؟ هل عرفت أولا معنى الاستجواب ؟! معناه أن تعرض أمام الوزير المختص وزملائك الأعضاء مشكلة كبيرة تخص أهل دائرتك أو أى فئة من الشعب ! ثم تطلب من الوزير إيضاحات حولها !! فإذا اقنعك بالوثائق والأرقام والبيانات الصحيحة أن موقف حكومته سليم وأنها غير مقصرة وغير متراخية فى أداء واجبها بالنسبة لهذه المشكلة بالذات ! كان بها فتشكره وتعتذر له !! وإذا لم يقنعك فإنك تحاول إقناعه وإقناع البرلمان بسلامة طلبك وبضرورة أن تتخذ الحكومة فيه موقفا إيجابيا يعنى تبدأ فى حل المشكلة بالفعل !! وهذا بالطبع يتوقف على مدى استيعابك لحقيقة المشكلة وإلمامك بكل تفاصيلها الواقعية فربما استطعت أن تثبت كذب الوزير فى بياناته !! أنت وشطارتك وقدرتك على الكلام والتأثير ! ولكن ! دعنى أكتب لك هذا الإستجواب ! سأعرض المشكلة جيدا من ناحية ! ومن ناحية أخرى سأضع مجموعة من الأسئلة المخرجة لأحاصر بها الوزير حتى يعترف بحقيقة موقف الحكومة من مسألة كهذه تهم عشرات المئات من الأيدى العاملة التى لاغنى للقاهرة عنها وفى نفس الوقت لا يمكن ترحيلها إلى بلادها بعد أن استوطنت هنا عمرا طويلا !! المهم الآن يا حلو أن تفتح مخك معى ! تصحو ! تحفظ الكلام جيدا ! صحيح أنك ستقرأ من الورق ولكن يجب أن تتدرب جيدا على النطق السليم

لل كلمات الفنية ! سأدريك فى يومين اتنين فلا تحمل هما !!»

عندما بدأ بربيش يقرأ علينا نصُّ الإستجواب يا بوى تيقنت فى هذه اللحظة فحسب أننى بالفعل فى البرلمان . هذا البريش المتشرد المخريشاتى مخزن ثقافة يا بوى ، ولا أدرى كيف يكون هكذا ويتشرد ؟! يملك كل هذه المعارف والمعلومات ويشتغل لصا نتتا بدل أن يكون لصا محترما . وكنت أظن أن حرصه على قراءة الجرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة ، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى السياسة أصلا هو الذى دفعه لقراءة الصحف من الطفولة حينما كان فى البلاد سياسة حقيقية وساسة حقيقيين وصحف حقيقية لا نشرات إخبارية حكومية . لقد تعلم السياسة فى الشارع وعلى المقاهى وفى البيت لأن جميع الناس كانوا آنذاك يشغلون أنفسهم بالسياسة . وليست الصحف هى كل ما يقرأ بربيش ، إنما هو لا ينام مطلقا إلا بعد أن يقرأ فى السرير ساعتين أو ثلاثة فى كتاب يشتريه أو يستعيّره أو يستأجره ، مما جعلنى أحسده وأتمنى لو فعلت مثله ليستنير مخى الصعيدي الصرف ما دمت سأشتغل بالسياسة كما تصحنى هو نفسه ..

كلام كبير يا بوى ، لا تقل لى مرافعات المحامين فى محاكم الجنايات فى الأفلام ، لا ولا خطب عبدالناصر نفسه . كلام يهز يابوى ، وفيه معلومات وأرقام وبيانات أتى بها الخربوش من جهات متعددة لم أكن سمعت بوجودها من قبل ولا أعرف طبيعة عملها . صور من الواقع ، مقارنات بين المحظوظين والتمعساء كيف يعيش هؤلاء وهؤلاء .. إلخ .. إلخ .. صاح غزولى منبهرا :

— «يا ابن الكا .. ا .. لب .. ! كلام عتيق لم نسمعه من أيام سعد زغول

ومصطفى النحاس !!»

وقال بسبوسة :

— «دماغه جوهرة هذا الولد المتعوس !»

وقال هندی :

- «يضرب ويلقى!»

وعلق بربيش فى زهو :

- «الأهم من كل هذا أن الكلام فى النهاية لا يعنى لأحد ! كما أنه لا يصلح دليلا لاتهام قائله بأى قذف أو عيب !! لقد راعيت فيه تجنب المآخذ القانونية المحظورة !! استخدمت لغة السياسة وأصول الحوار البرلماني المحترم ! كيف استجلب تعاطف البرلمان كله مع مشكلتي ! لقد كنت طول عمري أحلم بأن أكون سياسيا وبرلمانيا ورئيسا لحزب ! هذا الحلم هو الذى ضيع مستقبلى الدراسى وشرى من السجن مع الوفديين إلى مصر الفتاة إلى السجن مع الإخوان المسلمين ثم مع الشيوعيين !! ضعت بين جميع الأحزاب والفرق السرية فلم أنسجم مع أى أحد !! وأفقت فى النهاية على موت أبى ومن بعده أمى ولم يعد أمامى سوى احتراف الشغب السياسى ! تستأجرنى الأحزاب والفرق لإثارة الشغب فى أى محفل ومحاولة إفشال أى مؤتمر والقيام ببعض العمليات السرية لكنها كلها أوصلتني إلى احتقار الجميع والتمرد على الجميع والشغل ضد الجميع لحساب الجميع أو لحساب الشيطان إن دفع لى أجرا مغريا !! ثم كسدت هذه السوق فانتميت إلى شلتكم الوسخة ! وها أنذا أعود مرغما للإشتغال بالسياسة ولو من وراء ستارة الأراجوز - لمواخظة يا حسن بك !!»

صحت فيه مبتهجا ، متغاضيا عن نكته الحارقة :

- «اعتبر نفسك صرت برلمانيا يا بربيش ! فأتا هو أنت ! وكل ما تحلم به لقته لى وأنا أحققه نيابة عنك !!»

ثم إننى أخذت الأوراق منه ، إنزويت بها فى الكرسي الأسىوطى متريعا ، صرت أقرؤها . كان قد كتبها بخط كبير جدا ، وحروف مشكولة ، مما سهل على

نطقها بلذة فائقة . أحببت الكلام يا خال ، عشقته لما فيه من حلوة وطلاوة ومعان كبيرة في السياسة أتعرف عليها لأول مرة وأعرف من خلالها معنى أن يشتغل الإنسان بالسياسة وأن يكون برلمانيا بالذات ، ومعنى البرلمان ، وكيف أنه صاحب التشريع لكل القوانين والدستور . من فرحتى بالكلام وبالاكتشافات ، وفرحتى الأكبر باللور الذى وجدتنى سأمثله ، كبت أحفظ الكلام بعباراته عن ظهر قلب ..

تكررت القراءة خلال يومين آخرين ، معهم أحيانا ، ومع نفسي أحيانا ، أمام المرأة تارة ، وأمام زوجتى تارة فكنت كمن يستعد لامتحان الكفاءة يابوى . والغريب المدهش يا بوى أننى يوم قراعى للإستجواب أمام هيئة البرلمان كلها فوجئت بأننى أتكلم بطريقتى الصعيدية البالغة الوضوح دون أن أقرأ من ورقة ، بل أضفت إلى ما فى الورقة ما ألهمنى به الله من عبارات مؤثرة ، خطبت بها ود الحكومة ، وحمدت لها سهرها الدائم فى خدمة الشعب ، وكيف أن حرصها الشديد على فئات الشعب العاملة ، وخاصة أبناء الصعيد الذين يقدمون لنا أجل الخدمات سوف يجعلها تمد يد العون لهم ، دون أن تكلف نفسها شيئا ، فالأرض ملك للحكومة ، وإذا لم تكن الحكومة قادرة على بناء المساكن فعلي الأقل تقدم للناس تسهيلات أهمها الأرض التى لن تكلفها شيئا ، وأن الذين سيبنيون على نفقتهم يمكن أن يتكفلوا بنفقات المرافق ، بل إن الحكومة ستستفيد بنسبة العوائد المقررة على المباني ، إن قرارا حكيما من الحكومة يسمح لهؤلاء الناس بالبناء على الأماكن التى عششوا فيها واستوطنوها كفيل بحل مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة ، ويساهم فى تدعيم الأمن .. إلخ .. إلخ ..

عنا رأيت ملامح التأثير بادية على وجوه المستمعين ياخال ، وأنهم ينصتون باحترام كبير ، أيقنت أن شخصية حسن ولد أبى ضب القديم ، الحرامى النتن رد السجون ، قد انمحت ، وحل محلها لص كبير واعر ، لص شرعى يحميه الشرع

يستره القانون يعطيه كل يوم ما يسرقه . عجبت من تصاريف هذه الدنيا العجيبة
الغريبة بأوضاعها المقلوبة ، لكنني فرحت مع ذلك يا خال ، وقلت لنفسى : مالى
أنا ؟ هل أنا المسئول عنها ؟ إن اسمها دنيا ، يعنى من الدناة . ولا يمكن أن
تكون الدنيا دنيئة والزمن خوان كما يقول المثل الشائع وأكون أنا من بون الخلق
نبيلاً أصيلاً . ألسنا نحن أولادها وهى أمنا الرعوم ؟ خلاص ! دناة بدناة
فالشاطر هو الفائز أما الخاسر فلا عذر له ، ولا عزاء للشرقاء التعساء الواهمين
ياخال ..

بعد مشاورات ومناورات ومداولات بين البرلمان ومجلس الوزراء استمرت أياما
طويلة صدر قرار مشفوع بموافقة شفهوية من أبى عبدالناصر بأن تباع الأرض
لشاغليها بأسعار رمزية تزيد عن تكلفة المرافق بقليل ..

هب للنبي ، نصبنا معسكرا هناك ، أقمنا احتفالا من ليالى العمر لا أنساه يا
خال ، كنت فيه العريس وصاحب الفرح ، أعلنت فيه أن هذه المدينة سيكون اسمها
من الآن : منشية ناصر ، تقديرا لأبى عبدالناصر على جميله مع ولد بلده .
وصحيح أنهم علي مرمى حجر منا يقيمون مدينة جديدة اسمها مدينة نصر ، إلا
أنها من فعل الحكومة أما مدينتنا هذه فمن فعل الشعب تحية لرئيسنا المفدى .
فهتف ولد بلدى كلهم ، ورقص الخيل على نغم المزمار الصعيدى العظيم ، وانتشى
المقطم من أطنان الخمر والحشيش التى نخلت فى نخاع صخوره ليلة كاملة ..

دبت فى المنطقة خلية نحل عاملة ، حركة بناء على جميع المستويات يابوى ،
من حجرتين مسقوفتين بعروق الخشب والبوص ، إلى قبيلات متباعدة لا يقدر على
تكلفتها سوى مليونير ملآن ، إلى عمائر عالية يدفع السكان تكاليفها مقدما ، إلى
حظائر للسيارات ، ومخازن وبكاكين . ثم ظهر المخبوء يابوى ، إتضح فجأة أن
هذه الأرض الشاسعة لها ملاك بوضع اليد لا نعرف أين كانوا مختفين ولا كيف

علموا بالتطورات ، معظمهم من مطايرد جبل الصعيد القدامى ، الذين تلقوا أوامر من مباحث الصعيد بالرحيل إلى أى مكان بدلا من اغتيالهم أو سجنهم ، فعاشوا فى مزارات فى جبل المقطم يفرضون الاتاوات على كل من ينتفع بالمكان من حولهم ، أو يفرضون حراستهم على المنشآت والأعمال . وكان كل واحد منهم قد خطط للاستيلاء على مساحة معينة ينقض عليها فى الوقت المناسب . وإذا باين خالتى دياب من بين هؤلاء يابوى ، وكنت أظنه انقضى من الحياة لكثرة غيبته ، فإذا بى أمامه وجها لوجه يوم دعونى لفض النزاعات الدامية التى نشأت ، فإذا هو يعرف كل أخبارى . بالحضن يا دياب كيفك يا حسن ، بينى وبينك فرحت بظهوره واعتبرت أن السماء باركتنى بواحد من صلبى يحمى ظهرى ، فكان لابد أن أريحه على الآخر يابوى ، تركته يبيع للخلق أجزاء من المساحة التى زعم أنه واضع يده عليها منذ عشر سنوات . أما كيف يوثق للمشتري عقود البيع فهذا ما لا شأن لى به كما قال . فلما كثر ظهور أمثاله ممن يبيعون للخلق عرفت أنهم يبيعون للمشتريين وهما ، إذ يكتب الواحد منهم للمشتري تنازلا عن قطعة الأرض - التى يحددها مساحة واتجاهات - مقابل خلو رجل كبير ، يعتبره المشتري بمثابة خلو رجل مهما كان يعتبر نوعا من البقشيش بالقياس لثمن قطعة أرض كهذه فى مكان كهذا . إحتفظ دياب لنفسه بقطعة تكفى لبناء عدة بيوت صعيدية واسعة ، ثم شرع فى بناء عمارة كبيرة بالمبالغ التى اغتصبها عنوة واستقدارا . أما أنا فقد احتفظت بدياب نفسه ، ضممت للخفير وانخرت ليوم قائم بإذن الله ..

بسيارتي الملاكى سافرت إلى الصعيد ، زوجى بجوارى ، وهندى حارسى الخاص فى المقعد الخلفى ، ويجواره بريش الذى أصبح سكرتيرى الخاص ومدير مكتبى ومدير أفكارى ومثقفى ومنقضى من كل ورطة طارئة . وقد درب نفسه على نطق حسن بك ودرت نفسي على نطق الأستاذ محمد . قابلتنا البلاد باحتفال

صاحب ، واتضح أن خبر بلدياتي مع منشية ناصر قد وصلهم ، فارتفعت قامتي إلى عنان السماء وأنا أتلقي المديح والثناء ، وأعطى وعودا مؤكدة بالنظر في أحوالهم في القريب العاجل إن شاء الله ، وأوزع أنصاف الجنيها وأرباعها على الفقراء . في الليلة الأولى لوصولنا نيتت الفكرة في ذهن بريش فنفذناها في الصباح ، إلتقينا مجموعة من الشبان كانوا تعلموا قيادة السيارات في الجيش أثناء فترة التجنيد الإجباري ، استكثناهم طلبات لبنك ناصر ليعطى لكل منهم سيارة بالتقسيم المريح لتشغيلها في نقل الركاب أو نقل البضائع كل حسب طلبه . أخذ بريش على عاتقه مهمة متابعة هذه الطلبات في بنك ناصر الإجتماعي ، والإلاحاح بكل وسيلة حتى يوافق عليها . والحق أنه لم يدخر وسعا يابوي ، فلم تمض شهور ثلاثة حتى كان الجميع قد تسلموا السيارات ماركة الرينوه والسوزوكي والهوندا والزاستافا ، فكان لهذه الحركة نوبها الكبير يا بوي .

أما في الليلة التالية فقد شرفتنا الشيخة سعادة بمرافقتنا إلى مكتب المحامي عم زوجي في أسيوط ، حيث أبرم لنا عقد شركة مساهمة مكونة من العبدالله وهليل وأبيه وأولاد خراية ، لإنشاء مزرعة كبرى للخيول والعجول والماشية مقرها منشية ناصر ، يلحق بها مصنع لمنتجات الألبان ، وتعتبر مزرعة البلدة فرعا منها للتوليد والتسويق ، على أن يتولى إدارة المركز الرئيسى دياب ابن خالتي لأنه يعتبر موسوعة في علم الخيل طباعه وأنواعه وأسواقه وأمراضه وعلاجه فضلا عن خبرته الكبيرة في تدريب الخيل على الرقص والسباق ..

أثناء عودتنا لحق بنا هليل والشيخة سعادة لمعاينة المكان . بمجرد رؤيتهم له بلغ سرورهم أقصى مداه . إقتطعنا مساحة تقدر بثلاثة أفدنة خصصناها للمزرعة والمعمل ، وألحقنا بها حديقة تحوى كل نادر أصيل من الأشجار ، يتوسطها قصرى هذا الفخيم ، الذى انتدبت لإنشائه مهندسا كبيرا شهيرا يعرفه بريش

بحكم أنه مخطط القاهرة الكبرى ولديه شركة مقاولات ضخمة وذات قروع نولية .
أطلعنى المهندس علي رسومات كثيرة وأقنعتنى باختيار واحد منها يشبه القصور
الملكية أعجبتنى فيه شرفاته وكرانيشه وحلياته ، هو ذلك الذى نجلس الآن فى
إحدى شرفاته نملئ هذه الأمالى ، مطلين على القاهرة من جميع الاتجاهات
فتراها بجلالة قدرها مجرد علب صغيرة كصناديق القمامة مرمية تحت أقدامنا
فى سفوح سحيقة غائرة فى الأرض . المهندس - بارك الله له فى صحته وأولاده
وعلمه - هو الذى صمم ونفذ جميع ما يتعلق بالقصر من مداخل ومنافذ وطرق
ومسالك . هذا الطريق المرصوف الذى يبدأ من داخل الحديقة من أمام القصر
مباشرة لينتهى خارج الجبل فى السفح الموصل إلى القلعة معمول على حسابى
يابوى . هن قرشك ولا تهن نفسك ، فرجل مثلى وفى وضعى سوف يزوره ناس
كثار يركبون سيارات فارهة ، فلا بد من تسهيل الدخول عليهم وإيجاد مكان آمن
يركنون فيه سياراتهم براحتهم . وقد صح توقعى يا بوى ، ففى هذا القصر تعشى
وتغدى وسكر وحشش وقامر خلق غلاظ يقشعر بدنك إن نكرتهم لك ، ناس من
أعلى عليا القوم يابوى ، صاحبونى وانتفعوا بمعرفتى وجمعوا من ورائى ثروات
طائلة هائلة بارك الله لهم فيها . وفى هذه الحديقة غنى ورقص ومزك أكبر
مشاهير المطربين والراقصات والموسيقيين فى حفلات أين منها حفلات أضواء
المدينة .. أمال يا بوى .

دوه

استغرق بناء القصر حوال نصف عام يا بوى . وكان المهندس الكبير قد بدأ بتعبيد الطريق وتمهيده وتبطينه بالحجر المبشور تمهيدا لرصفه بعد الفراغ من البناء . وقد سهل ذلك دخول عربات الأسمنت والحجارة والزلط والحديد . كانت الحديقة قد أقيمت بالفعل وتولاها بستانى محترف أتى بالأشجار كبيرة زاهرة ثم رشقها . كذلك أقيمت المزرعة والمعمل بواسطة خبراء تعاقد معهم بريش من أساتذة كلية الزراعة . بعدها مباشرة شرعنا فى بناء القصر جاعلين أبوابه الأساسية تفتح على جهة القلعة ، مع الإحتفاظ بممرات مرصوفة بالحصى تربطه من الخلف بالمزرعة . وحينما ارتفع بناء القصر بطوابقه الخمسة العالية الأسقف والشرفات أصبح يحولنا السهر كل ليلة فى الحديقة نتفرج على البناء نتخيل شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذى رأيت فى الماكيت الجسد ، الذى نضعه أمامنا كعبة أطفال ضخمة ونتفرج عليه مسحورين من جميع جهاته .

كانت زوجتى قد أنجبت ابنتا البكرى أدهم ، وكان قد تم قطامه منذ أشهر قليلة حين علمت بئنها قد حملت ، فأسعدنى هذا النبأ . صارت قعدتنا على المساند والثلث تطول فى الحديقة أمام التليفزيون الذى يعمل بالبطارية السائلة ، فتروح زوجتى تحلم بشغل كل غرف القصر التى بلغت سبعين غرفة بخلاف الردهات ودورات المياه والمطابخ والحمامات المتعددة . وكنت أداعبها وأقول لها إن عليها أن تنجب لى عيالا بعدد هذه الغرف ، وكان المهندس أعطانا عددا من المجلات الأجنبية الملونة تعرض ألوانا وأشكالا من الغرف المؤثثة . فهذه أنماط من غرف السفارة وتلك من غرف الصالون وثالثة من الاستراحات وهكذا وعلينا أن

وأفخاذ الضأن ، فى المواسم والمناسبات ، حتى باتت أمورى كلها مقضية بعون الله ، أصبح هناك من يتطوع للدفاع عنى يا بوى ، وتقديم خدمات لم أطلبها يا بوى ، وتلك هى الحياة فى مصر يا بوى : تدفع ثمن كل شئ تعيش ملكا متوجا يا بوى ، ومن يزعم غير هذا فهو قلحاس يضحك على نفسه ..

ذات ليلة هلت علينا الشيخة سعادة ونحن جلوس : زوجى وأنا وابنتا أدهم يزأط بين الأشجار ، والشلة الوسخة شغالة فى رص الحجارة . التليفزيون أمامنا يذيع الأغنيات الوطنية ، ويقطع الإرسال من حين لآخر لينتقل الميكروفون إلى إذاعة خارجية من مطار القاهرة ، حيث نرى الرئيس عبدالناصر وهو يستقبل وافدا جديدا من الملوك والرؤساء العرب ، حيث أن اجتماعا للقمة سوف يعقد فى القاهرة لإيقاف المذبحة التى يقيمها الملك حسين للفلسطينيين فى الأردن ، والتى أطلقت عليها الصحافة مذبحه أيلول الأسود ، مما يجعل بعض العامة من بلدياتى يتصورون أن أيلول الأسود هذا رجل أسود القلب يذبح إخواننا المسلمين ، فصرخ فى وجهى بانفعال وأسى : كيف يتركون أيلول الأسود هذا يذبح أشقاءنا ؟! خنوتى إليه وحدى وأنا أطحنه !! ..

كان يخيم علينا جو من السكينة أميل إلى الحزن الدفين الفامض . قالت الشيخة سعادة وهى تتابع حركة الرئيس عبدالناصر وهو يستقبل الملوك والرؤساء . جعلت تهمهم بكلمات مضغمة وبصوت فيه رهبة ، ثم هتفت فجأة كأنها تلقت خبرا مزعجا :

— اللهم لاحول ولاقوة إلا بالله ! اللهم لاتسألك رد القضاء بل نسألك اللطف

فيه !!

وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة كأنها تبكى اسنين طويلة مضت

ياخال ..

انزعجنا بالغ الانزعاج ياخال ، تشاء منا ، توقعت أن تكون أشفقت على
الرئيس من هذه النوخة بين الملاعين الذين لا يحلو لهم التشدد إلا مع أنفسهم
وأشقائهم ولا يضمروا أحدهم للآخر إلا كل شر وضفينة منذ أيام الخطف
والهجمات إلى أيام النقط الذى اتضح أن أعماقنا جميعا أسود منه :

- «وحدى الله يا ستنا الشيخة ! ما الذى استوجب كل هذا البكاء ؟!»

كفكت معها المنسوب :

- «هذا الرجل ميت ! سيعلى موته بمجرد تمده على أول فراش يقابله !!»

هتفنا جميعا في رعب حقيقى :

- «سبحان الله ولا إله إلا الله ! كيف عرفت ؟!»

وكانت الكاميرا قد استقرت على وجهه ، فأشارت الشيخة إليه كأنم يائسة

تشير إلى ابنها الكسيح فى الفراش :

- «أنظروا إليه !! دققوا فى عينيه !! الموت فيهما ظاهر كالشمس واضح

كالموت !! لاشئ أوضح من الموت ! أين اختفى بريق هاتين العينين الصقيرتين ؟!

إنطفا طبعاً !! لم يعد فى حديثه سوى بقايا فحم بارد !!»

قال بسبوسة :

- «كتر خير ه ! الرجل من صبيحة ربنا واقف على حيله !!»

قال بريش :

- «إنه إرهاب فحسب ! مثل هذا الرجل لايموت بهذه السهولة !! إنه كالحق

بسبعة أرواح !!»

قال غزولى :

- «فليت ! النبى محمد نفسه مات !!»

قالت الشيخة سعادة :

- «لومات الآن تبقى مصر فى الوحل زمنا طويلا ! بكائى ليس عليه بل على مصر ! الآن فحسب تذكرت أكبر خطيئة ارتكبتها فى حياتى ! لقد كتم أنفاس كل الرجال فلم يعد هناك رجل حقيقى يخلفه ! لسوف يتدخل فى حكم بلادنا كل من هب ودب من أسافل القوم فى المنطقة !!»

قلت فى استياء :

- «على كل حال رينا عالم بنا !»

زفرت الشيخة سعادة :

- «حالتنا لاتسر ! أنا التى لم أكن أفهم فى السياسة ولم يكن يخطر على بالى أن أفهم شيئا من أسرارها أصبحت بحكم عشرينى لأهلها أعرف كل شئ فيها !! إننى أقولها ورزقى على الله : كل من يحكمنا اليوم ليس فى دماغه أى نفع للبلاد!! إنهم لايعرفون ماذا يفعلون ! إننى أقرأ لهم الطالع جميعا ! وكل واحد منهم يطلب منى أن أكشف له عن حقيقة شعور الآخر بالنسبة له وما الذى يضمره له وللبلاد؟! إننى لولا التوفيق من الله لذهبت طوعا إلي سراى العباسية من كثرة ما يصيبينى من الذهول من فراغ هؤلاء الناس !!»

صار قلبى يدق ياخال . وجدتنى أسألها :

- «ويعد ياستنا الشيخة ؟ ما الذى تتصحينتنى بفعله فى هذه الظروف الغيراء؟!»

- «ضع عينك فى وسط رأسك ! كن مع القوى حتى ولو كان مغلوبا على أمره فالقوى مهما غلب على أمره سوف ينتصر !! إمسك العصا دائما من الوسط حتى تكون قريبا من طرفى النزاع فتعرف أى الكفتين أرجح !! لمصر رب يحميها ياخوى أما أنت فإن لم تكن مراوغا نكيا تجيد اللعب على جميع الحبال فسوف تدهسك أحفر الأقدام !! ولكن أكبر نصيحة أقولها لك ياخوى : إن رآك كلب وأنت

تأكل فارم له بلقمة يالكك يصبح حارسك الوفى !! لا تلعب ولا تخاطر بنفسك إلا
فى الكبير الكبير وعليك أن تعف عن كل صغير تتركه للصغار ! كن كالأسد لا
يقبل أكل الجيف ولا يأكل وهو شبعان !!»

حصيفة أريية والله يا خال . كرامة لها أكاد أصدق أننا نمت بصلة قريى
للإمام الشافعى ، وإلا فمن أين جاءت كل هذه الشغافية يابوى إن لم تكن وزنتها
عن جد قديم ؟

الشاهد ، سافرت الشبيخة سعادة فى تلك الليلة لتبيت فى أسيوط فى البيت
الذى يطلبها فيه المحافظ حينما يحتاجها القوم حيث يسرع خدمها الموجودون
هناك دائما إلى الاتصال بها فى الجبل لتبليغها . وقد علمت أنها ليلتذاك ظلت
ساهرة حتى الصباح بجوار الرانيو ، وبقيت فى أسيوط قريبة من الناس
والأخبار..

أما نحن ، الشلة الوسخة ، فقد إلتقينا فى شقة المنيل عصر اليوم التالى
ورحنا نشوف مزاجنا بالحجرين ، والتليفزيون مفتوح أمامنا . كنا قد اندمجنا فى
الكلام الحماسى حول مشاريعنا التجارية المقبلة وهل تكون - بتعبير بريش -
صناعية أم ترفيهية أم استهلاكية ؟ . كان رأى بسبوسة أن أى مشاريع من أى
نوع فى مصر بالذات مهما نجحت لا تساوى عشر معشار مشاريع الأكل
والشرب ، فإن أردنا ربحا مضمونا غير ممنوع ولا مقطوع فعلىنا التفكير فى
افتتاح مطاعم ومقاه ومحلات بقاله ومحاصيل زراعية أو مخازن للحلويات . كان
كلامه صحيحا تماما يا بوى ، ولكننا أردنا أن نبحث فى وسيلة لتحقيق مثل هذه
المشاريع الأكلوية الشربوية على نطاق واسع وكبير يحقق لنا الأرباح ونحن جلوس
فى أعقار دورنا ..

وحينما خفتت حدة المناقشة قليلا وبدأنا ننتبه لشد الأنفاس بعمق ، لاحظنا أن

شاشة التلفزيون ملائكة بفقيه يقرأ القرآن . ثم بدأنا نتذكر أنه بدأ القراءة منذ وقت طويل جدا ياخال ، فالتقت أعيننا على نظرة كاتبها نسخة واحدة لمعنى واحد في نفوسنا جميعا ، تنضح بالفجيرة الغامضة ياخال ، لأمر ما ، نكس غزولى رأسه فى منقد النار فيما يشبه الشعور بالذنب كأن فائه السئ بالأمس قد تحقق . لهذا ترك ما فى يديه ونهض إلى التلفزيون ، حول المؤشر على القناة الثانية فقيه يقرأ القرآن ، قلنا جميعا : بس ! جاك الموت يا تارك الصلاة . فتحنا الراديو : فقيه يقرأ القرآن يمشى وراء المؤشر على جميع المحطات . نفصنا كل ما فى أيدينا ، بقينا مسمرين فى مواجهة الشاشة لا ينطق أحدنا بحرف ياخال . فى لمح البصر يا خال صرنا كالأطفال التعساء ينتظرون صدور الحكم بالإعدام . أغرب وأطرف شئ لا أنساه يا بوى أننا لحظتذاك شعرنا جميعا بالجوع ، فجاءة قال بريش : أنا جعت ، فقلنا جميعا فى نفس واحد : ومن سمعك ، فهرول هندى إلى المطبخ وفى دقائق معدودة تمت تسوية كباب الحلة فنزلنا عليها حتتك بتتك مثل المفاجيع . وفيما نتناول الشاى خرج علينا أنور السادات بنفسه يعنى جمال عبدالناصر للأمة العربية والعالم . كان وجهه الصدى صورة بالكربون من محمد بك أبو شناف حتى تحيرت فالحركات هى نفس الحركات ، وعوجة الفك السفلى ، ونطق الحروف بل والصوت والظل وكل شئ من الملامح حتى الزبيبة على الجبهة واحدة ولا يمكن أن يكون هذا غير ذاك ياخال . مع ذلك فأتنا مرغم على الاعتراف بأنهما شخصيتان منفصلتان يابوى . فإذا كان كل من يعرف الاثنين قد أكد أنهما اثنان فكيف لى أن أزعم أنهما واحد يابوى ؟! هناك من يزعم أنه قابل الاثنين فى جلسة واحدة لكننى أشعر أن القائلين بهذا يكذبون لأنى لاحظت أنهم فشارون ببالفون فى إشعارك بأهميتهم ، وأنا لا أنطق مع هؤلاء بل أترك كل واحد يفشر كما يشاء لأنى أستمتع بالفشر ، والفشر ينشط خيالى لكى أفشر أحسن

منهم ، فهكذا الدنيا يابوى ، فشر فى شر والشاطر من يجعلك تصدقه فى كل ما يقول..

وه يابوى ، كيف أصف وقع الخبر علينا ؟ إنفجرنا فى بكاء صارخ ولطم خبود، لكن الشرارة التى اندلعت فى الخلاء سرعان ما شملت الكون كله أشعلت فيه الصراخ والجعير والطم وشق الهدوم وبديبة الأقدام على الأرض . الكون فى زلزال رهيب ياخال ، كأن الدنيا كلها قد تيتمت . نزلنا نمشى فى الشوارع تأنهين مسلووى الإرادة والشعور والعقول يا خال . التحمنا بالجموع الضالة التعسة البائسة ، وقد ألت الجموع ظلالها الكثيفة على الشوارع فسحبت أضواءها واختنق الهواء وخيمت الكآبة كأنما السماء دلقت على الأرض جموعا بلا جنور بلا أهل ، نتعرف أقدامها على الطريق لأول مرة ..

عدنا إلى الشقة نفسها فى أواسط الليل ، أغلب الظن لنبحث عن شخصياتنا التى فقدناها فى الجموع المتلاطمة . استأنفت الجوزة بورتها . بدأت ظلال من شخصياتنا تتعرف على أجسادنا وتتحاز إليها . وجتئنى أقول لبريش :
- «عندك تفسير لكل هذا الهلع الذى رأيناه ؟»

سحب من الحجر نفسا عميقا ، أتبعه برشفة من كأس البيرة المغرم دوننا بشربها ، ثم قال فى هدوء الفلاسفة :

- «الجميع يشعر بالفجيعة طبعاً ! لأنهم كالأطفال الصغار الذين عودهم أبوهم على أن يفعل كل شئ بنفسه لا يترك لهم أى شئ يشاركون به فى إدارة البيت ! فهو رب البيت وكل شئ فيه ! هو الذى يمنح ويمنع ! لأرجل غيره والجميع عيال حتى ولو كانوا أفضل منه فى كل شئ إلا صوت أعلى من صوته ! لا كلمة لأحد فى ظله وكلمته تمشى فوق رقاب الجميع !! لا يقبل نقدا ولا مشورة ومن يتقدم بشئ من هذا فهو عو يجب إبادته فى الحال أو بتره من شجرة العائلة !!

وهكذا أراح الجميع أنفسهم بتركوه ينقرد بكل صغيرة وكبيرة حتى الذين اختارهم ليعاونوه يفعلون ما يأمرهم به فى العلن وينقضونه فى السر بأفعال مضادة !! فلما يموت فجأة لابد أن يشعر الجميع بأنهم صاروا فى العراء بعد أن انهدم سقف البيت على رؤسهم !!»

ثم استأنف الشرب وشد الأنفاس كأنه كان يكلم نفسه أو يفكر بصوت عال .
قلت له :

«والعمل الآن يا بريش ؟!»

قال بتلقائية وبغير انفعال :

«العمل عمل رينا طبعاً ! جاء ت لأنور السادات على الطبطاب !! هو نائبه الأول ! سوف يتولى رئاسة الجمهورية مؤقتاً إلى أن يحدث الاستفتاء الشعبى ! المتوقع طبعاً أن الشعب سوف يوافق على رئاسة أنور السادات ! الشعب الذى لم يقل لا طول تاريخه لن يقولها فجأة لأنور السادات ! وحتى لو قالها فإنها لن تصل إلى أسماع القائمين على الاستفتاء !!»
«وما الذى تراه إذن بالنسبة لنا ؟!»

«أرى أن نتصرف على أساس أن أنور السادات هو رئيس الجمهورية إلى الأبد ! وأن نبلغه من الآن تأييدنا له بكل الصور ! هو سوف يكون رئيساً غصباً عن التخين فى البلد ! فخلها بجميلة وأعلن مساندتك له من الآن ضد من سيحاولون منافسته من رجال عبدالناصر الذين كانوا قريبين منه وفى حوزتهم كل أسرارهم وأسرار الحكم والبلاد والناس !! هؤلاء لن يسكتوا بسهولة خل بالك ! ليس لأنهم يحتقرون أنور السادات فحسب بل لأن منصب الرئاسة أجل من أن يفرط فيه القريب منه !! ستحدث المعركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيداً حتى نتفرج ونتسلى ونستمع كبقية الشعب المصرى ! إنما نكتفى بإظهار ولاعنا لأنور

السادات ! صدقنى إن الشعب يمكن أن يختاره بالفعل ويكون حاجة لتزوير لأن
فى الشعب فئات كثيرة قوية يمتعها أن يكون رجل كاثور السادات رئيسا للبلاد !
وسواء كان هو عبيطا بالفعل أم هو يستعبط ويتدروش لاكتساب حب الناس فإن
الناس يهتموا أن يكون الحاكم درويشا لأنهم حينئذ سيسهل عليهم توجيهه لخدمة
مصالحهم !! غدا سأفكر بك بأن هذا الشعب الماكر هو عبدالناصر مضروب فى
عشرة ولكن فى الاتجاه المضاد للثورة !! سيفق وراءه الأغنياء القدامى ! العائلات
التي ضربتها الثورة ستضحى فى سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة
لفازلتهم لأنه مصاب بعقدة العائلة ! كان يتمنى أن يكون من عائلة ذات جاه
وعزوة وسلطان كعائلة عبدالغفار مثلا فى بلدتهم بالمنوفية !! سوف يفتح صدره
للك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها ببسط حمايته عليها لكى يشعر بالنشوة
من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت تقف
باعتباره تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذى اليد العليا والقامة
الأعلى !! إسألونى أنا عن أنور السادات فإننى أعرفه جيدا عجنته وخبرته شاركت
فى تهريبه ذات يوم قبل الثورة أنا وممرض بالقصر العينى أصبح الآن كاتباً
مشهوراً فى الإذاعة ! وكنا قد عرفناه وصاحبناه عن طريق كاتب مشهور اسمه
زكريا الحجاوى لعلمكم سمعتم اسمه فى الإذاعة أيضا ! ذلك الذى تزوج خضره
محمد خضر الموالية !! أصبح ما فيكم جميعا لا يساوى سنة واحدة فى حياة
أنور السادات ومن هنا فإنه سيعلم الناس كيف تمشى على العجين فلا تلخطه !!
كلام بربش عميق ياخال ، إنه ولد مخريشاتى يفهم فى أشياء كثيرة وبالأخص
فى أنور السادات . خريشته أهم من خريشتى ومن خريشات بسبوسة وغزولى
وهندى لهذا يفيد بعضنا البعض فائدة كبيرة . صياغة بربش شملت الحوارى
والشوارع السياسية منذ وقت مبكر ياخال ، فليس فى البلاد كلها سياسى واحد
غير معروف لبريش بالاسم الثلاثى والعنوان وتاريخ الميلاد ، بل قد يعرف اسم

زوجه وأهله وأخباره العائلية النقية ، وهو يصدع رء وسنا كل ليلة بهذه الأخبار ، ويمشاريعه الشريرة في استخدام هذه الأخبار ضد أصحابها ذات يوم قريب ، يعرف كم صفقة مشبوهة عقدها هذا الوزير ، وكم استفاد ذاك من عمولات بحكم منصبه ، يعرف لماذا أقيل فلان ، وهل أقيل أم أنه استقال . وبهذه المناسبة يابوى فقد ظلت وقتا طويلا لا أعرف الفرق بين الإقالة والإستقالة إلى أن عرفت أنها من بريش العفريت هذا . وما أكثر ما عرفت منه يا بوى . علي أنني بعد أن كنت أحاول إسكاته عندما يدير شريط مثالب الوزراء وفصائح مجالس الإدارات أصبحت أناشده أن يستأنف الكلام كلما سكث ، ذلك أنني قد بدأت أعرف قيمة هذه الأسرار يابوى ومدى إفادتها لنا في تثبيت علاقتنا بآئور السادات .

أما صياغة بسبوسة - وهى الأخرى مفيدة جدا فى هذا المجال - فإنها صياغة فريدة : يعرف أسرار كل نسوان البلد تقريبا ياخال ، وخاصة نسوان الوزراء والكبراء والوجهاء ، ذلك لأنه كان مكلفا بمراقبتهم من بعض أزواجهم أو عشاقهم أو بعض الجهات ، يعرف متى تقابلت إحداهم مع أحدهم فى المصيف البعيد جدا ، وعلاقة المساحقة بين هذه وتلك . يعرف أخبار جميع نور اللهو فى شارع الهرم وشارع عماد الدين ، فهذه السينما ملك فلانة وهذا الكازينو ملك الراقصة علانة ، ومن الذى يسهر فى منزل الراقصة المعتزلة فلانة ، ومن الذى يلعب القمار عند من ، ومقدار الخسائر . يعرف عدد صنابق الويسكى التى تم تهريبها للمهى كبير بواسطة فلان الفلانى مقابل مبلغ كذا . يعرف من هى الصحفية المجهولة الداعرة التى نظمت حفلا غنائيا راقصا للضباط فى أنشاص ليلة أن تم ضرب جميع المطارات المصرية فى النكسة المشهورة ، ومن هى الراقصة التى أحييت الحفل شبه عارية ، وكيف أنها هى التى جلبت بقية الفنانين للترفيه عن الرجال . يعرف أخبار وأسرار الخلافات التى نشبت بين المشير أبو

عامر وبرلنتى عبدالحميد ، وكيف استولى عليها المشير وتزوجها رغم أنف المعارضين وعلى رأسهم عبدالناصر . يعرف المثلثات اللائى أرغمن صلاح نصر رئيس المخابرات على العمل بالدعارة مع بعض السفراء وكبار الزائرين للحصول على معلومات تفيد البلد فى حربها مع العدو . كل هذا وغيره يخال يعرفه اللعين بسبوسة ، غير أنه أثقل من بریش فى الإفشاء بما عنده ، ربما لأن مهنته الأصلية كمخبر فى الآداب علمته الكتمان كصناعة يستفيد بها عند اللزوم ، لكنه عندما يفتتح يمكن أن تملأ منه مكتبة شرائط كاملة فى الجلسة الواحدة ..

أما غزولى يابوى فصياغته محدودة لكنها مهمة جدا يابوى . يعرف جميع تجار ومهريى المخدرات على أعلى مستوى ، معرفة شخصية ، بل لديه أسرارهم الخاصة إذ أنه - وهو من المفروض أنه عين الحكومة عليهم - يصبح عينهم على الحكومة . يعرف جميع اتصالاتهم بل ويقوم فى أحيان كثيرة بمهمة المرسال بين المهريين والتجار وبين ضباط الحدود ومباحث الأقسام ، يتفاوض من أجل تمرير صفقة أو غض البصر عن بيعة ، ويأخذ عمولته من الطرفين . يعرف كيف يقوم ضباط الحدود بالاستيلاء على بعض الصفقات بتواطؤ مع المهريين نرا للرماد فى العيون . يعرف من من كبار مستوردى الأخشاب والسيارات يتخنون من هذه السلعة المستورة ستارا يخفى الحشيش والأفيون والهيروين . ومن الذى يشاركهم أو يعاونهم من أعضاء البرلمان البارزين . يعرف أن تاجر المخدرات الكبير فلان الفلاتى هو الذى اشترى سيارة أحد المسئولين بمبلغ كبير رغم سوء حالتها لكى يستفيد من حصانتها بقية الشهور المثبوتة فى الرخصة باعتبارها سيارة معروفة لجميع السلطات . يعرف أن محل الأزياء الكبير فى شارع الشواربى تملكه زوجة الوزير فلان وتكتبه باسم خالتها وهى التى تستورد الملابس الأجنبية وتهربها من الجمرك . يعرف ثروات أبناء الضباط الأحرار ورئيس الوزراء وعدد وأنواع

المشاريع التجارية المستترة التى تدر عليهم أنهار الفلوس . ولأنه صانع كبير فإنه يعرف مساكن مشاهير الكتاب والصحفيين الكبار ونجوم المسرح والسينما والتلفزيون ويحلف أنه يشاهد الكثيرين منهم عند تجار المخدرات بل إنه كثيراً ما باع لهم بنفسه . كل هذا وغيره يعرفه غزولى الخلبوص مع أن شكله يبدو كأنه لا يعرف السما من العمى . وربما كانت هذه الموهبة هى سر نجاحه يابوى ..

أما صديقى هندى المجدع فإن صياغته هو الآخر تبدو سطحية لكنها مع ذلك توقفه على الكثير من الأسرار والأخبار المهمة جداً ياخال . إنه متخصص تقريبا فى معرفة أخبار اللصوص كبارهم وصغارهم على السواء . يعرف كيف يسرق المحافظون وكبار رجال الدولة الأرض الحكومية بتسهيلات وأوراق ملفقة ، وكيف يستغلون الفلاحين فى زراعتها ، أو المقاتلين فى بيعها للبناء . يعرف كيف يستفيد رجال الأوقاف من أموال الوقف التى بلا صاحب على كثرتها . يعرف مزارع الفاكهة التى استولى عليها بعض الضباط الأحرار من قدامى الإقطاعيين فى الشرقية والمنوفية والصعيد . يعرف أخبار الإختلاسات فى محلات القطاع العام والهيئات والمؤسسات وكيف يتم تلفيقها لصغار الموظفين الغلابة . يعرف حجم المواد الغذائية النظيفة التى تخرج من مخازن الجمعيات الإستهلاكية إلى منازل المسئولين بالمجان فى حين يقف الشعب فى الطوابير طول النهار ينتظر مجئ ما لايجئ مطلقا . يعرف الكثيرين جدا من أمثال الحاج أحمد نوار الدين السنى فى مجالات كثيرة متنوعة ، كما يعرف النين يتعاونون معهم من كبار الموظفين اللصوص . يعرف عدد سيارات الأجرة التى يمتلكها المسئول عن هيئة النقل العام وكيف يتم إصلاحها وتركيب قطع غيارها بالمجان فى ورش الهيئة نفسها . ويقول هندى دائما إنه كان جديرا بأن يرأس مباحث الأموال العامة لأنه يعرف جيدا أين تذهب وكيف يمكن أن يردّها للدولة .

ياخال . والحق يا خال لقد لخبط لى مخى بقدر ما أضاءه ، فقد كنت أظنه من عشاق الاشتراكية فإذا به ليس من عشاق أى شئ ، وإذا به يقول لى :
- «ما يهمنى هو مستقبلنا السياسى وكيف نكون أقوياء نشوف لنا يومين قبل أن نتوكل على الله !! وعلى فكرة يا حسن !! إن ظاهرة الحزن على عبد الناصر التى رأيناها بأعيننا لم تكن حقيقية إلا فى جزء منها !! الأغلبية العظمى وهى الأقوى تكره عبد الناصر كره العمى صدقنى : الإقطاعيون الذين انتزعت أراضيهـم ! أصحاب الشركات والمصانع والمحلات التى أمت ! الأغنياء والرأسماليون الذين وضعوا تحت الحراسة ظلما وعدوانا ليستمتع بخيرهم للصوص والأفاقون ! أبناء الجنود الذين قتلوا فى حرب وهمية قادها ضابط حشاش بتاع نسوان ! السياسيون والمتقفون والشرقاء الذين جند أبنائهم كمخبرين عليهم ! الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال والعزل السياسى ! أعضاء الأحزاب التى حلت وكان لها فى الشارع حضورا قويا من قبل ! الطلبة المستنيريون الذين قلمت أظافرهم وحرم عليهم الاشتغال بالسياسة وتم إخصائهم وإبطال نور ومفعول الجامعات ! حتى التقدميون الذين من المفترض أن عبد الناصر يحقق لهم حلم الاشتراكية يقفون ضده كدكتاتور ! وصحيح أنهم اليوم يتزعمون موجة التباكى عليه والإبقاء على تراثه لكن ذلك مؤقت وسببه خوفهم من ضياع ثورة يوليو وعودة البلاد إلى عهد الملكية وهذا بالطبع مستحيل حدوثه !! وإنهم يعملون بمقولة : نار عبد الناصر الثورية الإشتراكية ولا جنة السادات الرجعية ! وهذه مقولة غبية لا نفع لها فى السياسة والدليل على ذلك أن معظم القوى التى تملك المال والسلاح والنفوذ فى مصر مدعومة بالعالم العربى المدعوم بأمريكا هى الآن مع السادات وإن لم تظهر على السطح بعد خوفا من بطش رجال عبد الناصر الذين قد يظهر أنهم يملكون قوة سرية مدخرة !! فلا تنس أن الحكم كان محوطا بالسرية لأنه حكم الفرد

وأنتابه وليس حكم الشعب كما كان المرحوم يزعم ! »

– «والخلاصة يا بريش!؟»

– «بكل صراحة كان المرحوم كابوسا والناس كانت تبكى من الفرح لا من الحزن ! أو قل من الحزن على المستقبل الغامض والورطة المهيبة التى أوقعهم فيها المرحوم بموته المفاجئ ! إن الموت فى حد ذاته هزيمة مضاعفة !! هزيمة بهزيمة فمن الأفضل أن يراجع الشعب نفسه فى هذه الثورة من أساسها ويعمل على الخلاص منها ! وهذه هى الأرض القوية التى يقف عليها أنور السادات ونحن معه!!»

– «هل سيفرط السادات فى الثورة التى صنعه !؟»

– «الثورة عنده كانت لاستكمال الأبهة كما قلت لك من قبل يحقق بها النفوذ والعزة الشخصية ! فإذا كان هذا سيتحقق له من مصادر أخرى فلتذهب ثورة يوليو إلى صفيحة القمامة غير أنه لن يفعل هذا مرة واحدة إنما سيظل مستمسكا فى الظاهر بشعارات الثورة كأسباب شرعية لبقائه إلى أن يثبت أقدامه !!»

– «وما الموقف الذى يجب أن أتخذه غدا فى البرلمان ؟ فى جلسة الغد سيجرى الاستفتاء على ترشيحه !»

– «لابد أن تكون على رأس الأصوات المؤيدة له !!»

صدقت نبوءة بريش يابوى وتم انتخاب أنور السادات بالإجماع فى السادس عشر من أكتوبر رئيسا للجمهورية .

وكانت هذه صدمة كبيرة للأديش عبد الناصر من أمثال على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعه وغيرهم من أعضاء المكتب السياسى الذين تمكنوا من بث الخوف فى دراويش عبد الناصر ممن يتخنون من الإتحاد الإشتراكى سنداً للنفوذ والوجاهة .

كررت أنتنى بالأصالة عن نفسى وبالنباية عن أهل دائرتى نتمنى له النصر المؤزر ونضع أنفسنا بكل ما نملك تحت تصرف سيادته .

صار هو يتابعنى بهزة من رأسه فى إعجاب ورضا وامتنان ، مع ابتسامة كبيرة والباب - نفس بايب محمد بك ابو شناف - بين أسنانه البيضاء الناصعة . ثم فوجئت به يسألنى عن اسم دائرتى وعن موقعها بالضبط من خريطة الصعيد وعن حالة الأمن فيها ، وحالتها الاقتصادية والاجتماعية بوجه عام . جعلت أحدثه فى كل ما طلب الاستعلام عنه حديثا مستقيضا .

استمع لى فى شغف وهنوء وروية ، لم يبد عليه مطلقا أنه على علم سابق بأى من هذه المعلومات . فأيقنت يا خال أنتنى بالفعل أمام حضرة الرئيس وليس محمد بك ابو شناف ، وأن هذه الشخصية تختلف عن تلك اختلافا بينا رغم تطابقهما فى الشكل والطول والصوت والعادات ولهجة الكلام . كدت أعتقد أنهما توأم ، لولا أن ذلك ليس موجودا فى تاريخ السادات .

ثم إنه شكرنى على هذه الروح الطيبة الشجاعة التى تتسم بها شخصية الصعيدى بوجه عام ، وفى منتهى الرقة أبدى ملاحظة بسيطة استشفها من كلامى إذ قال إنه يهيم أن يوضح لى نقطة بسيطة ربما كانت غائبة عنى وعن البعض من أبناء شعبنا الطبيب الأصيل ، تلك هى أنه - فى الواقع - يحب ويحترم عبد الناصر ، وأنه ماض على طريقه بإذن الله ، غير أن له طريقته الخاصة فى الحكم . ثم سألنى :

- «وبالمناسبة ما هى الأخبار التى تسمعها عن الأديش عبد الناصر هؤلاء كما

تسميهم ؟!»

أدليت بكل ما عندى من تقارير سرية وعلنية ، جميع ما أخبرنى به بسبوسة ويريش وغزولى وهندى ، حتى الإشاعات المتطرفة حكيتها له باعتبارها معلومات .

كان يضايقنى هو منظر أصابع يدى بما تتراكم عليها من صداً خشن لم تفلح
الليفة فى تنعيمه . كذلك كانت شياكة الشلة كلها ، حتى أن صياح مصر عتيقة
الذين يعرفون أصولنا ظهر الانتباهار الشديد فى عيونهم فأنحنوا لنا فى تبجيل ،
وتلك هى الدنيا يا بوى ، مظاهر فى مظاهر .

أوراق السر الأصغر

الولد بسبوسة الدقرم عينه ثاقبة طول عمره . لاحظ ونحن نقترّب من بيت
الحاج نوار الدين أن الجوفية شئ غير طبيعى : ثمة سيارات سوداء تركت فى
زوايا مظلمة تطل من وراء زجاجها عيون متلصصة متفحصة وشبان فى ثياب
بسيطة يقفون فى زهو ولا مبالاة مفتعلة يقول منظرهم : نحن مهمون ، يحتلون
النواصى وحول البيت وسرادق البضائع – تكاد عين الواحد منهم تستوقفك تشدك
من قفاك ، لا تستعلم عن شخصيتك وتستطلع هويتك بل لمجرد أن تقول لك .
نحن هنا ...

فى مدخل البيت ، ذلك المر الضيق القصير المؤدى إلى الباب الرئيسى وقف
ثلاثة أشخاص لم نرهم من قبل ولا نعرف عنهم أى شئ مع أننا نعرف كافة
المتصلين بالحاج سواء من العملاء أو اللصوص أو السماسرة أو البلطجية أو
الأصدقاء .

كانوا على شئ كثير من اللباقة والمرونة والفهولة ، يوهمون كل داخل أنهم من
ألايدش الحاج أوقفهم هنا لإدخال المدعوين فحسب ممن يحملون بطاقة مطبوعة

باسمهم ، واحتجاز كل ذى شكل مريب .

كانوا - تقريبا على وعى بكل داخل ، ينادون البعض بأسمائهم مسبوقة أو متبوعة بلقب : بك أو باشا .

ربك والحق لم أسترح لهذا الجو يابوى . بالفهلوة شعرت أن ولد الأبالة من الشلة الوسخة يعرفون حقيقة الأمر ولا يريدون كشفها لى لسبب من الأسباب ، فلربما وقر فى أذهانهم أنني لو عرفت السر الذى يعرفون فقد أرتبك أو تنهار شخصيتى حيث كثيرا ما يشعروننى بأن لهم الفضل فى تلفيقها بنجاح يشهد ببراعتهم .

كنا نمشى بقوام مشدود ووقار يليق ببكوات أصلاء : بريش على يمينى ، ويسبوسة على يسارى ، وغزولى وهندى خلفنا لزوم الحرس والتأمين متمعدين إظهار ذلك المظهر للعيان سيما وأن هندى كان بارعا جدا فى تقليد نور الياور أو البودى جارد المطلوب منه حماية شخصية كبيرة . همست لبسبوسة :

- «ماذا فى الأمر يا بسبوسة ؟ المسألة فيها سر ! ويظهر لى أنك تعرفه !!»

فيادر بريش بلهجة من يطمئن طفلا متوجسا :

- «بالعكس ! الامر واضح ومفهوم ! فمن بين المدعويين عضو وربما أكثر بمجلس قيادته الثورة ! ومن المؤكد طبعا أن محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة مدعوان ! ولو شغلت مخك الصعيدي فإنه يقول لك إن المدعويين فى مثل هذه الحفلات الكبيرة هم دائما أشبه بالمجاميع المرتبطة ببعضها ! بمعنى أنك إذا دعوت فلانا فلا بد أن تدعو بقية الطاقم الموازى له فى الأهمية ! يعنى سيكون هنا

دخلت يا بوى . محمد بك أبو شناف - تانى ! ؟ فى المواجهة كالعادة . تحلف اليمين يابوى كدت أهتف صائحا : أهلا سيادة الرئيس . هو بعينه يابوى الخالق الناطق ، ولولا أن الطاقية الشبيكة على رأسه ، والجلباب السكروية الأبيض ، والعصا الأبنوس بجواره ، كل ذلك يشهد بأنه فلاح قادم لتوه من العزبة ، لا يمكن أن يكون هذا العمدة الريفى القح هو نفسه ذلك البك المانيكان الذى استقبلنى بالأمس فى قصره بجدية هائلة وملامح وجه محايدة تماما .

إنتعشت ملامح وجهه بمجرد رؤيتى ، وبنفس الصوت المألوف صاح :
-- «من ؟ حسن ؟ معقول ؟ يا أرض احفظى ما عليك ! ألف مبروك يا سيادة النائب ! ألم أقل لك تشجع وافعلها ؟ ها أنت فعلتها ونجحت ! مليون براوة عليك!
لا أحد أحسن من أحد !!»

سلمت عليه بحرارة ، وعلى ذلك المدعو حسن بك ذى اللحية السكسوكة والوجه المتجهم الذى سبق والتقيته فى استراحة القناطر . وكانت الشبيخة سعادة قد راحت ترقبني من قعدتها فى الركن من تحت الخمار الشفاف الذى أمعن فى أبراز ملامح وجهها ، بأنفها المستقيم المدب قليلا فى شموخ ، وخديها البارزين ، وعينيها الواسعتين السوداوتين الساحرتين و مع ابتسامة ثقة وإعجاب وزهو تضى ثغرها فيما هى تتأمل - شبه زاهلة - شياكتي ويكويتي التى بدت متمسقة على هيأتى .

سلمت عليها ناظرا فى الأرض ، قبلت يدها الملفوفة فى قفاز حريرى ، ثم جلست بجوارها متريعا على الشلثة العالية .

قال محمد بك أبو شناف :

- «الليلة ياستنا الشبيخة أنا مشوق لمعرفة طالعى !! إفتحى لى الكوتشينه ! أقصد اقرئى لى ورقى عندك !! أنت سحرتنى بالفعل ليلة قرأت لحسن بك طالع

البلد ومستقبلها كقولة ! من ليلتها وأنا أحلم بأن تقرئى لى ورقى فأنا فى الحقيقة أمر الآن بفترة انتقال جذرية وصعبة وأحب أن أعرف رأسى من قدمى !! فمن يدرى ؟ ربما استترت برأيك واستبصرت حقيقة سككى وحظى معها كما يرمز له الورق ! فايدنى باسم الله!!»

فتحت الشيخة سعادة حقيقتها السوداء ، أخرجت حزمة الورق ، فكت لفافتها الحزبية الحمراء ، فصلت الجزء الصغير الذى مازلت أنكر أن اسمه أوراق السر الأعظم ، أعادته إلى الحقيبة ، أبقت الجزء الكبير فى يدها وهو المسمى - فيما أنكر بأوراق السر الأصفر . قالت لمحمد بك أبو شناف :

- «كم عمر سيادتك ؟»

قال بنبرة من التفاخر المصطنع :

- «ستة وخمسون عاما على وجه التقريب !!»

صاحت الشيخة فى ابتهاج :

- «بعدد أوراق السر الأصفر !! هذا فال سعيد من أولها !!»

- «الحمد لله ! كله بفضل الله وبركة دعاء الوالدين !!»

هكذا قال وهو يتلمظ ثم يشعل البايب فى استمتاع طفولى كبير . الشيخة قدمت له الأوراق يا خال :

- «قم بنفسك بتفنيط الورق دون أن تنتظر فيه !!»

بحركة لاعب كوتشينة عريق ومدرب قام بتفنيط الورق عدة مرات بحيث يضمن أن كل ورقة كانت تالية للأخرى لم تعد تالية لها . ثم قدمه إليها مقلوبا على وجهه مثلما نفعل مع ورق الكوتشينة بالضبط يا بوى .

قلبت هى الورق على ظهره فى يدها ، نازعة الورقة ملوحة بها فى غبطة ، ثم أعادتها فوق الورق ، وأزاحت الخمار عن وجهها ، فأضافت إلى ضوء الحجرة

ضوءاً جديداً يا خال حتى لقد بخلق فيها الجميع منسحراً بهذا الجمال الخمرى
الهادئ الرصين بكبريائه العظيم .

عندئذ قال محمد بك أبو شناف متعمداً إظهار نبوة الغزل :

« يا أرض احفظي ما عليك !! »

وقال حسن بك فى تحفظ وتخرج :

« ما شاء الله ! ما شاء الله !! جوهرة مكتونة ! »

وعلق الحاج أحمد نوار الدين السننى وقد برقت فى عينيه نظرتة الطفولية
الشقية المرحّة العابثة :

« قل لها يا حسن بك : حرام إخفاء هذا الجمال الربانى !! هذا بخل يا سستا

الشيخة !! »

نكست وجهى فى الأرض وقد غلت الدماء فى عروقى يا خال ، صرت أقرأ
الفاتحة فى سرى حتى لا تفضحنى عيونى أو أفقد توازنى . أما الشيخة سعادة
فقد أحمر وجهها وتحول إلى بسمة نضرة ، ولما راقبتها من تحت لثحت رأيتها
تعيد النظر فى الورقة المسحوية وتنقل بصرها بين الورق وملامح وجه محمد بك
أبو شناف . كانت الورقة عبارة عن مجموعة من السيوف المتقاطعة كأنها غابة من
السيوف كل سيف يحاول قطع الآخرين من منتصفه .. قالت الشيخة سعادة :

« كنت تنوى السفر فى هذا الأسبوع !! »

شحب وجهه فى الحال يا بوى ، دمدمت البوارق فى عينيه حتى كنا نسمع

لنظراته صوتاً يا خال . لكنه قال :

« صبح !! أنا أنوى السفر بعد غد إلى مكان ما !! »

« زيارة عمل استطلاعية !! »

« داخل مصر طبعاً !! »

- «ينصحك الورق بعدم السفر إلى هذا المشوار!!»

- «كذا !!»

- «هكذا يقول الورق !!»

نكس رأسه متفكرا فى عمق وحيرة تدخل حسن بك فى شئ من القلق الذى يخفى رغبة قوية فى معرفة ما وراء هذه النصيحة . قال بلهجة من يعرف حقيقة المشوار المقصود :

- «رأبى يا ستننا الشبخة أن تكشفى له الورق أكثر !! صارحيه بما تريينه فى الورق !!»

هزت الشبخة سعادة رأسها بالمواقفة :

- «واجبى أن أنبهه إن كان سيادته مصرا على معرفة السبب فإننى أقوله !!»

- «قوليها طبعاً ! ليس هنا من أحد غريب !!»

- «هناك نية غدر فى طريقك ! مؤامرة لقتلك من ناس متلاحمين بك تلاحم هذه السيوف ببعضها ! السكة معقبة تماما ! سيوف تتقاطع !!»

زام فى قلق كبير جدا يا بوى :

- «الامر هكذا إذن ! والله لقد حدثنى قلبى بشئ من هذا صباح اليوم ! قلب

المؤمن دليله فعلا !! وبعد يا ستننا الشبخة ؟ ماذا يقول الورق أيضا ؟»

- «دعنى أرتب أوراق الكشف فى مجموعات الأربع لكى أقرأ لك الورق من جميع النواحي !!»

شخصنا إليها جميعا يا خال ، فيما راحت هى تفرق الورق على الأرض فى أربع مجموعات متجانسات ، كل مجموعة أربع عشرة ورقة . أظن أننا جميعا حفظنا شكل الورق ، ورقة ورقة ..

هذه هى المجموعة الأولى : الورقة الأولى منها مرسوم عليها سيف نتار تمسكه

يد . الورقة الثانية مرسوم عليها سيفان متقاطعان فى حركة التفاف مقوسة
بيضاوية يتوسط الفراغ بينهما وردة حمراء على بساط من زهور وأغصان صفراء
وخضراء . والورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاثة سيوف ، اثنان منها فى حركة
التفاف بيضاوية ، والسيف الثالث يخترق هذا الشكل البيضاوى عموديا ، تنفرع
من هذا السيف أغصان الزهور بأوراق حمراء وخضراء وصفراء فكان السيف
هو الذى طرحها .

الورقة الرابعة أربعة سيوف متعاشقة فى نفس الشكل البيضاوى كل سيفين
يخترقان السيفين المتقابلين من الأطراف ، وفى قلب البيضة غصن أخضر على
أصفر تتوسطه وردة حمراء ، وعند الأطراف المتعاشقة ورود ، وأغصان .

الورقة الخامسة تشبه الرابعة فى شكل رسمها إلا أن السيف الخامس يخترق
البيضة عموديا ، يلتف حوله غصن بأوراق خضراء ، أما مقبض السيف فأصفر
على أحمر على أزرق .

الورقة السادسة ستة سيوف ، كل ثلاثة تتعاشق أطرافها مع الثلاثة المتقابلة
فى شكل بيضاوى يتوسطه غصن بأوراق خضراء وصفراء وحمراء فى نهايته
زهرة لوتس متفتحة عن أكماس صفراء . الورقة السابعة تشبه فى رسمها الورقة
السادسة إلا أن السيف السابع يخترق البيضة عموديا ، والأرضية تخلو من أى
زهور أو أغصان . الورقة الثامنة مرسوم عليها ثمانية سيوف كل أربعة تتعاشق
أطرافها مع الأربعة المتقابلة فى شكل بيضاوى ، تتوسط الأرضية زهرة على
شكل النيشان . والورقة التاسعة تشبه فى رسمها شكل الورقة الثامنة إلا أن
السيف التاسع يخترق البيضة ، والأرضية بيضاء من كل رسم . الورقة العاشرة
تشبه التاسعة هى الأخرى إلا أن السيفين التاسع والعاشر يخترقان شكل البيضة
فى تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القبانى . الورقة الحادية عشرة مرسوم

عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه ويمسك بيميناه سيفاً أصفر اللون كلون التاج مسكة تشريفية وسن السيف مرفوع لأعلى ، أما بذلة الملك فلونها خليط من الأصفر والأزرق وهى قطعتان عبارة عن سترة ووشاح وحول ساقيه جوربان أحمران وفوق الوشاح عباءة حمراء . والورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها ؛ هى الأخرى تمسك بيمينها سيفاً أصفر اللون مثل تاجها ، وإذا كان الملك يمسك السيف جالساً على كرسى العرش فإنها أمسكتها واقفة بحركة من تتأهب لأداء رقصة وقد بسطت كف يسراها كمن يشرح شيئاً لأحد ، سيما وأن قوامها رشيق بديع ، فستانها ينساب ذيله على الأرض أزرق اللون فوقه مريلة بكتفين أحمرين حتى الجذع أما بقية المريلة فلونها بنى فاتح ، بكورنيش فيه زخارف زرقاء على أرضية صفراء . الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس بدرع أزرق وعباءة حمراء ، يركب فوق حصان جامع مندفع مرفوع القدمين الأماميتين فى حالة انقضاض ، فيما أمسك الفارس بيميناه السيف فى حالة من يهجم بالضرب . أما الورقة الرابعة عشرة والأخيرة فمرسوم عليها شاب فتى عارى الساقين يرتدى ما يشبه الفستان لونه أزرق بخطوط حمراء ، واضعاً يسراه خلف إلتيته فى حركة انثناء رشيق ، ويميناه أمسك السيف مسكة تشريفية خالصة .. حاجة تهوس يا بوى .

تلك هى المجموعة الأولى يا خال . أما المجموعة الثانية فالورقة الأولى فيها مرسوم عليها قطعة نقود دائرية ، فوقها نقوش زخرفية ، والقطعة موضوعة بين غصنين عموديين على شكل الرسوم الزخرفية التى نراها فى بعض البوابات الحديدية ، مما يدل على أن جميع النقوش الزخرفية التى نراها اليوم على البوابات والأبسطه وحوائط الريفين المدهونة بواسطة الاسطنبة إنما هى مأخوذة من هذه الرسوم وأمثالها يا خال .

الورقة الثانية مرسوم عليها قطعنا نقد كالبريزة الفضية يحتاط بهما شريط طبق الأصل من شريط التصوير السينمائي قبل تجميعه يأخذ شكل علامة استفهام برأسين ، وكل قطعة موضوعة داخل رأس من رأس علامة الاستفهام هذه .

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث قطع دائرية ، والورقة مقسمة نصفان بالطول في قلب النصف الأول قطعة تحتاط بها الغصون والأوراق . في قلب النصف الثاني قطعتان متجاورتان تفصل بينهما غصون وأوراق ، القطع الثلاثة منقوشة بالأصفر والأخضر الزرعى والأغصان زرقاء على حمراء ، يفصل بين نصفي الورقة وردة على شكل النيشان .

الورقة الرابعة عليها أربع قطع وهي الأخرى مقسومة نصفين ، كل نصف عليه قطعتان متجاورتان بنفس اللونين الأصفر والأخضر ، وكل قطعتين يفصل بينهما غصن مهيب قاعدته حمراء وأوراقه زرقاء على الجانبين ، وفي الوسط أكاما لوتس صفراء متفتحة .

الورقة الخامسة عليها خمس قطع نقدية ، اثنان في اليمين واثنان في الشمال وخامسة في المنتصف ، ويفصل بين القطع غصون وأوراق لوتس حمراء .

الورقة السادسة مرسوم عليها ست قطع نقدية بنفس النقوش بنفس الألوان ، كل ثلاثة في جانب في وضع مثلث : اثنان فوقهما واحدة ، ويفصل بين المثلثين غصون حمراء على زرقاء تتفرع من شئ شبيه بالنيشان .

الورقة السابعة تشبه هذه الورقة في تشكيلها . كل ثلاث قطع في وحدة ثلاثية الوضع في ناحية أما القطعة السابعة ففي منتصف الورقة تحيط بها الغصون والأوراق .

الورقة الثامنة مقسمة إلى نصفين ، في كل نصف أربع قطع متقابلة تشبه في

وضعها شكل الصليب كل ضلع من أضلاعه الأربعة تمثله قطعة ، أما مركز الصليب عند نقطة التقاطع فيشبه مخدة بنية اللون غائرة من أطرافها الأربعة كان كل قطعة قد طبعت على طرفها مستقرها المقوس ، ولكنك يمكن أن ترى الورقة على شكل آخر بأن ترى ثلاث قطع في كل جانب وبينهما قطعتان متجاورتان يفصل بينهما غصنان متعاكسان .

الورقة التاسعة شكلها أبداع : أربع قطع متجاورة في أعلى الورقة ، وأربع قطع متجاورة في أسفلها ، والقطعة التاسعة في قلب الورقة كأنها نقطة الربط بين الأربع والأربع ، يمتد بالطول من جوار القطعة التاسعة هذه غصن زهرة لوتس مزدوجة متفتحة من ناحية ومضمومة من الناحية الأخرى ، والطرفان المتفتحان يفتحان على القطعة التاسعة من الجهتين ، الغصنان لونهما أحمر ، وكل غصن يتفرع منه فرعان متقابلان لونهما أزرق .

الورقة العاشرة منقسمة إلى وحدتين ، في كل وحدة خمس قطع ، اثنان في الأعلى واثنان في الأسفل ، والخامسة في القلب ، يفصل بين الوجدتين غصن متفتح أحمر اللون .

الورقة السابعة عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه أصفر اللون ويلتحف بعباءة حمراء غامقة يجلس على كرسي العرش ممسكا بيسراه عصا صفراء ، ويمناه قطعة نقد كالرغيف ، كأنه يهم بقذفها إلى بعيد .

الورقة الثامنة عشرة مرسوم عليها ملكة تلبس التاج الأصفر ، ترتدى ثوبا سماويا فوقه بلوزة في لون عسل النحل وهي الأخرى تمسك بيسراها عصا صفراء ويمناها قطعة نقد مشجرة كأنها تعرضها في المزاد .

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان في لون جنوع الشجرة ، يمسك بيميناه سيفاً مخفوض الرأس لأسفل ، على رأسه خوذه يبرز

من رأسها زر كخصلة من ذيل الحصان ، وخلف رأسه قطعة نقد سباحة فى الهواء كأنها من أضغاث أحلامه .

أما الورقة الرابعة عشرة فمرسوم عليها صورة شاب فتى عارى الساقين على صدره درع مشغول بالقصب ، ويرفع يميناه قطعة نقد ويشير بسبابة يسراه إلى الأرض .. حاجة تهوس يا بوى ..

أما المجموعة الثالثة يا خال ، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة كأس لها غطاء كالسكرية عليه زخارف باللون الأصفر والسمنى والأخضر والبنى ، فى وسطها رسم صليب واضح ومحدد .

الورقة الثانية يا خال عليها كأسان من شكل مختلف بلا غطاء ، أرشق من الأول وأرق يفصل بينهما غصن كشجرة تحتوى الكأسين من الجانبين .

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث كنوس ، اثنتان فى القاعدة وواحدة فى الأعلى فى منتصف المسافة بين الكأسين ، لكن الزهور والأغصان تملأ الفراغ من جانبيه تحفظ للصورة توازنها ، يفصل بينه وبين الكأسين ، وبين الكأسين وبعضهما غصن مزدوج بعنقودين من العنب .

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع كنوس ، إثنان متجاورتان فى الأسفل ، والمساحة الفاصلة بين الاثنتين والاثنتين ملأته بالزهور المتفتحة ، لونها لون الكنوس خليط بين الأحمر والأصفر والأخضر ، ويفصل بين الكأسين الأعلى عصاتان متقاطعتان مربوطتان عند التقاطع بشرط حريرى أزرق .

الورقة الخامسة تشبه الرابعة : كأسان فى الأعلى وكأسان فى الأسفل ، والكأس الخامس فى المنتصف بين غصنين أحمرين متفتحين .

الورقة السادسة مرسوم عليها ست كنوس ، ثلاث متجاورة فى الأعلى وثلاث متجاورة فى الأسفل ، والمساحة بينهما ملأته بغصن يأخذ شكل العقرب ، ملون

الطوابق بواسطة مصاعد داخلية صغيرة تنقل الأوراق والتأشيرات ، أقمنا خزينة صرف ثانية كبنك صغير بنينا عدة عمارات جديدة فى قطع من الأراضى التى اشتريتها آنفا ، جعلناها مخازن وأقرع ادارية فى وحدات متخصصة ، منها وحدة للمناجزة فى أراضى البناء وإقامة عمائر لشقق التمليك بأسعار خيالية ، باتت مجموعة شركات الصفا والمروة أكبر بيت للمال فى مصر .

علمنى الجهابذة والأساتذة من موظفى كيفية إخفاء ثلاثة أرباع الأرباح فى البنوك الأجنبية بعيدا عن أخطار المفاجآت غير السارة ، كما كانوا بارعين فى خلق مشاريع استثمارية تعفى من الضرائب لعدد من السنوات تشجيعا لها على منتجات تحتاجها السوق المحلية كمصانع للأسمعت وحديد التسليح ولا بأس أن تقوم هذه المصانع بصنع أشياء أخرى .

قمنا بتصدير البطاطس والبصل والخضراوات بجميع أنواعها والفواكه ، والمنسوجات القطنية من ملابس داخلية وفوط وبشاكير وملاءات وأطقم سراير وسجاجيد يدوية من شغل الكرداسة وكنت أرى الناس تنوخ وراء السلع المحلية فلا تجدها فأعرف أننا قد استنزفنا السوق كلها بل أوقفناها لأننا نتعامل مع المصادر نفسها نشترى الحداثق والحقول قبل نضج الثمر بوقت كاف ليتولى خبراءنا رعايتها بالطرق العلمية الناجعة ، نتعاقد مع المصانع عقود احتكارات طويلة المدى .

ذمة ودين باخال كان قلبى يوجعنى حينما أرى الناس محرومين من خيارات بلادهم ، ولكن ماذا يفيد وجع القلب ؟ لقد أصبحت ماكينة العمل دائرة لا تستطيع

إيقافها بأى حال ، فجميع الموظفين يحصلون على حوافز وإضافيات وإكراميات تكفل لهم الإستغراق التام فى العمل بحماسة .

وكان بريش متألّفا فى دفع العملات والرواتب الشهرية لأعداد هائلة من المسؤولين فى جميع الجهات ..

البنى آدم منا طماع يا بوى لا يملأ عينيه إلا التراب ، هكذا كان كل العاملين فى شركاتى وعلى رأسهم بسبوسة . لم أستطع إيقافهم عند حدّهم ، فجميعهم ناس يلعبون بالبيض والحجر يا بوى .

سافرت معهم مئات المرات إلى جميع أنحاء العالم ، أمال يا بوى : مال وحصانة ، شفت لندن وباريس والهند واليابان وألمانيا وأمريكا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد وسويسرا والنرويج ناهيك عن تركيا وإيران وبلاد العرب ، أترك المختصين يشوفون شغلهم فى التعاقدات والمعائنات ، وأمضى بصحبة زوجى ومعنا ترجمان خاص من عشرات المترجمين العاملين عندى شغلتهم الترجمة من وإلى العربية وجميع اللغات ، نتفرج على دور اللهو والمحلات نشترى كل مبهز من الطلبات ناكل فى أفخم المطاعم نبيت فى أعظم الفنادق ، آخر نزاهة يا بوى .

وكنّت على يقين من أن المختصين بأمور البيع والشراء والتعاقد يتقاضون العمولات الكبيرة ، وأطرمخ ، فهذا رزقهم ، وياخت من نفع واستنفع ولكنى لم أعرف أنهم على هذه الدرجة من الفجور وانعدام الضمير يا خال : ما تكاد البضائع المستوردة تصل حتى أفاجأ بأثنى مطلوب للذهاب إلى الجمارك لتخليص إحدى الرسائل بمعرفتى مستغلا صفتى البرلمانية ، لماذا يا ولد ؟ يقال لى : هناك

